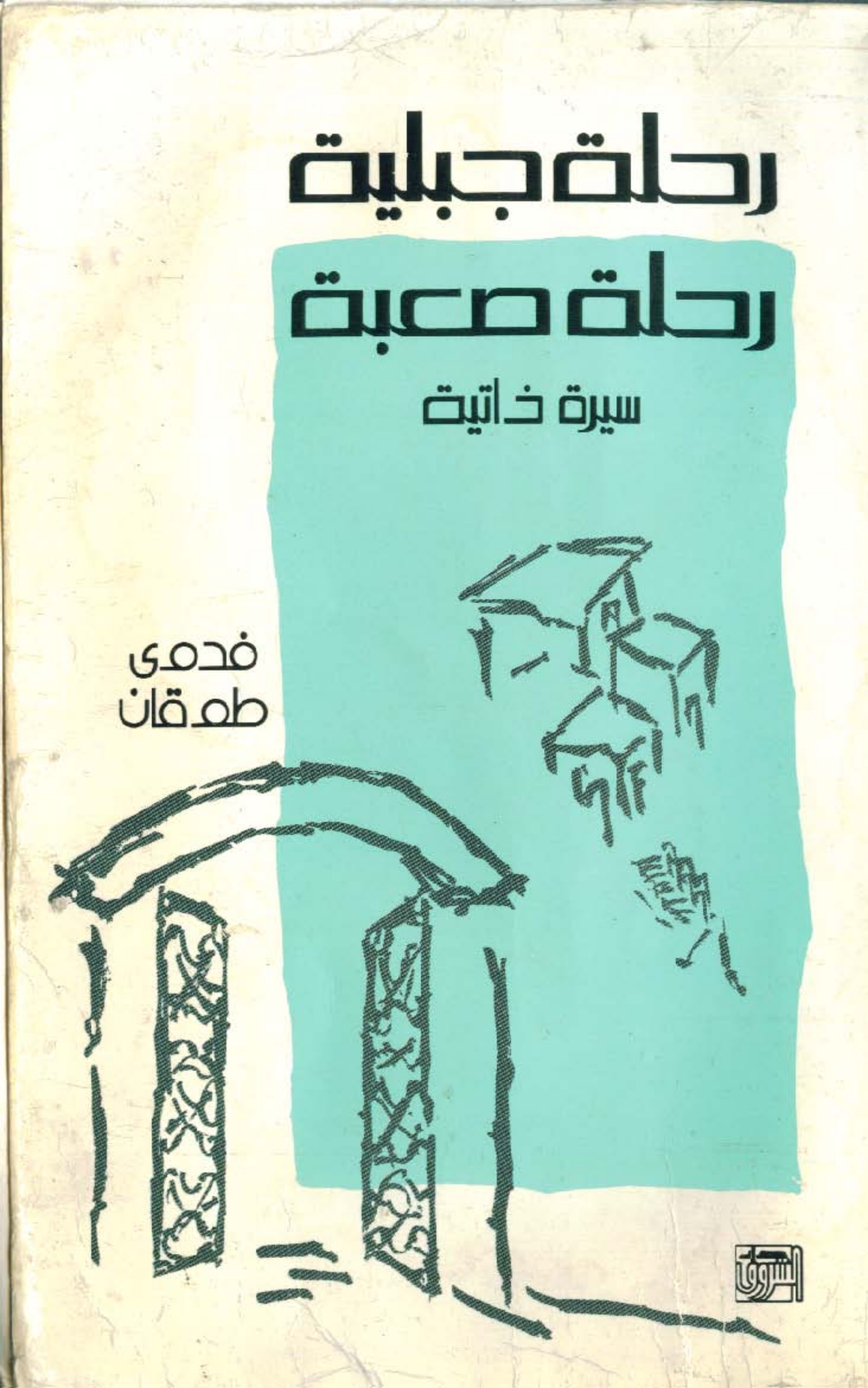
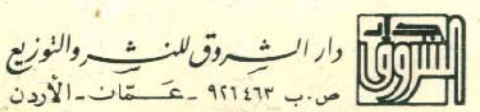

رحلة جبلية
رحلة صعبة
سيرة ذاتية
فدوى
طوقان
الشروق



رحلة جبلية
رحلة صعبة
سيرة ذاتية

«رحلة جبلية . . رحلة صعبة» هو الاسم الذي اختارته الشاعرة العربية المبدعة فدوى طوقان عنواناً لقصة حياتها، التي ترويها هنا بصدق وصراحة وأمانة وعذوبة بالغة، اليوم تنشر هذه المذكرات الرائعة بصورتها الكاملة، حتى تتيح للقارىء العربي في كل مكان، أن يجد هذه المذكرات بين يديه . . ولا شك أنها أصدق وأرقى وأجمل مذكرات كتبتها أديبة عربية في هذا العصر، وهي تستحق أن توضع إلى جانب أهم المذكرات المعروفة في الأدب العربي مثل «أيام» طه حسين، و«زهرة العمر» لتوفيق الحكيم. ومع هذه المذكرات نستطيع أن نبدأ بغير مقدمات طويلة. ففدوى معروفة بشاعريتها الأصيلة، ولكن فدوى في هذه المذكرات قدمت شيئاً جديداً هو التعبير بصدق وصراحة عن هموم المرأة العربية، فالمرأة العربية لم تكتب عن هذه الهموم إلا بالرمز والتلميح والإشارة، وجاءت فدوى تبوح بكل شيء، في أسلوب بالغ الجمال والعذوبة، وفي صدق وشجاعة، جعلت من مذكراتها في آخر الأمر عملاً أدبياً رفيعاً، ووثيقة اجتماعية من الدرجة الأولى، وجعلت من هذه المذكرات قصة هذا الجيل كله وقصة همومه المختلفة، وليست قصة فدوى وحدها.

رجاء النقاش

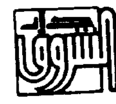


دار الشروق للنشر والتوزيع
ص.ب ٩٢٦٤٦٣ ـ عمّان ـ الأردن

فدوى
طوقان

رحلة جبلية
رحلة صعبة

تقديم : سميح القاسم



* فدوى طوقان: رحلة جبلية رحلة صعبة سيرة ذاتية
* الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

* الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
ص.ب ٩٢٦٤٦٣ ـ عمان ـ الأردن
هاتف ٦٢٤٣٢١ تلكس ٢٢٤٤٢ رباح جو

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٥/٩/٣٨٢

الكشف .. والاكتشاف

لسنا هنا إزاء مجرد سيرة ذاتية اخرى.. فرحلة فدوى طوقان الجبلية، رحلتها الصعبة حقاً لم تكن مجرد حياة اخرى.

انها نقيض العادي. وهي شاهد ثقة على الانشطار الهائل بين الحلم الجامح من جهة والواقع المُقعَد من جهة اخرى.

ولماذا السيرة الذاتية أصلاً ؟

هل لمجرد المتعة الادبية ؟

أم لغاية التسجيل والتوثيق التاريخي ؟

أم هي للأمرين معاً ؟

حين تنزاح هذه السطور من أمام القارىء فسيلفي نفسه منغمساً حتى أطراف أصابعه في مزيج رائع من وقائع التاريخ ونوازع الروح، مسبوكة برشاقة وشفافية وبوح اليف في كلمات شاعرتنا الكبيرة فدوى طوقان، هذه الانسانة الشاعرة المنتصبة في حياتنا الثقافية والاجتماعية ظاهرة فريدة وتجربة رائدة على صعيدي الحياة والابداع معاً.

إن باب السيرة الذاتية باب قائم بذاته في عمارة العمارة. بَيدَ أنه باب غير مطروق كثيراً في لغتنا. ومنذ «ايام» الراحل العظيم طه حسين لم تبلغ سيرة ذاتية ما بلغتة سيرة فدوى طوقان من جرأة في الطرح وأصالة في التعبير وإشراق في العبارة.

أعلم يقيناً ان هذه السيرة التي شهدت ولادتها وسعدت بنشر فصول ضافية منها في «الجديد» تسببت في إشكالات شتى كابدتها صديقتنا العزيزة فدوى طوقان جزاء هذا الاقتحام. ولا ريب في ان

نشوء مثل هذه الاشكلات يهيىء لنا تلقائيا ضربامنالإشعار بخطورة هذه الصفحات . وهل قيض للفنان الاصيل في عصرنا هذا سوى ان تكون حياته سلسلة من المخاطرات والتحديات الهائلة ؟

نلحظ في معظم ما يكتبه الناس عن انفسهم ميلا شديدا الى تجميل الواقع وتبريج الحقيقة ، تحاشيا للتقولات والاجتهاد وتجنبا للمساس بالمشاعر المألوفة والأعراف المكرسة . فالوالدان منزهان دائما عن الشبهات . ورضا الوالدين من رضا الله . ومحبة الوالدين فرض سماوي ..

وكلنا ندرك مدى الانضباطية والقسر في مثل هذه المسلمات .. ولأن فدوى طوقان فنانة تحترم ذاتها وتحترم فنها لا تتورع عن خدش الواح الوصايا هذه وليكن الطوفان من بعد الصدق والاصالة وقداسة الانسان الفرد .

حين يكتب الاخرون عن الفنان فانهم يفتحون له بذلك نافذة على ذاته ..

أما حين يكتب هو عن نفسه فانه يفتح الابواب جميعا على مصاريعها . بعبارة اخرى حين يكشف الانسان عن ذاته فانه يكتشف هذا الذات . الكتابة عن خبايا انفسنا تساعدنا في فهم انفسنا بكل ما تضمره من خير وشر وعلة وعافية . وفي الوقت نفسه فان مثل هذه الكتابة تأخذ بايدي الآخرين على طريق النور ، طريق الكشف والتخطي ، على المستويين الفردي والجمعي . التنوير ـ التثوير ـ التغيير ـ ، هذا الثالوث المتكامل في مهمة اعادة صياغة العالم والحياة (لا غضاضة في السجع)

وهذا هو الثالوث المتكامل في سيرة فدوى طوقان التي انتم على وشك البدء في اكتشافها . ولتكن فصول حياتك ايتها العزيزة فدوى اطول بكثير من فصول كتابك هذا!

سميح القاسم

لقد لعبوا دورهم في حياتي ثم غابوا في طوايا الزمن

فدوى طوقان

ظللت ، طيلة عمري الادبي ، احس بانكماش ونفور من الاجابة على الأسئلة التي توجه الي عن حياتي ، والعوامل التي وجهت هذه الحياة وأثرت فيها ،

وكنت أعرف السبب ، سبب ذلك الانكماش والنفور من الاجابة على الاسئلة ، ذلك انني لم أكن يوما براضية عن حياتي او سعيدة بها ، فشجرة حياتي لم تثمر الا القليل ، وظلت روحي تتوق إلى انجازات أفضل وآفاق أرحب .

اذن ، لماذا هذا اكتب الكتاب الذي أكشف فيه بعض زوايا هذه الحياة التي لم ارض عنها أبداً ؟ بتواضع غير كاذب أقول إن هذه الحياة ، على قلة اثمارها ، لم تخل من عنف الكفاح .

ان البذرة لا ترى النور قبل ان تشق في الارض طريقاً صعباً ، وقصتي هنا هي قصة كفاح البذرة مع الارض الصخرية الصلبة ؛ انها قصة الكفاح مع العطش والصخر .

فلعل في هذه القصة اضافة خيط من الشعاع ينعكس أمام السارين في الدروب الصعبة . وأحب أن أضيف هذه الحقيقة وهي ان الكفاح من اجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنى وقيمة .

لا ضير علينا لو خسرنا المعركة ، فالمهم الا ننهزم أو نلقي السلاح .

ان قوى الشر ، سواء أكانت غيبية أم اجتماعية أم سياسية ، تقف دائماً ضد الانسان وتعمل على تحطيمه ، ولكن الانسان يقف أمام هذه القوى بكبرياء وعناد بالرغم من ضعفه .

***

*

لم افتح خزانة حياتي كلها ، فليس من الضروري ان ننبش كل الخصوصيات .

هناك أشياء عزيزة ونفيسة ، نؤثر أن نبقيها كامنة في زاوية من أرواحنا بعيدة عن العيون المتطفلة ، فلا بد من ابقاء الغلالة مسدلة على بعض جوانب هذه الروح صونا لها من الابتذال .

ما كشفت عنه هو الجانب الكفاحي الذي ذكرت قبل قليل . كيف استطعت ، في حدود ظروفي وقدراتي ، ان أتخطى ما كان يستحيل تخطيه لولا الارادة والرغبة الحقيقية في السعي وراء الأفضل والأحسن ، ثم اصراري على ان أعطي حياتي معنى وقيمة أفضل مما كان مخططاً لها .

القالب الفولاذي الذي يضعنا فيه الأهل ، ولا يسمحون لنا بالخروج عليه . **العقل**

القواعد المألوفة التي يصعب كسرها، التقاليد الخالية من العقل،والتي تضع البنت في قمقم التفاهة. كنت توقا مستمرا الى الانطلاق خارج مناخ الزمان والمكان، والزمان هو زمان القهر والكبت والذوبان في اللاشيئية ... والمكان هو سجن الدار.

هناك من يأتي الى هذا العالم فيجد الطريق امامه مفتوحاً ناعماً .

وهناك من يأتي فيجد الطريق شائكاً صعباً .

على هذا الطريق الصعب رماني المجهول ، ومن هذا الطريق الصعب بدأت رحلتي الجبلية .

حملت الصخرة والتعب ، وقمت بدورات الصعود والهبوط ، الدورات التي لا نهاية لها . لا يكفي ان نحمل آمالاً كباراً وأحلاماً واسعة ، حتى الارادة وحدها لا تكفي ...

لقد ادركت ان العمل هو الوجه الآخر للحلم والارادة ....

وقررت ان أتعامل مع هذه العملة ذات الوجهين : الارادة والعمل .

خرجت من ظلمات المجهول الى عالم غير مستعد لتقبلي .

أمي حاولت التخلص مني في الشهور الاولى من حملها بي . حاولت وكررت المحاولة . ولكنها فشلت .

عشر مرات حملت أمي ، خمسة بنين أعطت الى الحياة وخمس بنات ، ولكنها لم تحاول الاجهاض قط الا حين جاء دوري .

هذا ما كنت اسمعها ترويه منذ صغري .

كانت مرهقة متعبة من عمليات الحمل والولادة والرضاع . فقد كانت تعطي كل عامين أو كل عامين ونصف العام مولوداً جديداً.

يوم تزوجت كانت في الحادية عشرة من عمرها ، ويوم وضعت ابنها البكر كانت لم تتم الخامسة عشرة بعد .

واستمرت هذه الارض السخية ـ كأرض فلسطين ـ تعطي ابي غلتها من بنين وبنات بانتظام . ـ

أحمد ـ ابراهيم ـ بندر ـ فتايا ـ يوسف ـ رحمي .. كان هذا كافياً بالنسبة لأمي ، وآن لها ان تستريح ، لكنها حملت بالرقم السابع على كره ، وحين أرادت التخلص من هذا الرقم السابع ظل متشبثاً في رحمها تشبث الشجر بالارض ، وكأنما يحمل في سر تكوينه روح الاصرار والتحدي المضاد .

ولأول مرة في حياتها الزوجية ينقطع ابي عن محادثة أمي لبضعة أيام ، فقد أغضبته محاولة الاجهاض .

كان المال والبنون بالنسبة له زينة الحياة الدنيا ، وكان يطمع بصبي خامس .

لكني خيبت أمله وتوقعه .

أصبح لديه الآن ثلاث بنات مع البنين الاربعة .. وتبعني فيما بعد أديبة ثم نمر ثم حنان ، فاستكملنا العدد (عشرة) .

□□□□

كان أبي وأمي من مدمني قراءة روايات جرجي زيدان التاريخية ؛ أحبّا شخصية البطلة في قصة «أسيرة المتمهدي» واحتفظت ذاكرتها باسمها ليعطياه لأول أنثى تولد لها فيما بعد .

****

تاريخ ميلادي ضاع في ضباب السنين ، كما ضاع في ذاكرتيهما .

أسأل امي ـ لكن يا أمي على الأقل في أي فصل ؟ في أي عام؟

وتجيب ضاحكة ـ كنت يومها أطهي «عكوب» هذه شهادة ميلادك الوحيدة التي احملها .. لقد أنسيت الشهر والسنة ، ولا اذكر الا انني بدأت أشعر بآلام المخاض وأنا أنظف أكواز العكوب من اشواكها .

والعكوب ـ كلمة سريانية ـ بقلة شائكة من فصيلة المركبات ، تنبت في جبال نابلس ، ويغطي موسمها أكثر من ثلاثة شهور ـ شباط وآذار ونيسان ـ

كانت أمي كجميع الناس في بلادنا ، تؤرخ الوقائع بأحداث بارزة رافقت تلك الوقائع ، كانت تقول ـ جرى ذلك عام الثلجة الكبيرة أو عام الجراد أو عام الزلزال الخ ... وهي عادة في التأريخ كانت متبعة لدى الجيل السابق ولا تزال معمولاً بها في بعض القرى الفلسطينية .

****

بكل ما احمل من طبيعة النزوع الى الغيبيات ، رحت استطلع وأبحث عن السمات الخاصة بمواليد بروج هذه الأشهر الثلاثة ؛ وجدت ان سمات مواليد برج الحوت ـ من ٢٠ شباط الى ٢٠ إذار ـ تنطبق بشكل غريب على طباعي وميولي .

ووضعت نفسي في برج (الحوت) .

سخافات نضحك منها ، ولكننا نظل نشعر بميل خفي اليها بالرغم من عدم ايماننا بها . ان عقلنا يرفض دائماً ما يخرج عن دائرته ، غير ان النزعة الخفية الى الغيبيات تظل كامنة فينا .

****

في عام ١٩٥٠ كان عليّ ان استخرج اول جواز سفر لي . قالت أمي ـ

«أنا ادلّك على مصدر موثوق حيث يمكنك التيقن من عام ميلادك ؛ فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل ، وكنت احب ابن عمي كامل حباً شديداً ، لم يكن لي اخوة فكان هو اخي ، فارس يبهر الانظار بقامته الفارعة ، وطلعته الخلابة ، وذكائه الحاد ، وخفة دمه ودماثته . شعرت بدمي يحترق يوم الفاجعة ، رحت أصرخ وأبكي مع امه واخته وكان وحيدهما ،وكنت أنت تتخبطين وتقفزين في احشائي من جانب الى آخر ، والنسوة في المأتم يطلبن مني الرحمة بالجنين ويقلن لي ـ اشفقي على هذا الولد في بطنك ، حرام عليك» .

وتذكرت ما قرأت عن ظروف الحياة الجنينية التي تضيف الى التركيب الفطري للكائن البشري ، كتأثير الوضع الصحي للأم أثناء الحمل وتصرفها الجسماني وصحة تغذيتها والانفعالات التي تشعر بها .

داخلني شعور بالشفقة على الذات ... ولكي اتخلص من ذلك الشعور قلت لها وأنا أضاحكها : دليني اذن على قبر ابن عمك

كامل . فلم يبق امامي الا ان أستخرج شهادة ميلادي من شاهدة قبر ابن عمك .

ضحكنا معا للمفارقة ، واتفقنا على ان تصطحبني في اليوم التالي الى المقبرة الشرقية حيث يرقد هنالك ابن عمها شهيد الحرب كامل عسقلان .

بين عالم يموت ، وعالم على أبواب الولادة ، خرجت الى هذه الدنيا .

الامبراطورية العثمانية تلفظ أخر أنفاسها ، وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربي جديد ـ ١٩١٧ ..

في سبتمبر تم احتلال باقي فلسطين ، وفي نابلس ألقى الانكليز القبض على ابي ونفوه الى مصر مع رجال إخرين كانوا على وعي بأخطار الاستعمار الغربي الذي بدأ يظهر للعيون اليقظة .

فمع مطلع القرن العشرين نمت الحركة القومية العربية .

(مصر وليبيا وشمال افريقيا تتقاسمها الدول الاستعمارية ـ بريطانيا وايطاليا وفرنسا ـ والولايات العربية العثمانية قد اصبحت هدفا لمطامع فرنسا وانكلترا .

وبنمو الحركة القومية راح العرب يتكتلون ويؤسسون الجمعيات في مختلف أنحاء الولايات العربية العثمانية ، ويكافحون لنيل حقوقهم .

وفي المؤتمر العربي الاول الذي انعقد في باريس في حزيران ١٩١٣ أوضح جدول الأعمال حقيقة ان الحركة القومية العربية ترى طريقها في البقاء في إطار الامبراطورية العثمانية لا في الخروج منها ، اعتقاداً

من قادتها ان ذلك يردع الامبرياليين الاوروبيين عن الولايات العربية العثمانية) .

د. اميل توما. «جذور القضية الفلسطينية» ص ٩٠ ـ ٩١ .

كان أبي يميل مع هذا التيار القومي الواعي لأخطار الزحف الاستعماري الغربي ، وكانت عملية نفيه مع بعض رجال البلاد الوطنيين ومنهم الشيخ رفعت تفاحة ـ وسيف الدين طوقان وفائق العنبتاوي وسواهم ، اول عمل قمعي قامت به حكومة الانتداب في سلسلة لا تنتهي من القمع وكبت الحريات تمهيداً لتحقيق المطامع الصهيونية الخطيرة التي بزغ رأسها أمام عيون الفلسطينيين مع وعد بلفور .

□□□

لم تكن الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتي مع الاسرة لتلبي حاجاتي النفسية ، كما ان حاجاتي المادية لم تعرف في تلك المرحلة الرضى والارتياح . واذا كانت الطفولة هي المرحلة الحاسمة التي ترسم الشخصية وتقررها لما لها من اهمية في حياة الفرد ، فان طفولتي ـ لسوء الحظ او لحسن الحظ ـ لم تكن بالطفولة السعيدة المدللّة .

لقد ظللت أتلهف للحصول على دمية تغمض عينيها وتفتحها ، وكنت استعيض عن دمية خرجت من مصنع بدمية تصنعها لي خالتي ام عبد الله او ابنة الجارة علياء من مزق القماش وقصاصاته الملونة .

ولم أكن أحب ملابسي لا قماشاً ولا تفصيلاً . فقد كانت امي تخيطها بنفسها ولم تكن تتقن هذه الصنعة ، وكانت ابنة عمي شهيرة تلبس دائماً أجمل مما ألبس بما لا يقاس ، اذ كانت أمها تبعث بملابسها الى خياطة محترفة .

أما بنيتي فكانت عليلة منهكة بحمى الملاريا التي رافقت سني طفولتي . وكان شحوبي ونحولي مصدراً للتندر والفكاهة وإطلاق النعوت الجارحة علي : تعالي يا صفراء ، روحي يا خضراء .

كنت أسمع عن أشياء مثيرة تميز ليلة «ليلة القدر» دون سواها من ليالي العام . فهناك مثلاً شجرة في السماء تحمل أوراقاً خضراء بعدد

أهل الارض ، فاذا كانت ليلة القدر تساقطت أوراق أولئك الذين سيموتون في ذلك العام ونبتت اوراق جديدة للمواليد الذين يولدون . ومن ميزات ليلة القدر انفتاح السماء للدعوات التي تصعد من القلوب الملهوفة فتستجاب وتتحقق الأماني ، ؤهكذا كنت أنزوي في ليلة القدر عند ركن في ساحة الدار المكشوفة او عند شجرة من اشجار النارنج وأرفع وجهي الى السماء ضارعة اليها ان تجعل لخدي لوناً جميلا مشرباً بالحمرة حتى يكفوا عن تسميتي بالصفراء والخضراء ، فقد كانت تلك التسمية تجرح احساسي الى درجة كبيرة .

كان ضعف شهيتي للطعام من ضمن اعراض ضعفي الجسدي العام ، فلم أكن طفلة شرهة بحال من الاحوال . وهذا يذكرني بحادثة عابرة ولكن كان لها وقع مؤلم على نفسي . فقد كانت تجاور دارنا واحدة من دكاكين عديدة تصطف على جانبي السوق القديم الذي يمتد من شرقي البلدة الى غربها في خط طويل مستقيم . كانت تلك الدكان خاصة ببيع الحلوى والكنافة النابلسية . وقفت في ظهيرة أحد الأيام على آخر درجة من درجات بابنا الخارجي في السوق اراقب مجموعة من النحل كانت تحوم على سدر الكنافة المعروض امام الدكان . كان النحل يحوم ويحط ثم يطير ويحوم مرة اخرى متنقلاً على الكنافة من مكان الى آخر . كان المنظر مسلياً لي وكنت خالية الذهن من أمر الكنافة ولا اعيرها اي انتباه ، ثم فوجئت بشقيقي الكبير يسوقني من يدي الى البيت ، قال ونحن نرقى السلم : لا يليق بك الوقوف هكذا امام سدر الكنافة فاذا كنت ترغبين في تناولها اخبري امك وهي تحقق لك رغبتك.

نظرت اليه باستغراب ، ولم أقل شيئاً . لم أحاول ان اصحح ظنه الخاطيء ، فقد كنت دائماً عاجزة عن الدفاع عن نفسي ، فما يفترضه الآخرون هو الصحيح ولو كان خطأ ، أو هذا ما يجب ان اسلم به . غير انني شعرت في هذا الموقف بمهانة كبيرة . وطأطأت رأسي ونظرت الى الارض وأنا حزينة ان يظن بي شقيقي صفة الشره بينما

الطعام على مختلف أصنافه هو آخر ما كنت أفكر فيه ، وذلك لوفرته في البيت الذي كان يعج دائماً بالولائم .

كنت اتلهف للحصول على شيء غير الطعام ، حلق ذهبي او سوار او فستان جميل ثمين او دمية من دمى المصانع . كنت اتلهف للحصول على حب أبويّ واهتمام خاص وتحقيق رغبات لم يحققاها لي في يوم ما .

في بلادنا فلسطين يربط الناس السعد والنحس بالمولود الجديد او بالفرس الجديدة او بالزوجة الجديدة او بالمنزل الجديد ، فيكون هذا الجديد مبعث تفاؤل او تشاؤم بحسب ما يرافقه من احداث سعيدة او تعيسة .

ترى هل ربطت أمي مقدمي الى العائلة بالنحس الذي طرأ عليها ، أعني ابعاد الانكليز لأبي الى مصر منفياً عن عائلته ووطنه؟

لست أدري ، فقد يحدث هذا لاشعورياً ، فما أحب ان أظلم أمي ، ولكنها على أية حال لم تكن متفرغة لي ولا مشتاقة اليّ بل أسلمتني الى صبية كانت تعمل في المنزل اسمها (السمرة) لتقوم برعايتي وكان على أمي وظيفة ارضاعي فقط .

في فترة الفطام كانت تأخذني السمرة لأنام معها في بيتها المجاور وقد روت لي فيما بعد كيف كان يكفيها حين ابكي ان تربت على كتفي وعلى ظهري وتهمس في أذني قائلة . (أنا السمرة ، أنت معي) فأكف عن البكاء مطمئنة لوجودي معها وفي حضنها . وقد ظللت احبها ، كما أحببت أولادها فيما بعد ، وكانت قد اطلقت على واحدة من بناتها اسم (فدوى) .

كثيراً ما سمعت أمي تذكر طرائف ونوادر عن طفولة اخوتي مما كان يثيرنا نحن الصغار فنضحك . وكنت انتظر دائماً ان تروي شيئا عن طفولتي ، نادرة مثلاً ، او حادثة طريفة طرافة الحوادث التي

ترويها عنهم ، ولكن دوري الذي كنت أنتظره لم يكن ليأتي قط .. فأبادرها بالسؤال بلهفة طفولية : احكي لنا يا امي شيئاً عني ، ماذا كنت افعل ؟ ماذا كنت أقول ؟ بالله احكي . ولكنها لم تكن لتبل غليلي ولو بذكر طرفة تافهة . وانكمش في داخلي ، وأحس بلاشيئيتي : انني لا شيء ، وليس لي مكان في ذاكرتها ..

هنا كنت اشعر بشعور غير مريح ، ولكني لم اكن استطيع توضيحه .

إن المشاعر المؤلمة التي نكابدها في طفولتنا نظل نحسّ بمذاقها الحاد مهما بلغ بنا العمر .

ومن الذكريات التي تركت في نفسي أثراً لسنوات غير قليلة ما يرتبط بذكرى ابنة عمي (شهيرة) . كانت تكبرني بأربع سنوات وحين ماتت في الرابعة عشرة من العمر بمرض الروماتزم لم يهزني موتها ، بل تلقيته بشعور حيادي .

كانت تعذبني بترفعها وتعاليها عني ، ترشقني باستمرار بنظرات عدائية قاسية . وقد نشأنا في نفس الدار والبيئة ، ولم اكن لاهتدي الى سبب كرهها لي ، فقد كانت مدللة من قبل والديها ، وتتمتع بالحب والاهتمام اللذين ظللت أتوق اليهما في طفولتي . كان لها قرطان ذهبيان يتدليان على جانبي عنقها الابيض ، وكنت احب حركة القرطين وهما يرقصان كلما حركت رأسها ، وكم تمنيت لنفسي مثل هذين القرطين البراقين الراقصين ، ولكن هيهات ، فما كان أحد ليعني بلتبية حاجاتي المادية دعك من حاجاتي النفسية .

كانت غرفتنا تواجه غرفة زوجة عمي وبناتها الثلاث . ولم يكن من تقاليد البيت ان ينام الوالدان في نفس الغرفة ، فللأب دائماً غرفة نومه الخاصة ، أما الام فكانت تنام مع أطفالها في غرفة أخرى .

لم يكن يفصل غرفتنا عن غرفة زوجة عمي وبناتها سوى ساحة صغيرة مسقوفة تتوسطها بركة تتدفق المياه من نافورتها . وفي كل صباح قبل ذهابنا الى المدرسة كانت زوجة عمي تجلس «شهيرة»

امامها وتقوم بتمشيط شعرها الطويل . وفي الوقت ذاته اكون قد اتخذت مقعدي أمام أمي لتقوم بتمشيط شعري . كنت وأنا في مقعدي ذاك أنظر الى زوجة عمي وهي تدلل شعر شهيرة ، تمشطه على مهل وتتهامس معها بحديث الام المهتمة بأشباع عاطفة ابنتها بشكل تلقائي وغريزي . وكان هذا كله يحدث أمام بصري وسمعي بينما كنت أتلقى الضربات على ظهري من قبضتي أمي العصبيتين بسبب ضيقها بتململي بين يديها . كان تمشيطها لشعري سريعاً عصبياً موجعاً ، فلم تكن لتتعامل مع خصلاته المعقدة الطويلة بتمهل ورفق .

وبسبب شهيرة وقع عليّ الظلم من أمي أكثر من مرة . كانت ابنة عمي تستعمل ضدي أحياناً سلاح الافتراء ، حتى لقد عاقبتني أمي ذات يوم بدعك شفتيّ ولساني بزرّ من الفلفل الحار ، ورفعت صوتي بالبكاء المظلوم وأنا أقسم لها أنني بريئة ، ولكن المفجع أنه ليس هناك دفاع ممكن ضد الافتراءات . لقد عانيت من امي مثل هذه المواقف وبقيت على مدى سنوات طويلة اراني في الحلم وجهاً لوجه مع امي - حتى بعد وفاتها - هي صامتة وأنا يغمرني شعور بالقهر المكتوم وإحساس عنيف بالغيظ والظلم ، أحاول الصراخ لأعبر لها عن ظلمها لي ولكن صوتي يظل مخنوقاً في حلقي فلا يصل اليها . هذا الحلم واحد من كوابيس كثيرة كانت تعتريني في أثناء نومي باستمرار .

كثيراً ما يتسربل الحب البنوي بملابس الكره . فبالرغم من انني كنت شديدة الحساسية لمعاملة امي التي كانت تبدو لي فظة وقاسية غير انني كنت في نفس الوقت شديدة الالتصاق بها نفسياً ، وأخاف ان تموت وتتركنا وحدنا ، وفي ليالي القدر كنت أدعو الله ان يبقي ورقة حياتها خضراء عالقة على الشجرة التي في السماء .

من الحكايات التي كانت تقصها عليّ أختي الكبرى قبل النوم حكاية الام التي ماتت وتركت أطفالا ، ثم تزوج بعدها الاب امرأة اخرى شريرة تعذب أطفال زوجها وتفترى عليهم وتذيقهم الهوان والشقاء .مثل هذه الحكايات كانت تزيدني التصاقا بأمي ، كانت علاقتي بها وأنا طفلة تقوم على خليط من المشاعر المتناقضة ، لقد كنت اخافها وفي الوقت نفسه أخاف عليها من الموت . كم كنت أتمنى في تلك المرحلة الطفولية ، لو تعطيني الفرصة لكي أحبها أكثر .

كنت في أعماقي أغتبط حين يهاجمني دور حمى الملاريا بين شهر واخر ، اذ كانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي تعلن فيها امي عن مشاعرها الأمومية تجاهي فأشعر بدفئها وحنانها الحقيقي .

كان التصاقي بخالتي أكبر وأعمق من التصاقي بأمي بما لا يقاس . كانت تشبعني عطفا وحنانا ، فكنت أتردد على بيتها وأقيم عندها ليلة كل بضعة أيام وأسعد بما تتيحه لي من حرية الانطلاق والحركة . لم تنجب خالتي أطفالا فكانت تتخذ من تربية النباتات البيتية والأزهار هواية تسد فراغ حياتها الزوجية ، كان بيتها جنة ملونة بالوان قوس قزح وقد اشتهرت في البلدة بكونها تقتني وتربي الأنواع النادرة من الأزهار .

لم يكن زوجها متعصبا ولا اسيرا للتقاليد . فكانت تتمتع بحرية عقد الصداقات النسائية وتبادل الزيارات وارتياد أماكن النزهة . ومن خلال خالتي – كما من خلال رفيقة طفولتي علياء – تعرفت على كثير من المباهج الموسمية والافراح الاجتماعية . كأيام النيروز مثلاً . كانت تنطلق العائلات في الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس – الى المروج وسفوح الجبال حيث ينعم الناس بالصباحات الربيعية الندية وقد حملوا معهم أواني القهوة والشاي وأنواعاً مختلفة من الكعك والجبن والبيض.

كان التمتع بهذه المباهج الموسمية محرّما علينا في البيت . فكنت أتمنى دائما لو انني ابنة لخالتي وزوجها ، وظللت أكره انتمائي الى العائلة التي جعلني سوء الحظ واحدة من أفرادها . لقد كنت افضل دائماً الانتماء الى عائلة أقل غنى وأكثر حرية .

حتى الدمى التي كانت تصنعها لي خالتي أو رفيقتي علياء من اعواد الخشب الدقيقة ومن مزق القماش ، حتى تلك الدمى توقفت عن التعامل معها منذ زجرتني أمي بقولها : «مسخك الله ، كفاك انشغالاً بالدمى فقد كبرت» . كنت يومها في الثامنة من العمر ، منذ ذلك اليوم لم احتضن دمية . وكانت العلاقة النفسية التي تربطني بالدمى أقوى من علاقتي بأي شيء اخر ، فقد كانت تتحول بين يدي الى مخلوق حيّ ، الى طفل صغير أدلله وأضاحكه وأغضب عليه وأعاقبه وأغني له فينام . لقد كانت امي تزجرني بكلمة (كبرت) باستمرار حتى صرت أحسب حسابا لكل حركة أقوم بها : – هل يليق بي ان أفعل هذا الأمر أم تراني كبرت ؟ وكنت أضيع بين التساؤل الحائر والجواب الذي لم أهتد اليه قط .

لم تكن أمي قاسية بالطبيعة ، بل كانت شديدة الحساسية ، سريعة الاستجابة لدواعي البكاء والحزن ، كما كانت سريعة الانقياد الى المرح والغناء والضحك . كانت ذات مزاج انبساطي متفتح للعلاقات البشرية ، فلم تكن تقدر على التمتع بالحياة دون التواصل مع

الناس ، وكانت لديّ دائما مناعة غريبة ضد العدوى بمزاجها المرح الطليق .

غير انني كنت احس بوجود خيط من الشقاء اللامنظور يمتد في أعماقها ، وحين كبرت عرفت مصدر ذلك الشقاء الخفي . انه الحصار والقهر الاجتماعي المفروض على المرأة في بيتنا . كما تأكد لي ان ذلك القهر الذي كانت تعانيه ، وعزلها عن المجتمع خارج البيت هو الذي نمّى فيها ملكة السخرية والنكتة الذكية كنوع من التنفيس ، فقد كانت الى جانب جمالها ذي السمات التركية التي ورثتها عن أمها ، تمتاز بخفة روح نادرة وسرعة خاطر في التعليقات اللاذعة كما كانت تملك موهبة عجيبة في التقليد أورثتها الى جميع أبنائها .

ولقد حدثتني أكثر من مرة كيف كانت تفقد شهيتها للطعام اذا سمح ابي أو عمي لنساء العائلة بحضور مناسبة من مناسبات الافراح لدى بعض العائلات في البلدة . كان فرحها بالخروج من البيت والالتقاء بالعالم الخارجي يبلغ حدا يعجز عنه الوصف – كما كانت تقول – وكان هذا يحدث مرة او مرتين في العام .

كان من الفرص السعيدة المتاحة لها الذهاب الى الحمّام العام . فالحمام في تلك الأيام ملتقى اجتماعي بهيج لنساء البلدة . كما كان يوم الحمام من أيام فرحي أنا الأخرى ، فلقد كان يستهويني جو المبنى الغريب ، – أبواب وسراديب ، باب يفضي الى باب ، وحائط يفضي الى حائط . بركة ماء كبيرة تتوسط باحة تعلوها قبة زجاجية هائلة الحجم ينفذ من خلالها الضوء الى الساحة ذات المقاعد الحجرية ، ثم ممر اخر وساحة أخرى وبركة أخرى ، وجو حار يتبعه جو أكثر حرارة ، الى أن تنتهي الرحلة السردابية عند ليوان واسع تتحلقه غرف الاستحمام .

كان عليّ ان أثني رأسي الى الوراء لاتمتع بمرأى السقف العالي الذي كانت ترصعه طاقات زجاجية مستديرة تبدو كأقمار مضيئة خلال جو الحمام الضبابي . ولعل هذا هو السبب في تسميتها (بالقماري) .

ويخيل اليّ أن اسم القمارى تحريف عامي لكلمة أقمار .

البخار المتصاعد من كل مكان ، الرائحة الخصوصية الغريبة التي تصافح الأحاسيس بدفء وحميمية ، أصوات النساء المرحة المختلطة بصراخ الأطفال وبكائهم ، الأجساد العارية التي تسيل عليها قطرات الماء من الشعور المسترسلة الطويلة أو المرفوعة الى قمة الرأس ، الجو الأسطوري الغائم ، كل هذا كان يفعمني ويملأ عيني ونفسي وأحاسيسي كلها .

كان نساء الطبقة الفقيرة لا يبالين بالتنقل بين غرف الاستحمام مكشوفات الصدور والأرداف وكانت تروقني عفوية أولئك النسوة اللواتي ينعمن بمناخ اكثر حرية وصدقاً من مناخ البرجوازية المتسم بالنفاق والزيف .

كانت مديرة الحمام ـ وهي عادة زوجة المستأجر أو أخته أو قريبته ـ تخف لاستقبال السيدات ذوات اليسر ، تحضر للسيدة القبقابين الخشبيين ، وتساعدها على نزع ثيابها ، وتلف وسطها (بالوزة) المخططة بلونين أو أكثر ، ثم تسير بها الى غرفة الاستحمام وقد تأبطت ذراعها لتقيها مخاطر الانزلاق على أرض الحمام اللزجة ، وفي غرفة الاستحمام تقبع السيدة بين يدي (الداية) وهي المرأة التي تقوم بغسيل الرأس وتنظيف الجسد بالصابون والليّف ثم تدليكه .

كان يلفت نظري أن أمي تصبح بدون ملابس أكثر جمالاً وأشد جاذبية . كانت تبدو لعيني مثل حورية خرافية . كما كان يلفت نظري التفاف السيدات حولها ومحبتهن لها وارتياحهن الى مبادلتها الحديث . ولعل ما فطرت عليه من حب التواصل مع الناس هو الذي كان يجذب الآخرين اليها بالاضافة الى ظرفها وجمالها .

واذا كنت قد تحدثت عن امي بشيء من المرارة فيما يتعلق بصلتي بها أيام الطفولة فان من حقها عليّ أن أشير الى بعض مزاياها الايجابية ، وأهم تلك المزايا السخاء الذي يتجاوز الحد ، وحنوها الكبير على الفقراء . كما كانت تملك طاقة هائلة على المحبة

والتسامح ، وكم أبغضت المقت والنكد والقيل والقال وكل ما من شانه اثارة المشاكل ، حتى اصبحت هذه الطبيعة السمحة الخيرة نقطة ضعف في شخصيتها حرمتها من القدرة على حمايتنا من تسلط عمتي وأفراد أسرة عمي علينا ، وتدخلهم في شؤوننا الخاصة والعامة .

كان حبها للحياة لا حدود له ، وأستطيع أن أتصور شدة عذابها الداخلي بالحصار الذي كان مفروضا على نساء العائلة ، وبقيت أدهش من احتفاظها بحيويتها وقدرتها على المرح والضحك وهي تحت ذلك الطاحون الذي لا يرحم ، طاحون الضغط والقهر الاجتماعي .

لقد بلغت سنّ الشيخوخة ولم تخمد جذوة حبها للحياة ، فبعد نكبة فلسطين بعامين بدأ التحول الاجتماعي والتغيير الذي يحدث عادة بعد الحروب ، بدأ هذا التحول ينقل الحياة الاجتماعية في نابلس من حال الى حال . وكان أهم مظاهره رفع الحجاب عن وجه المرأة ، والحضور المختلط لعروض السينما ، وكذلك الزيارات العائلية المختلطة . فمع رفع الحجاب ارتفع الحاجز الهائل الذي كان يفصل بين الجنسين في المدينة ، وأقول «المدينة» الآن ، فقد كانت البلدة الصغيرة قد شرعت تكبر وتتسع شيئاً فشيئاً .

كانت أمي أول إمرأة من جيلها ترفع الحجاب في نابلس . ومنذ ذلك الحين أخذت تتنفس نسيم الحرية وقد طوى الزمن الجيل المتعصب في العائلة ، وكنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أرى حيويتها تزداد بفعل انطلاقها من قيود الحصر في السجن الاثري المقيت . وكان حضور الأفلام السينمائية الى جانب مبادلة الزيارات من دواعي غبطتها وسعادتها . لقد كانت تحب الغناء والموسيقى والرقص ، كما كان الكتاب والجريدة والمجلة ضرورة من ضروريات الحياة لا غنى عنها . وحين ضعف بصرها بفعل الشيخوخة استعانت بنظارتين مكبّرتين ، فقد كانت المطالعة متعة من متع الحياة لديها .

وحين انطلقت روحها من اسار الجسد كانت أصابعها الواهنة لا تزال متشبثة بالحياة وما تزخر به من ثراء وغنى .

وإذا كنت قد التصقت بخالتي أكثر من التصاقي بأمي ، فقد كان التصاقي بعمي الحاج حافظ أشد وأعمق من التصاقي بأبي . لقد كنت أحس بدفء قلبه من خلال مداعباته ومضاحكته لي ، وكان يحبني حقا .

تظل ذكرياتي عن عمي واضحة ما دامت تتصل بتلك المداعبات والمشاكسات الحلوة ، وما عدا ذلك تبقى الصورة مشوشة والذكريات متقطعة .

كان يبدو لي رجلا بارزاً ، حاكما أو أميراً أو شيئاً من هذا القبيل . وكان أبي في نظري إنسانا عاديا كغيره من الناس العاديين . فقد كان يلفت نظري ذلك الهرج والمرج المحيطين بمجلس عمي في ديوان العائلة . رجالات البلدة تؤمّه باستمرار ، وباستمرار هناك اجتماعات ولقاءات في حركة دائبة . وكثيرا ما كنت أركض اليه في مجلسه ذاك فيأخذني بين ذراعيه ويجلسني الى جانبه ، وهذا ما لم يفعله أبي معي في يوم من الأيام .

في ربيع كل عام كان رجال نابلس يحتفلون بموسم النبي موسى الذي انبثقت فكرته من ذهن صلاح الدين الأيوبي ، اذ جعل منه مناسبة لتجمع المسلمين في القدس خلال عيد الفصح احتياطاً من

قيام هجمة صليبية مباغتة من قبل التجمعات المسيحية في أعياد الفصح . فكان الشباب المسلمون يتوافدون بأعداد هائلة على المدينة المقدسة من جميع أنحاء المدن والقرى في فلسطين ويلتقون في مقام النبي موسى بين القدس وأريحا . وقد جرت العادة أن يخرج شباب نابلس ورجالها بعلم النبي موسى الذي كانت تحتفظ به بلدية نابلس ، وتبدأ زفة العلم مصحوبة بدق الطبول والصنوج والأهازيج الشعبية ، ويجوب الموكب أنحاء المدينة ثم يتوجه الى القدس ليلتقي هناك بالعلم الخليلي والعلم القدسي ، وتظل المهرجانات قائمة طيلة فترة أعياد الفصح .

في زفة علم النبي موسى كما في زفات الأعراس والختان وختم القرآن ، كان الموكب يقف أمام بيتنا وقد تحول الى مهرجان وطني ، وتعلو الهتافات والتحيات لعمي ، ويمتطي شاب كتفي شاب آخر ويشرع وهو يلوح بالسيف ينشد الأهازيج الحماسية والجماهير تردد أقواله . ـ «احنا رجال جبل النار» وسواها . وفي هذه الأثناء يكون عمي قد ترك مجلسه وأطلّ على الموكب من ساحة الديوان وراح يرش ماء الزهر المقطر على شباب الموكب من خلال ابريق ، أو بالأحرى قمقم فضي صغير .

كان هذا يملؤني اعتزازا بعمي ، وبعد زمن طويل عرفت سر أهمية عمي الجماهيرية التي كان يتمتع بها . ففي عام ١٩٢٥ تشكل في نابلس الحزب الوطني الذي كان يساند الحاج أمين الحسيني في انتخابات المجلس الاسلامي الأعلى التي اجريت في ذلك العام . كما تشكل حزب إخر معارض للحزب الوطني وهو حزب الأهالي الدمقراطي . وكان عمي من أعضاء الحزب الوطني الذي سرعان ما انقسم بعد فوزه بالانتخابات الى فريقين ، الفريق البلدي ، والفريق المجلسي ، هذا يتصل بالحاج أمين الحسيني والأول يتصل براغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس ، وانقسمت البلد بينهما انقساماً كانت له أضرار[1] .

لم يكن ابي منعزلا عن المعترك السياسي . بل كان عضوا في بعض الجمعيات السياسية . وسجن أكثر من مرة من قبل سلطات الانتداب البريطاني . ولكن وجه عمي ظل الأكثر بروزاً .

وحين توفي عمي بالذبحة الصدرية عام ١٩٢٧ عن عمر يناهز الثانية والخمسين عاما . كانت وفاته أول طرقات الموت على بوابة حياتي .

صعقني موته وأسقطني في الذهول وفي دوامة حزن شرس . كان فقده أول فجيعة فقدان عرفها قلبي . ان حياة الانسان سلسلة متواصلة الحلقات من الفقدان . بدءا من اقصانه عن ثدي أمه وانتهاءً بفقدان الحياة ذاتها .

وقفت أرقبه وهو مسجى على سريره بلا حراك . وحيرني ما رأيت على وجهه المستقع من عدم المبالاة بكل ما يجري حوله من بكاء الأهل والأحباب . أحزنني أن أراه بعيدا عني كل هذا البعد هو الذي كان أقرب اليّ من كل أهلي . وظللت أحتفظ لسنين عديدة بمقص صغير قلم به اظافره لاخر مرة في حياته. وكنت اخبئه تحت مخدتي واقبله وابكي قبل ان انام.

وظل عقلي البسيط . البعيد يومئذ عن اي تفكير فلسفي معقد . كثير الانشغال بهذا الشيء الغريب . الرهيب . الذي يسمونه الموت . وكان أكثر ما يحيرني ان وجوه الأموات جميعاً تتخذ نفس المظهر . مظهر اللامبالاة والوحدة المطلقة . ها هي (علياء) التي كانت بالنسبة لي جزءا من نفسي لا أستطيع الاستغناء عنه ، تموت أمام عيني وهي في السابعة عشرة من عمرها دون أن استطيع مشاركتها الاحساس بالموت . كانت تكابد الام النزاع وتموت وحدها . كذلك مات من أحبابي من مات كل بمفرده . دون ان أستطيع مشاركته لحظة الموت الغريبة . بالتأكيد لم تكن الأفكار تخطر لي بهذا الشكل ، كنت أحس بها إحساساً غامضاً . وبالرغم مما كان يقال لنا من أن الموت يذهب بأحبابنا الى الجنة . فقد ظل موت عمي ثم معلمتي الشابة

المحبوبة (زهوة العمد) ثم رفيقة طفولتي (علياء) ابنة الجارة ، ظل موت هؤلاء غير مبرر بالنسبة لي في أي حال من الأحوال ، حتى لو ذهب الموت بهم الى الجنة . وبقي السؤال معلقا على شفتي الطفلة : لماذا ماتوا ورحلوا عني ؟ وكان السؤال يطرح نفسه بكل بساطة الطفولة ووضوحها .

□□□

□

منذ فتحت عينيّ على الدنيا لم أعرف (الشيخة) الا وهي صاحبة الهيبة والسلطة ، والبوليس السري الذي يعمل لحساب أرباب العائلة ويقدم لهم التقارير بما يجري في البيت وكان في تلك التقارير الكثير من السم المدسوس .

وكما يحدث في نطاق المجتمع ، حيث تكون الرقابة المستبدة والقمع والقهر سببا في خلق بنية تتركب من ثنائية الخضوع والتمرد معاً ، كذلك يحدث ضمن نطاق الأفراد ، فالفرد الذي ينمو في مناخ الشرطة السرية والسلطة العائلية المستبدة ينشأ بتركيب نفسي هو مزيج من تلك الثنائية : الخضوع والتمرد . فهناك دائماً صفات مكتسبة تتكون نتيجة للقهر الاجتماعي والعائلي بصفة خاصة . وكانت (الشيخة) من ضمن العناصر التي عملت على خلق هذه البنية النفسية عندي ذات التركيب الثنائي ، الخضوع من جهة والتمرد من جهة اخرى .

في السادسة عشرة من عمرها عادت الشيخة الى بيت أبيها مطلقة بعد زواج فاشل دام لعدة شهور قليلة .

وفي أيام شبابها اتخذت من طريقة الشيخ عبد القادر الكيلاني ملاذاً دينياً تهرب اليه من احباطها النفسي بفعل الزواج الفاشل .

كان قد نزل بالبلدة شيخ مصري ضرير من أصحاب الطريقة الكيلانية استقطب بين من استقطب بعض مطلقات البلدة وأراملها . وكانت الحلقات تعقد في منزل مدير المال الذي أنزله آنذاك في بيته تلمساً لنيل البركة وانضوى مع زوجته الى الطريقة .

سلب الشيخ عقول أولئك النسوة من «المريدات» . فكانت بركته تنشر في المكان ـ أو هكذا كن يتخيّلن ـ رائحة مسكية ترهف من حواسهن الى حد صرن معه يرين ما لا يرى ويسمعن ما لا وجود له .

اغرى الحديث عن بركات الشيخ جدتي التركية «أم عزيزة» فحضرت ذات يوم احدى تلك الحلقات ، انكرت عيناها ما رأت ، واستهجنته ، وشنت على الشيخ حملات شعواء ممتدة . ومنذ ذلك اليوم استحكم عداء مكين بين «الشيخة» وبين جدتي لأمي لم ينتهِ الا بموت الاثنتين فالموت وحده هو الذي يضع النهاية لكل الأشياء .

ولكن (الشيخة) ظلت تحمل لأمي ولنا ـ باستثناء أخي أحمد ـ كرهاً موروثاً .

عندما فتحت عينيّ عليها كانت في الستينات من عمرها على ما أقدّر ، وكنت أراها تكثر من الصلاة والصيام والتسبيح . تصوم الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان ، وتصلي صلاة قيام الليل ، كما كانت تصلي صلاة التراويح والضحى . كنت أرى مسبحة هائلة الحجم تتكوّم على مقعدها الأرضي تسمى بالالفية ، فقد كانت تلك المسبحة تتكون من ألف حبة ، يذكر اسم الله على حباتها حبة حبة . وكانت «الشيخة» تضع علامة بين الحبة التي وقفت عندها عن التسبيح والحبة التي تليها . أما العلامة فهي خيط تربطه بين الحبتين ليكون هاديها الى المكان الذي وقفت عنده ، فكأنما كانت بذلك تقدّم فاتورة حسابها الى الله ....

كانت تتملكني في طفولتي رغبة في مراقبة المصلين وحركاتهم التمثيلية ، وكثيراً ما وقفت بباب (جامع البيك) المواجه لدارنا في السوق القديم أرنو الى جماعة المصلين ، فأرى تفاوتاً في تعابير الوجوه

وفي طريقة أداء الصلاة . فهناك المسرع المتعجل الذي يبدو وكأنه لا يبالي أو لا يفكر بما يقوم به ، وهناك المتأني الخاشع والمندمج فيها يفعل بروحه وبقلبه .

كنت أرقب حركات اليدين وهما ترتفعان الى ما وراء الأذنين ثم تستقران فوراً على الصدر وقد وضعت الكف اليمنى على ظهر الكف اليسرى ، وتهمس الشفاه بتمتمات الصلاة ثم تبدأ حركات الجسم المنتظمة ـ إنحناء الجذع الى الأمام ثم إنتصاب القامة ورفع الرأس الى أعلى ثم العودة الى الانحناء والركوع فالسجود ثم الركوع مرة أخرى مع وضع الراحتين على الفخذين ، ثم التشهد المصحوب برفع السبابتين ثم التحيات مع التفاتة الرأس يميناً وشمالاً وهكذا . كانت مراقبة هذه الحركات تستهويني الى حد بعيد وكنت أتمنى دائماً لو أعرف لماذا يقوم بها المصلون في تعبيرهم عن ايمانهم وتخشعهم الديني .

ولم أعرف الا بعد زمن طويل أن كل طقوس العبادات وشعائرها منذ الوثنية البدائية حتى ظهور الديانات السماوية تتخذ الصفة المسرحية في التعبير عن الإحساس الديني ، فلعل ميل الانسان الى الأجواء الغامضة هو ميل فطري .

أما «الشيخة» فكان اداؤها لفريضة الصلاة يحمل طابع المبالغة والتصنع . كان هناك دائماً شيء مصطنع وغير حقيقي لشدة المبالغة في «مسرحة» أدائها للصلاه .

وكانت تعتريها أحياناً حالات من الدروشة ، فتشرع تهتز هزات عنيفة وتحرك رأسها بعنف يميناً وشمالاً مع ترديد اسم الله...الله...الله...الخ.. تلفظه بعجلة وبلا توقف، ويأخذ الزبد يتراكم على طرفي فمها كلما أمعنت في حركات الدروشة.

كان معنى هذا ان روح الله حلت فيها . ويحدث ان تحلّ الروح فيها وهي في جلسة عادية مع النسوة الزائرات .

أما أوقاتها الأخرى فكانت مكرسة لإصدار الأوامر والنواهي على نساء العائلة واستغابة عباد الله وانتقادهم بحقد ومرارة ، شأن

المحبطين الفاشلين في الحياة .

وما كان أسوأ ظن الشيخة . ففي كثير من الحالات كانت تفسر تصرفات الأخرين تفسيراً جنسياً . ولم تكن تسمح لواحدة من بنات العائلة بإقامة أية صداقة مع القريبات أو زميلات الدراسة أو بنات الجيرة ، فالشيطان في رأيها قابع هناك دائماً ـ بين كل اثنين ـ وهكذا كانت تطرد من المنزل كل صديقة مدرسة أو رفيقة جيرة .

وحين كنت أقوم بتقديم خدمة لها أو شراء ما تحتاج اليه من السوق كنت افعل ذلك بلهفة لأكسب محبتها ورضاها عني ، ولكنها ما كانت لتجود عليّ حتى بابتسامة أو بنظرة فيها طراوة وحنو . فكانت تقف دائماً كجدار يكسوه الصقيع ، لا تنبت عليه عشبة خضراء. كنت اقارن في نفسي بينها وبين جدتي لأمي.. ما أبعد الفرق.. هنا الدفء والرقة والنعومة، أما الشيخة فكانت صحراء لا شجرة فيها ولا ينبوع ماء، كانت كآلها قاسية نصبت نفسها على عرش غير منظور.

كانت متكبرة ، متعالية ، تتملكها غطرسة طبقية عمياء وبلا عقل . هي ، المتدينة ، التي تؤمها النسوة الساذجات وبصحبتهن أطفالهن المرضى ، وبأيديهن أباريق الماء لتتلو الشيخة ايات القرآن على رؤوس الأطفال ولتنفث أنفاسها (الطاهرة) داخل الابريق كيما تحل في الماء البركة الشافية ، هذه الشيخة المتبتلة لله وفي الله ، كانت لها نظرة غريبة تجاه الطبقة المسحوقة ، نظرة ممجوجة يملؤها الترفع والتعالي ... نحن فوق ، انتم تحت .... هكذا أراد الله .....

في تلك الأيام كانت هذه النظرة مألوفة لدى الناس ، وكانت الطبقية قدراً من صنع الله ، وحكماً من أحكامه لا يرد ؛ كنت أسمع دائماً هذه الكلمة المقيتة : سيدي ، ستي ، أمرك سيدي ، أمرك ستي ، أمرك ابن سيدي ..

ان أفكار البيئة تظل سارية المفعول ما دام الناس يتقبلونها ولا يتمردون عليها . واذا كنا نرفض اليوم قول ارسطو «ان العبد يشبه

الحيوان» فما كان قوله هذا في زمنه ممجوجاً ولا مرفوضاً ، فقد كان ارسطو منساقاً مع الأفكار السائدة في عصره ، أفكار المجتمع الاثيني العبودي .

أذكر ان امرأة قالت للشيخة في مناسبة من مناسبات الأفراح في البيت : شرفينا يا ستي بزيارة لنا ، اننا نزوركم دائما ولا تزورونا .
وحدجتها الشيخة بعينين جليديتين ثم قالت بغطرستها المعهودة : اسمعي ، دائماً وأبداً تزورونا ولا نزوركم ، فما معنى الخروج اليوم على هذه القاعدة ؟ وماذا جرى للدنيا ؟ هل انقلبت الأشياء رأساً على عقب ؟

انكسفت المرأة ، وغاص قلبي في جوفي رحمة بها ، فمضيت أهرول الى أمي أحكي لها كيف كسفت الشيخة تلك المرأة المسكينة . كنت صغيرة ، لاأدرك معنى الانسحاق الانساني أو قسوته ، ولكنني كنت أعاف هذه المواقف غريزياً وتلقائياً ، فقد كنت شديدة الحساسية . لعلي كنت بالنسبة لهذا الموقف متأثرة لا شعورياً بأمي ، فقد كانت تستهجن التعالي الطبقي ، وتنتقد غطرسة الشيخة حتى لا تصيبنا عدواها . كانت تقول لنا بكل بساطة : كلنا من خلق رب واحد ، وكلنا مصيرنا الى التراب . وان الشيخة قاسية القلب ، فالانسان لا ينبغي ان يهين كرامة انسان آخر مهما كانت منزلته الاجتماعية ، ومن القسوة التي يعاقب عليها الله ايذاء شعور الفقير .

كانت امي تحدثنا بعفوية وبساطة عن دمقراطية الموت الذي يساوي بين كل الناس ، كما علمتنا بطريقة غير مباشرة المعنى الحقيقي لكلمة (انسان) وما يحمله هذا المعنى من شمول أخوي .

وكنت أستغرب بدوري كيف يمكن ان يتخذ انسان ، ناهيك بشيخة متدينة ، مثل تلك المواقف القاسية . غير اني ادركت فيما بعد نفاق الشيخة الديني ، فما استطاع تدينها ان يشذب أحاسيسها ومشاعرها الانسانية ، ولم تكن لتفقه المعنى الحقيقي للدين وانه محبة ورحمة وحسن معاملة . فلقد كانت أمية في عقلها ومشاعرها الى

جانب اميتها الأبجدية .

كانت عندها مقاييس الحلال والحرام ، اللائق وغير اللائق ، عجيبة غريبة . لقد كانت تصرخ في وجهي اذا رأتني مرتدية ثوباً قصيراً : هيا .. شمري عن فخذيك أكثر .. ستدخلين جهنم انت وأمك التي خاطت لك هذه الملابس المشينة !

وكان هذا يشوّش صفاء طفولتي وبساطتها ، كما كان يبلبل عقلي الصغير .. أمن أجل ثوب قصير يدخلني الله جهنم مع أمي ؟ وأتخيل الله رباً قاسياً رهيباً لا يرحم .

كنت كلما خلوت بنفسي ارفع صوتي بالغناء : (كم بعثنا مع النسيم سلاماً للحبيب الجميل حيث ..) وتدخل الشيخة كالزوبعة : اخرسي ، اغلقي فمك ، لم يبق الا أن تصبحي (جنكية) في تخت (هند) و (سارينا) .. وينكسر صوتي فجأة ، وتتعلق الأغنية في الهواء مبتورة ناقصة ..

كانت (هند) و (سارينا) مغنيتين محترفتين في نابلس ، أما كلمة جنكية فكانت تطلق على المغنية المحترفة وهي مشتقة من كلمة «الجنك» الاسم الفارسي لآلة وترية تشبه السنطور .

ولو اخترقت الشيخة اعماقي في تلك الأيام لوقع بصرها على أمنية قابعة هناك تحمل كل تطلعي الى أن أصبح يوماً جنكية أو راقصة ... فقد كان اسم جنكية وراقصة يرتبط بالنسبة لي بأحب الأشياء الي وهو الحرية ... فالواحدة من اولئك المحترفات كانت تملك حرية لا يملكها عالمي الذي أعيش فيه ، فليس هناك من يفرض سلطته على المغنية او يقيد خطواتها ، كما كان الغناء والرقص في نظري أجمل ما في الوجود . فحين كانت أمي تدندن بصوتها الشجي الحنون كنت أركض وأجلس الى جانبها في إصغاء مرهف ... رايح فين يا مسليني ـ لموا العشيرة وأجمعوا الخلان ـ أوف مشعل ـ زوروني في السنة مرة ـ وغير هذه الأغاني التي لا أزال احبها ، وكنت سريعة الحفظ للأغنية لحنا وكلمات .

كان الغناء بهجتي وفرحي . وظل تعلم العزف على العود مطمحاً يملأ تفكيري ، حتى حققته بصعوبة وجهد ، فقد كان وجود آلة العود في البيت من المحظورات . ولقد ظل العزف والغناء بالنسبة لي تعبيراً ومخرجاً رمزياً لحاجاتي العاطفية المكبوتة فيما تلا من مرحلة الصبى والشباب ، فكنت اجد في الموسيقى والغناء - سواء في الاستماع اليها او في ممارستها ، تنفيساً للتوتر الذي أعانيه . وظل هذا الفن كالشعر ، وسيلة لتحقيق ذاتي وإطلاق الطاقة الحبيسة في داخلي .

ومن ذكرياتي الكئيبة المرتبطة بالشيخة دخولها في أحد الأيام غرفتنا أو (غرفة البنات) كما كان يطلق عليها ، او (البيت القبلي) ، فلقد كان لكل غرفة اسم يميزها عن غيرها من غرف الدار . دخلت الشيخة لتفاجأ بشقيقي الكبير احمد يساعدني في توضيح بعض الأصول العروضية وبين يديه قصيدة لي ، أو بالأحرى محاولة من محاولاتي الشعرية الأولية ، ووقفت الشيخة صامتة فوق رأسنا ، ثم قالت لأحمد بلهجة مرة عاتبة : حتى انت ؟ ثم أضافت : كلما طلع للبنت قرن اكسره ! ومازحها أحمد بكلمة عابرة ثم انصرف اليّ والى قصيدتي من جديد .

(حتى انت ؟) ... تعبير مفجوع برجاحة عقل احمد ، الوحيد الذي كانت تؤثره من بيننا بالمحبة ، أما ابراهيم فما أحبته قط . وكان في نظرها خارجاً على تقاليد العائلة متحرراً من قيودها الصارمة .

منذ ذلك اليوم لم يعد هناك جدوى من محاولة إقامة جسر بينها وبيني ، ونفضت يديّ من هذا الأمل البعيد ، وظلت الشيخة بالنسبة لعالم طفولتي ومراهقتي كابوساً ترك لمسات أصابعه على حياتي لفترة طويلة .

كانت من ضمن أولئك الذين لعبوا دورهم في حياتي ثم اوغلوا في طوايا الزمن !

حين زار السائح التركي (اوليا جلبي) مدينة نابلس ذكر في سجل ملاحظاته بساتينها وينابيعها ، كما أشار الى كثرة أطفالها .. ثم قال : «واذا سألت احداً من أهلها عن أصله ونسبه ذكر لك انه من احفاد احد الرسل أو الأنبياء» .

ان ايماني بصدق تاريخ الانساب مزعزع ، ولا ارى كبير جدوى في الرجوع الى صفحات التاريخ للبحث عن شروش ما يسمى بشجرة العائلة لا سيما حين تكون تلك الشروش موغلة في اعماق البادية .

وعلى أية حال فالشيء المؤكد ان العائلة التي أنتمي اليها لا يرجع أصلها الى احد الرسل أو الأنبياء ...

غير ان المعروف المتوارث منذ خمسة قرون يشير الى أن أجداد العائلة كانوا يقيمون خيامهم في البادية بين حمص وحماة ، حيث لا يزال هناك التل المعروف باسم «تل طوقان» ،وحيث لا تزال بعض بطون البدو غير المتحضرة تقيم حتى اليوم . وأذكر أن جماعة بدوية من طوقان تلك النواحي فدموا الى نابلس قبل حوالي أربعين عاماً للتعرف على أقربائهم وقد نزلوا ضيوفاً في بيتنا لبضعة أيام ، وكان هذا (حدثاً) مثيراً جداً بالنسبة لنا بعث في نفوسنا البهجة ، نحن الجيل الصغير .

والمعروف ، بل المؤكد ان بعض احفاد أجدادنا الذين نزحوا واستقروا في نابلس قد انخرطوا بعد الفتح العثماني في الجيش المحترف المعروف بجيش «الانكشارية» وقد عرف هذا الجيش فيما بعد باستبداده بالأمور السياسية . وكان الجد الأكبر للفرع الذي انبثقت منه أسرة أبي واحدا من رجال الجيش ، وكان هو ـ ابراهيم آغا الشوربجي ـ الذي عمر البيت الذي توارثناه جيلا بعد جيل حتى اليوم .

البيت أثري كبير من بيوت نابلس القديمة التي تذكرك بقصور الحريم والحرمان .. والتي هُندست بحيث تتلاءم وضرورات النظام الاقطاعي . ترى فيها العقود والأقواس والباحات الواسعة والحدائق ونوافير الماء والطوابق العليا والسلالم الملتوية . ويصعب على الزائر الاهتداء الى طريقه وتبين مسالكه دون دليل، فالمرء لا يعرف في مثل هذه البيوت هل هو مفض الى غرفة الاستقبال ام الى قن الدجاج ام الى المطبخ.

في هذا البيت ، وبين جدرانه العالية التي تحجب كل العالم الخارجي عن جماعة «الحريم» المؤودة فيه ، انسحقت طفولتي وصباي وجزء غير قليل من شبابي .

أما الجو العائلي فيسيطر عليه الرجل كما في كل بيت . وعلى المرأة ان تنسى وجود لفظة (لا) في اللغة الا حين شهادة (لا اله الا الله) في وضوئها وصلاتها . أما (نعم) فهي اللفظة الببغاوية التي تُلَقَّنُها منذ الرضاع ، لتصبح فيما بعد كلمة صمغية ملتصقة على شفتيها مدى حياتها كله .

حق التعبير عن النفس محظور عليها ، الضحك والغناء من المحرمات ويمكن اختلاسها بعد ان يغادر الرجال (الارباب) الى أعمالهم . الاستقلال الشخصي مفهوم غائب لا حضور له إطلاقا في حياتها .

فاذا تركت المرأة الآن تعيش غيابها في ذلك البيت ـ السجن ـ ،

وعرجت على المناخ العائلي العام رأيت التناقض ، حيث يلتقي التعصب الديني واللاّ تعصب ، وحيث يلتقي الشعور القومي والوطني بتقليد ثقافي حرص أبي وعمي على ترسيخه في العائلة ، وذلك بايفاد الأبناء الى مدارس أجنبية لتحصيل العلم والتزود بالثقافة الغربية على حين كان (الأزهر) قبلة طالب العلم في المدينة .

ومن صور التناقض في هذا المناخ العائلي الاختلاف الشاسع بين طبائع أفراد الاسرتين ، أسرة عمي وأسرة أبي ، كان عمي انبساطيا منفتحا ، يتحدث الى نساء العائلة ، يضاحكنا ، يشاركنا في ألعابنا الطفولية . أما أبي فكان جافا، لا يترك لي او لاخواتي مجالا لنتقرب اليه أكثر ، وقد ظل حضوره يبعث في نفسي الضيق منذ طفولتي ، وكنت استغرب من البشاشة التي يغدقها على بنات عمي ، ويمسكها عنا نحن بناته .

أما أفراد أسرة عمي فقد ظلوا منغلقين على أنفسهم ، يرفعون بيننا وبينهم جدارا مسدودا من البرود العاطفي والصمت المطبق ، كما كان عبوسهم وسريّتهم مثار استغرابي دائما . أما اخوتي فكانوا مرحين يملؤون الدار حيوية وضحكا وغناء ، وكان كل شيء يتعلق بهم مفتوحا معلنا ، بينما أسرة عمي تغلّف نفسها دوننا بتكتمها وسريتها المحكمة الاغلاق .

ومن الجدير بالذكر خلو الجو العائلي من المشاكل . كان أبي وعمي لا يسمحان إطلاقا باثارة القيل والقال والنكد العائلي . وهكذا ظل ايقاع الحياة في البيت يبدو متناسقا متناغما ، ولكن ظاهرياً . ففي الحقيقة كان هناك ما يشبه النفور الصامت بين أفراد الاسرتين ، أو لأقل ان التنافر بين الطباع كان تنافرا عميق الغور .

كانت المشاجرة بين الكبار شيئا غريبا جدا على جو العائلة ، كنّا حين نسمع تشاتم الجيران وعراكهم وصراخهم ، وقد اختلطت اصوات النساء بأصوات الرجال نستنكر ذلك . فالمشاجرة الصارخة كانت توحي لنا دائما بغوغائية المتشاجرين .

ومن الأشياء التي لم يكن لها اثر في البيت الايمان بالخرافات والاعتقاد بوجود الجن والعفاريت ، او اتخاذ الحجب والتعاويذ كنوع من الوقاية ودرءا للشر والأذى . كانت هذه الأمور تثير ضحكنا وتعليقاتنا الساخرة ، وهكذا نشأت محصنة ضد الخرافة .

على أن هناك نزعة كامنة في نفسي للغيبيات ولو كان عقلي يرفضها . فالتشاؤم والتفاؤل من طبيعتي . وأخاف من الحسد .. كما ان الحلم السيء ينشر غلالة من الكآبة والتوجس في نفسي على مدى نهاري كله .

ان الانسان يظل محكوما ببقايا من ميراث طفولة العقل البشري القديم ، ميراث الوثنية والوثنيين ، بدليل ان هناك . حتى بين المثقفين من يؤمن بالخرافة والأحلام رغم كل معطيات العصر العلمية . ولقد اشتهرت نابلس بوجود الطائفة السامرية فيها ، وفي هذه الطائفة تتوارث عائلة الكاهن السامري احتراف عمل السحر والتعاويذ والرقي ، كما يحترف الكاهن قراءة الكف . ولا يزال هناك الكثيرون ممن يلجأون اليه من مختلف أنحاء المدن والقرى ، ليس فقط لعمل السحر والتمائم بل للاستشارة في امور الزواج وبعض الشؤون الحياتية الاخرى ، وذلك عن طريق علم (التنجيم) الذي من المفروض ان يعرفه الكاهن السامري .

OOO

لعل من الطف ما قرأته من اقوال الرحالة الذين زاروا نابلس في الماضي ، حديث الشيخ مصطفى اللقيمي الحسيني في رحلته المسماة : «موانح الأنس برحلتي لوادي القدس ـ ١١٤٣ هـ» فبعد وصفه لجمالها الطبيعي وخيراتها ووفرة عيونها يقول « وهي معتدلة الهواء تناسب للطافة كيانها أهل الجوى» ..

كلما مررت بالشوارع التي تزنر اليوم جبلي عيبال وجرزيم او تربض على أكتافها ارتددت الى عالم الطفولة ، عالم الاستكشاف والدهشة ، وعبرت بي وجوه الماضي ، وشعرت بالحنين الى وجه مدينتي القديم والى «لطافة كيانها» .أية ضريبة تدفعها البلدة الصغيرة العريقة لكي تصبح مدينة كبيرة تواكب سير العصر ؟! انها ضريبة غالية تدفعها من جمالها البكر ومن عراقتها الطبيعية والعمرانية .

أين اليوم الأسواق المسقوفة المبلطة ، والقناطر العتيقة ، والأزقة الضيقة المشبعة برائحة التاريخ ؟ كل هذه اختفى معظمها فلم يبق الا القليل القليل .

أم أين البساتين التي كانت تغطي منطقة «رأس العين» في جبل جرزيم او تلك كانت تنسحب على الوادي الأخضر الممتد بين الجبلين .

وأدور بنظري باحثة عن «الكيان اللطيف» ، وعن الوجه الريان الأخضر ، ولكن هذين لم يبق منهما الا بعض ملامح ـ لقد غابت أشجار اللوز والجوز والخوخ والمشمش والليمون الحامض لترتفع مكانها المخازن والدور الحديثة بطوابقها العديدة ، ولتمتد الشوارع الاسفلتية مفسحة الطريق للسيارات والباصات والشاحنات .

حين أعبر بشوارع راس العين تبحث عيناي عن ممرات السيل في الجبل ، وعن شلالات الماء المضيئة بشمس الربيع وهي تندفع من بطن الجبل بكل عربدتها ، هابطة نحو السفوح ليبتلعها جوف الارض من جديد .

في موسم تفجر العيون ، خلال شهري شباط واذار ، كان نساء البلدة ينطلقن الى تلك العيون والشلالات ، متلفعات بملاءاتهن السوداء ، ومعهن سلال الكعك البلدي والمحمصات المملحة والحلوى النابلسية . وها أنا الآن ، اذ أدخل في رحاب الخيال والذكرى ، أرى الصبية زمرا ، بأقدامهم الحافية وسيقانهم المكشوفة ، يخوضون في المياه الديناميكية بين صخور الجبل ، يغسلون الخس ويتراشقون بأوراقه الخضراء ، يصخبون ويتشاتمون ، وتطفو ضحكاتهم على سطح المياه المنحدرة ، مرافقة أوراق الخس وقشور البرتقال والليمون الحلو ، ثم تختلط كلها بصوت الهدير .

لقد انحصرت اليوم مياه الينابيع في الخزانات ، وغابت العيون والشلالات ، وأشياء كثيرة اخرى ، ووجوه صميمية وحميمية ، غابت كلها وبقيت ذكراها حية في النفس لا تغيب .

أين «علياء» رفيقة **الطفولة** ؟

أكثر أفراح طفولتي ـ على قلة تلك الأفراح ـ تقترن بذكر «علياء» بنت الجارة أم حسن .

كانت تكبرني بأربع سنوات ، وعلى الرغم من هذا الفارق الكبير في السن بالقياس الى تلك المرحلة من العمر ، فقد كنا على انسجام كامل وتفاهم ومحبة مشتركة .

كنت أتوسل الى أمي لتسمح لي بمرافقة «علياء» الى رأس العين ، فهناك كانت تقطن خالة «علياء» في بيت منعزل ، تكتنفه وتخفيه عن الأنظار بساتين وأشجار تشابكت غصونها والتف بعضها بالبعض الاخر ، وكانت الغبطة تملأ قلبي وعيني اذا سمحت لي أمي بمصاحبة «علياء» الى منزل خالتها : كنت أبتهل الى الله ونحن ننطلق معاً من دارنا ان تمر اللحظات الاولى بسلام فلا التقي بواحد من أبناء عمي او أبي أو أخي أحمد فيردني على أعقابي خائبة حزينة .

كان مشوارنا دائماً بعد العصر ، وكانت نفسي تتوهج أمام الجمال البري المحيط وقد هيمن الصمت على المنطقة غير المأهولة .

المنعطفات الرطبة ، خرير المياه غير المنظورة شجيرات العليق الأحمر الكثيفة المتشابكة وما كان أشهى ثمرها ، فما زلت أحس بمذاقه الحاد الحامض كلما استرجع خيالي ذلك الماضي البعيد .

كنت أقتفي خطوات (علياء) في الممرات الضيقة المظللة بالشجر المتشابك ، فالممرات لم تكن لتتسع لسيرنا جنبا الى جنب ، وكان المكان يبدو لي جزءا من عالم اخر .

كان الاحساس بالحرية والانطلاق بعيدا عن جو البيت الأثري المختنق بالمحظورات وبالأوامر والنواهي التي لا أول لها ولا اخر ، كان ذلك الاحساس بالحرية يملؤني بفوحان الحياة ؛ ففي تلك اللحظات الباهرة كان يستولي عليّ نهم حسي لالتهام الوجود ، وتجتاحني رغبة الامتلاك ، فأتمنى لو كانت تلك الأشكال الحية ، المختمرة بخميرة الحياة المتفتحة ، شيئا يمكن ان أضم عليه راحة يدي ، او احتضنه الى صدري ، او اخذه معي لأخبئه تحت مخدتي مع أشيائي الطفولية المخبأة هناك .

ولقد نشأت أواصر صداقة حميمة بيني وبين أشجار تلك المنطقة وممراتها الضيقة ومنعطفاتها الرطبة ، فعايشتها كلها بألفة وحب عميقين . معها كنت أحس بالفرح الحقيقي ، وكل شيء كان يثير دهشتي ، وكل شيء كان جديدا بالنسبة لعيني وخيالي ، باعثا في

أعماقي نشوة طازجة . وهكذا كانت تنطلق طفولتي بكل تلقائيتها النابضة لتعانق الدنيا البكر الجديدة حيث عالم الخضرة ينمو نموا حرا لا تحد من حريته أية حواجز . ولقد كنت احب تلك الفوضى في نمو الأشجار اذا صح ان أسمي الحرية فوضى . وكنت احدق في الطبيعة من حولي كما يحدق الرضيع في وجه أمه اذ هو يكتشفه ملمحا ملمحا يوماً بعد يوم .

من خلال (علياء) بنت الجارة تعرفت على وجوه اخرى كثيرة لبلدتي ، وعلى ايقاعات للحياة فيها ما كنت لأتعرف عليها من قرب لولا هذه الرفيقة المحبوبة ، والتي كانت تفيض حيوية ونشاطا وحركة .

لقد عرفتني على المباهج الموسمية والأفراح الاجتماعية ، كالأعراس ، والموالد وأفراح موسم الحج ، وختم القران ، وميلاد الأطفال الذكور ، والختان ، وكم من مرة اصطحبتني الى بيت أحد أقربائها في شهر شعبان ، فقد جرت العادة لدى العائلات النابلسية ان يستضيف كبير العائلة وعميدها أفراد النساء من خالات وعمات وبنات أعمام وسواهن من القريبات ، وقد كانت هذه الاستضافةشكلا من أشكال صلة الرحم ، كما كانت في نفس الوقت مناسبة بهيجة لأولئك النسوة في ذلك الملتقى «الشعباني» ، يلبسن فيه الملابس الجديدة ويخضبن راحاتهن بالحناء ، ويضعن على الجانب الأيمن من رؤوسهن إضمامات الزهر من ياسمين وقرنفل وريحان أخضر وسوى ذلك من الزهور البيتية العطرة . وكان أكثر ما يستهويني مجلس الغناء الذي كن يعقدنه ويطلقن فيه العنان لأصواتهن الجميلة . كنت استغرب كيف يسمح لهن رجال العائلة بكل هذا الفرح .. فمثل تلك الأجواء البهيجة لم تكن مألوفة في بيتنا ولا كان مسموحا بها ، بل كانت صلة الرحم تتخذ شكلاً صامتاً مفرغا من الألوان والحركة ومظاهر الفرح .

في الربيع والصيف كان لأيام الخميس نكهة خاصة اذ تخرج

النساء في العصر الى السفوح الخضراء ومعهن أصناف منوعة من الطعام والفاكهة والنقل ، وكان هذا الملتقى الاجتماعي المرح من المحظورات على نساء العائلة ، ولقد تعرفت عليه من خلال (علياء) وخالتي الوحيدة أم عبدالله عسقلان .

كما كنت اصطحب (علياء) وأمها الى المزارات ومقامات الأولياء والدراويش . ففي هذه المقامات اعتاد شيوخ الدراويش الاحتفال «بالذكر» وذلك بدق الطبول والصنوج ورفع الأعلام الخضراء الكبيرة . وفي مقامات بعض الأولياء كنت أرى أحياناً بعض السرج مضاءة في أطراف المقام الذي غطته ملاءة خضراء مطرزة ببعض آيات القرآن . ومن ام علياء عرفت ان بعض النساء العواقر يلجأن الى المقام متوسلات للحصول على النسل ، فيضعن السرج لتضاء هناك تقربا الى الولي او وفاء بالنذر ـ كان هذا يشعل خيالي ويضعني في جو من الغموض الجميل . ولكنني بعد عودتي الى البيت والتحدث الى أمي عما رأيت وسمعت ، كنت أصدم دائما بعدم تجاوبها مع أقوالي وتسفيهها كل هذه (الخزعبلات) ، وكانت تستعمل هذه الكلمة بالذات . وهكذا كانت تقتل خيالي وتخرجني من عالم الغموض الذي كان يستهويني دائما .

أحيانا ، لدى مروري بجامع الحنبلي في السوق القديم وسط المدينة ، يفاجئني الماضي منطلقاً من خزانة الذاكرة ، وتمثل في ساحة الوعي امسيات السابع والعشرين من شهر رمضان ، فأرى نفسي أدخل المسجد مع علياء وقد ازدحم قبل صلاة العشاء ـ أو بعدها ، فلست أذكر تماما ـ ازدحم بالنسوة اللواتي كن يهرعن اليه للتبرك بشعرات النبي المحفوظة في خزانة على يمين المحراب . لقد جلبت هذه الشعرات من الاستانة بأمر من السلطان محمد رشاد . وعلى منبر الجامع تقع العين على كتابة تقول تجدّد بناء المسجد وتشرف بالشعرات المحمدية بأمر من السلطان محمد رشاد خان الخامس نصره الله) وكم حاولت أن أشق طريقي مع علياء خلال الزحام لأدنو من

الخزانة وأرى الشعرات المحمدية ، ولكني كنت أحس بأجسام النسوة المتراصة تكاد تسحقني ، فأشد قبضة يدي على تنورة علياء خوفا من الانفصال عنها والضياع في الزحام .

كان أكثر ما يثيرني ويفرحني مباهج الأعياد . كنت أرافقها الى ساحة الألعاب والأراجيح ، ولم أكن أحب لعبة الارجوحة ، فقد كنت أضيق بإحساس مثل الخدر في نهاية الحبل الشوكي كلما دفعتني الارجوحة بقوة وعنف الى الامام . لذلك كنت أحجم عن هذه اللعبة وأفضل عليها لعبة (الدولاب) . فكنت أجلس مع علياء في واحد من الصناديق المثبتة على دولاب خشبي ضخم يقوم على عواميد حديدية مغروسة في الارض ، ويشرع صاحب الدولاب بتحريكه ، ويبدأ الدولاب بالدوران ومع دورانه كانت ترتفع بنا الصناديق تارة وتهبط أخرى ، ويظل الدولاب يدور ومع كل دورة يعود الى القمة من هبط ويهبط من ارتفع ، وكانت الاثارة تكمن في هذا الصعود والهبوط الدوري . كانت عملية الارتفاع مصحوبة لديّ بخوف من السقوط المفاجيء ، أما في عملية الهبوط فقد كنت أحب احساسا بالهويّ أشعر به تحت الحجاب الحاجز ،كان إحساسا أشبه بدغدغة لطيفة . كنا أحياناً نغفل عن انفسنا وقد انغمرنا في تلك المباهج ، ننتقل من مكان الى آخر ، نلعب ونشتري اللوز الأخضر والترمس والفول المملح ، وكيف لا نشبع رغباتنا المادية والجيب عامرة (بالعيدية) والقروش تثقلها .

أذكر يوماً من ايام العيد أدركنا فيه غروب الشمس ، فمضينا نهرول ونسرع الخطى ـ وأحياناً نركض ـ في السوق الذي خلا او كاد يخلو من المارة . كانت أرض السوق وزواياه تعلوها البقايا والآثار المختلفة من حياة النهار الطافحة بحركة الصبية والبنات . أوراق الشيكولاته الفضية ، ظروف الورق الفارغة من النقل ، قشور الفول والفستق ، مزق من أوراق الألعاب الملونة ، كل هذه مع العتمة المتسللة والسكون المخيم كثفت احساسي بالوحشة والخوف

من العقاب المنتظر الذي لم يكن منه مفر . كنت في جو كابوسي انساني كل أفراح النهار . ولا أزال كلما مررت بذلك السوق أحس بأصابع تلك اللحظات تطرق باب الذاكرة .

أما الصباح الباكر لأول أيام العيد فهو من أحلى ذكريات الأعياد . كنت أهرع الى السوق وأقف بباب «جامع البيك» أمام منزلنا في السوق ، أراقب المصلين وقد لبسوا احسن لباسهم . وكانت تكبيرة العيد وهي تتصاعد متواجدة خاشعة في ترتيل جماعي يملك الاحساس ، تملؤني بالحنان ، وترقق مشاعري حتى الشفافية . ولا أزال حتى اليوم احب الإصغاء اليها صبيحة كل عيد مذاعة من محطات الاذاعات العربية . وفي مرحلتي الشعرية المبكرة نظمت للاذاعة الفلسطينية نشيداً للعيد ضمنته إحساساتي الطفولية بكل عفويتها وتلقائيتها . لقد كان يلفت نظري وقوف أبي وسواه من أعيان البلدة بجانب الفقراء والبسطاء في أوقات صلاة العيد . واذا كان قد غاب عن ذاكرتي معظم النشيد فلا أزال أذكر هذه المقاطع منه :

يا مرحبا يا عيد   يا فرحة القلب

□□□

ما أروع المشهد   في ساعة الفجر
والناس للمسجد   في لهفة تسري

□□□

يقفون للتكبير   صفا الى صف
مثر بجنب فقير   كتفا الى كتف

□□□

الله كم تصبي   تكبيرة العيد
أشهى الى قلبي   من كل تغريد
الخ ..

واذ تنتهي صلاة العيد كنت أتبع وعلياء جماعات المصلين الى المقبرة . وهناك تكون المقبرةقد تحولت الى شبه غابة خضراء من سعف النخيل المنتصبة فوق القبور . ومع دخول الرجال الى المقبرة تسرع النساء المحجبات بمغادرتها وقد أتممن زيارة الأحبة الراقدين هناك .

كنت أحب منظر الرجال في ملابسهم الجديدة ، لا سيما منظر القنابيز اللماعة المخططة بخطوط رفيعة باهتة اللون . وفي أثناء سيرهم كان يصدر حفيف لطيف من احتكاك اطراف القنباز بعضها ببعض كحفيف اوراق السجر .

أما الجاكيتات الأنيقة فكان الشباب يضعون في الجيب الصغير على الصدر منديلاً حريريا تتدلى أطرافه خارج الجيب فتبدو للعين كعصفور يرف جناحاه مع حركة السير . كما كان بعض الشباب يضعون زهرة قرنفل او زر ورد بدل المنديل .

وكانت الإثارة الكبرى بالنسبة لنا نحن الصغار حين نسمع طلقات المدفع معلنة بشائر العيد . هنا كانت تضج نواحي البلدة بهتاف الصبية والبنات الصغيرات ، فكأن هذه اللحظة هي ذروة الفرح الطفولي بالعيد السعيد ....

ooo

تظل ذكريات طفولتي قبل عهد المدرسة مشوشة ، باهتة ، متقطعة ، فلا أستطيع لم شعثها او تنظيم فوضاها . ولكن الذي أراه وأذكره بوضوح من صور هذه المرحلة الهامة في حياة الانسان ، وهي المرحلة التي يشرع الطفل خلالها في تمييز ذاته الاجتماعية ، هو اقبال أصدقاء ابي وعمي عليّ ، وكذلك أصدقاء شقيقي أحمد وابراهيم ، بالاضافة الى أصحاب الدكاكين المجاورة . فهؤلاء جميعاً كانوا يضاحكونني ويمازحونني كلما التقيت بأحدهم في ديوان العائلة او في السوق ، فكنت احس معهم بأنني شيء ذو قيمة أكثر مما أنا بين أهلي . وكذلك بعد التحاقي بالمدرسة . فقد جعلني تصرف المديرة والمعلمات أكوّن عن نفسي فكرة أفضل .

لا تحمل ذاكرتي أية صورة لأول يوم دخلت فيه المدرسة . كما انها لا تحتفظ بذكرى المرحلة الأولية التي تعلمت فيها قراءة الحروف وكتابتها . ولكن الذي أذكره بوضوح هو استمتاعي دائما بمحاولة قراءة أي شيء مكتوب وقع عليه بصري .

لم يكن في نابلس أكثر من مدرستين للبنات ، (المدرسة الفاطمية) الغربية و (المدرسة العائشية) الشرقية . وكان أعلى صف هو الخامس الابتدائي [٢]

في (المدرسة الفاطمية) أمضيت السنوات الثلاث الاولى . وبعدها نقلت مع الصف كله الى (المدرسة العائشية) .

وفي المدرسة تمكنت من العثور على بعض أجزاء من نفسي الضائعة . فقد أثبت هناك وجودي الذي لم أستطع أن أثبته في البيت . أحبتني معلماتي وأحببتهن ، وكان منهن من يؤثرنني بالتفات خاص . أذكر كيف كان يشتد خفقان قلبي كلما تحدثت معي معلمتي المفضلة (ست زهوة العمد) والتي احببتها كما لم أحب واحدة من أهلي في تلك الأيام . كانت جميلة ، وجها وقواما ، وكانت أنيقة ، شديدة الجاذبية .

كنت ارنو بشغف كبير وهي تشرح الدرس وتفسر لنا معنى قطعة القراءة ، او حين كانت تتلو علينا قطعة الإملاء . فقد كنت أكتب الفقرة ، ثم ارفع بصري في انتظار الفقرة التالية مسرورة بالنظر الى وجهها . وكانت تقف امام مقعدي الدراسي في الصف الأول الذي كان مخصصاً لأصغر تلميذات الصف سنا وحجما . وحين كانت تضع اصابع يدها البيضاء على طرف مكتبي كنت احس برغبة في لثمها . فاذا انحنت نحوي لتنظر في دفتري اخترقت احاسيسي رائحة عطر خفيفة كانت تنبعث دائما منها ، وأتمنى لو بقيت بجانبي الى الأبد .

فجأة انقطعت عن المجيء الى المدرسة ، فقد مرضت المعلمة المحبوبة . طال مرضها ، وطال غيابها ، وعرفت الوحشة ، وذقت مرارة غياب الأحباب وثقل الانتظار .

كانت تقطن مع عائلتها في بيت بعيد معزول في منطقة (بليبوس) في الجانب الغربي من جبل عيبال . كانت شقيقتها الكبرى معلمة الصف (التمهيدي) في المدرسة ، وذهبت اليها برفقة بعض زميلاتي نستأذنها في زيارة ست زهوة .

دخلنا البيت الصامت بتهيب ونحن نكتم أنفاسنا . وفي غرفتها تربعنا على مقعد أرضي أمام سريرها . أخذت تمسح وجوهنا بعينيها الواهنتين وجها وجها . وحين صافحت عيناها وجهي ابتسمت

لي . شعرت بقلبي يذوب حزنا . كنت منذ دخلنا أغالب غصة البكاء في حلقي ، أما الان فقد غلبت على أمري ، وأسرعت فواريت وجهي خلف زميلتي ورحت ابكي بصمت..

كان موت «زهوة» معلمتي الشابة ، ثاني طرقات الموت على بوابة حياتي .

□□□

لا اذكر ان واحدة من معلماتي تركت في نفسي ذكرى جارحة أو أثرا لمعاملة سيئة على مدى السنوات القليلة التي أمضيتها في المدرسة . لقد اشبعت المدرسة الكثير من حاجاتي النفسية التي ظلت جائعة في البيت . أصبحت أتمتع بشخصية بارزة بين معلماتي وزميلاتي . وكان من دواعي سعادتي ان معلمة اللغة العربية كانت أحيانا تلقي عليّ مهمة تدريس التلميذات المتخلفات في الصف .

لقد أصبحت المدرسة أحب اليّ من البيت والمكان الأكثر ملاءمة لي . وفي المدرسة عرفت مذاق الصداقة وأحببته . كانت رفيقة مقعدي الدراسي تلميذة في مثل سني اسمها «عناية النابلسي» وكانت أحب صديقاتي اليّ وأقربهن الى نفسي . ولقد بلغ من شدة تآلفنا ان ابتدعنا طريقة غريبة لتأكيد صداقتنا . فلجأنا ذات يوم الى وخز ابهامينا ، ولعقت هي قطرة الدم التي نفرت من اصبعي ، كما لعقت قطرة الدم على اصبعها . وكان هذا (توقيعا) على (اخوة دم) لا انفصام لها .

لم ألتق «بعناية» منذ ايام المدرسة ، فقد تركت نابلس بعد زواجها في سن مبكرة . ولكن «عناية» ، تلك البنت الصغيرة ، لا تزال هناك ، في زاوية دافئة من القلب ، لم تغب عن مكانها أبداً .

□□□

□

حين وصلت سن البلوغ . كنت قد تعافيت من حمى الملاريا وسعدت بنعمة العافية .

ولفت نظري تفتح جسدي .. خفت ، وخجلت . وأربكني نمو الصدر الذي أصبح الان ملحوظا ، فكنت اعمل على إخفاء هذا النمو . ورحت اراقب هذا الامر كله بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل استحق العقاب من أجله .

لدى وصولي تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئا عن الحب على الاطلاق ، فلم يكن هذا الموضوع مما يتناوله افراد الاسرة على مسمع منا نحن الصغار .

وجاء الربيع ، وعرفت هذا الشيء المسمى حبا ، والذي ظل يشرنق حول وجودي الى ما لا نهاية .

هنا جاء جواب السؤال الذي حرمته عليّ أمي ، جاءني محمولا على زهرة فلّ عبقت رائحتها وعلقت بجدران قلبي . لا ازال حتى اليوم احس وكأن يداً خفية تقذف بي الى ذلك الماضي او تقذف به اليّ كلما نفحتني زهرة فلّ بعطرها .

وراني الان ، وأنا استحضر ذكرى تلك الحادثة ، عشرات الأعوام ، ولكن حدة الانفعالات التي بعثتها في نفسي ، والدهشة التي تولدت من تلك الانفعالات هي من الأشياء التي لا تنسى أبدا . اكتشفت شيئاً جديداً في نفسي وفي العالم ، شيئا غريبا جداً . ووقفت مبهورة الأنفاس أمام دهشة الحب الاول .

امتلأت الأعماق بعطر زهرة الفل الغامض العجيب ، وحرك مشاعري شيء يستعصى علي التفسير ، وراح القلب يذوب تحت تأثير الأغاني المترعة بالعاطفية الشرقية الساخنة . منذ ذلك الحين ضربت اغاني محمد عبد الوهاب جذورها في قلبي وظل عندي سيد الغناء . ـ «تعالي نفن نفسينا غراما» «منك يا هاجر دائي» «قلب بوادي الحمى خلفته رمقا» «النبي حبيبك ما تحرمش الفؤاد منك» وغيرها .... وغيرها ..

كانت تلك الاغاني مؤثرات تعمل على تكثيف شعوري الغائم المبهم . فقد كانت هذه أول مرة أحس فيها بدقات قلبي وتواثبه . كان يفوتني ادراك معاني الاغاني ادراكا عقليا ، لكن مشاعري كانت تعب من الجو العاطفي للصوت وللأغنية فترتوي وتزداد كثافة وزخماً وتوهجاً .

فقدت شهيتي للطعام ، ولأول مرة عرفت الأرق الجميل المليء بالأخيلة والتصورات الهائنة ، ولأول مرة عرفت كيف يغطي وجه انسان ما كل الوجوه الاخرى ويكتسح الوجود بكامله .

كان غلاماً في السادسة عشرة من العمر . ولم تتعد الحكاية حدود المتابعة اليومية في ذهابي وإيابي فما كان لمثلي ان تزوغ يميناً أو شمالاً . كانت الطاعة من ابرز صفاتي ، وكنت مسكونة دائماً بالخوف من أهلي . كان التواصل الوحيد الذي جرى لي مع الغلام هو زهرة فُل ركض اليّ بها ذات يوم صبي صغير في (حارة العقبة) وأنا في طريقي الى بيت خالتي .

ثم حلت **اللعنة** التي تضع النهاية لكل الأشياء الجميلة .

كان هناك من يراقب المتابعة ، فوشى بالأمر لأخي يوسف . ودخل يوسف عليّ كزوبعة هائجة : (قولي الصدق) .. وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين ، العنف والضرب بقبضتين حديديتين ، وكان يتمتع بقوة بدنية كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال .

أصدر حكمه القاضي بالاقامة الجبرية في البيت حتى يوم مماتي .. كما هددني بالقتل اذا أنا تخطيت عتبة المنزل ، وخرج من الدار لتأديب الغلام .

□□□

قبعت داخل الحدود الجغرافية التي حددها لي يوسف ، ذاهلة ، مبخوعة ، لا أكاد أصدق ما حدث .

ما أشد الضرر الذي يصيب الطبيعة الأصلية للصغار والمراهقين بفعل خطأ التربية وسوء الفهم .

كما ذكرت من قبل ، كانت اسرة عمي منغلقة على نفسها ، اذا تحدثوا همسوا ، او أغلقوا الباب . فلم نكن نعرف قط بما يدور بينهم .

أما أسرة أبي فقد انعكست طبيعة أمي عليها ، فكانت أمورنا جميعاً مكشوفة الوجه ، صريحة مشاعة ملكيتها لأسرة عمي وعمتي .

هناك التزمت والخفاء والسرية والصمت . وهنا الانفتاح والعلن والعفوية والضجيج .

فلو ان ما وقع لي كان قد وقع لابنة عمي شهيرة لما علم أحد منا بالأمر ، بل كان يعالج بسرية وكتمان محكم . أما وقد حدثت القصة لي فلم يكن هناك بد من قرع الطبول والأجراس بين عيون ومسامع كل فرد في الدار ، حتى النساء المساعدات في الأعمال المنزلية .

حملت عمتي وأفراد أسرة عمي منظارهم المكبر لينظروا من خلاله الى الحادثة الصبيانية البريئة فيعطوها حجماً أكبر من حجمها الحقيقي .

وشرعوا **يسلطون** عليّ نظراتهم المتشككة ، ويحملون عني أفكاراً جائرة ، ومن هذا المنطلق راحوا يتعاملون معي .

وانزرعت في نفسي الغضة الطرية فكرة سيئة عن هذه النفس ، خلقت فيّ عادة السير وأنا مطأطئة الرأس لا أجرؤ على رفع عيني نحو وجوههم التي كانت تلقاني صباح مساء بالعبوس والكراهية . لقد شوهوني أمام نفسي .

ولقد لفت نظر خالتي الطريقة غير الطبيعية التي صرت أتخذها وأنا أمشي أو أجلس ، وأخذت ، بحنوها المعهود ، تطلب اليّ باستمرار أن أرفع رأسي وأمشي بقامة منتصبة .

□□□□

عاد ابي ذات صباح الى البيت لبعض شأنه وكنت أساعد أمي في ترتيب أسرة النوم. وحين رآني سأل أمي . ـ لماذا لا تذهب البنت الى المدرسة ؟ قالت : تكثر في هذه الأيام القصص حول البنات فمن الأفضل وقد بلغت هذه السن أن تبقى في البيت .

قال أبي .إ.... حسناً . وخرج !

كان أحياناً اذا أراد أن يبلغني أمراً يستعمل صيغة الغائب ولو كنت حاضرة بين عينيه . كان يقول لأمي : قولي للبنت تفعل كذا وكذا .. قولي للبنت أنها تكثر من شرب القهوة ، فلا أراها الا وهي تحتسي القهوة ليلا نهاراً . وهكذا !

□□□

كان أشد ما عانيته حرماني من الذهاب الى المدرسة وانقطاعي عن الدراسة . كانت أختي أديبة تجلس في المساء لتحضير دروس اليوم التالي . تفتح حقيبة كتبها وتنشر دفاترها حولها ، وتشرع في الدراسة وعمل التمارين المقررة .

وهنا كنت اهرب الى فراشي لأخفي دموعي تحت الغطاء .

وبدأ يتكثف لديّ الشعور الساحق بالظلم .

أحيانا كنت **ادخل** المطبخ ، وإقف عند صفيحة (الكاز) وبيدي علبة الثقاب . لكني كنت أخاف الألم الجسماني ولا أطيق تحمله . وهكذا كنت أنصرف دون تنفيذ الأمر ، وأنا أفكر بطريقة أخرى تكون أقل عنفا من الاحتراق بالنار .

كثيرا ما خطر لي تناول السم ، ولكن من يأتيني به ؟ هذا بالاضافة الى كونه يسبب آلاماً شديدة قبل الموت . وكان هذا كافياً لتحويل ذهني عنه .

كان الانتحار هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أمارس من خلاله حريتي الشخصية المستلبة ، كنت أريد التعبير عن تمردي عليهم

بالانتحار .. الانتحار هو الوسيلة الوحيدة ، هو امكانيتي الوحيدة للانتقام من ظلم الأهل .

لن يستطيع يوسف أو غيره من أفراد الأسرة أن يصدر عليّ حكما بالحياة ... سأتركهم مبلبلين متعذبين ، نادمين . وهنا كنت أقف قليلا ، ماذا عن أمي ؟

كنت أشفق على أمي ، فقد كانت تقف بجانبي دائما كلما وقع عليّ الظلم من أحدهم . ولكنها بشخصيتها التي أضعفها القهر لم تكن لتستطيع أن تدفع عني أمرا مقضياً .

خلال هذه الشهور الصعبة ظل يتردد عليّ حلم بالذات . كنت أراني أركض في زقاق مظلم هرباً من عجوز يركض ورائي ، تشي سحنته بروح التعدي والأذى .

ولكن جداراً مسدوداً كان يحول دوني ودون الهرب ، فأتحول الى زقاق آخر لأجده مسدوداً كذلك ، والعجوز يركض ورائي كوحش هائج وأنا ألهث رعباً وتعباً من الجري المستمر بدون توقف .

ثم استيقظ غارقة في العرق لاهثة الأنفاس . وصرت أنفر من النوم خوفاً من الأحلام الضاغطة .

□□□□

أما من الناحية الأخرى ، فقد تعودت على الانكفاء على النفس والغياب داخل الذات .

رحت أتحصن بالعزلة . كنت مع العائلة ولكن حضوري كان في الواقع غياباً الى أبعد حدود الغياب . كان لي عالمي الخاص الذي لا يمكنهم اقتحامه ، ولقد ظل هذا العالم موصداً أمامهم ولم أسمح لأحد باكتشافه .

أخذت تتعاظم قدرتي على الانفصال عن عالم الواقع والاستغراق في أحلام اليقظة .. فمن خلال تلك الأحلام كنت أنطلق خارج

قضبان السجن وأسوح في الشوارع وحدي ، أسافر الى بلاد لا أعرفها ، وألتقي بغرباء يحبونني وأحبهم .

كنت ألغي دائما وجود أحد من أهلي خلال أسفاري الخيالية ، فأهلي هم سجني الذي أريد أن أفلت من أبوابه المغلقة .

لم تكن قدرتي على الانفصال من عالم الواقع شيئاً جديداً . فمنذ طفولتي كنت أوى الى شجرة في الدار وأمضي اركز نظري على إبهام يدي اليسرى دون ان يطرف لي جفن . كنت أركز النظر باستغراق كبير حتى يصل الى درجة يصبح فيها ابهام يدي وبالتالي يدي كلها غريبة عني ، خالية من كل دلالة او معنى ، شيئاً لا علاقة لي به إطلاقاً ، ثم أصبح أنا نفسي غريبة عن نفسي ، وأظل أكرر في تفكيري الصامت هذا السؤال : ـ من أنا ؟ من أنا ؟ وأردد اسمي في تفكيري عدة مرات ، ولكن اسمي كان يبدو لي غريباً عني ولا يدل على اي شيء .

وهنا كانت تنقطع صلتي باسمي وبنفسي وبكل ما حولي ، وأغرق في حالة غريبة جداً من اللاحضور **واللاشيئية**.

فاذا رفعت بصري عن ابهامي ونظرت حولي عدت الى نفسي والى العالم الخارجي ، مغتبطة بإمتلاكي القدرة على الخروج من نفسي بهذا الشكل الغامض ثم العودة اليها .

كانت العملية لعبة تسليني ، وحين حدثت أمي عنها حذرتني من العودة الى (هذا الأمر) فقد يؤدي بي الى الجنون .

وأفزعتني ملاحظة أمي وتوقفت تماما عن تركيز بصري على ابهام يدي اليسرى ورحلة الغياب الغريبة .

في تموز ١٩٢٩ عاد أخي ابراهيم من بيروت يحمل شهادته من الجامعة الامريكية ببيروت واستقر في نابلس ليمارس مهنة التعليم في (مدرسة النجاح الوطنية) .

مع وجه ابراهيم أشرق وجه الله على حياتي .

كانت عاطفة حبي له قد تكونت من تجمع عدة انفعالات طفولية سعيدة كان هو مسببها وباعثها .

أول هدية تلقيتها في صغري كانت منه .

أول سفر من أسفار حياتي كان برفقته .

كان هو الوحيد الذي ملأ الفراغ النفسي الذي عانيته بعد فقدان عمي ، والطفولة التي كانت تبحث عن أب آخر يحتضنها بصورة أفضل وأجمل وجدت الأب الضائع مع الهدية الاولى والقبلة الاولى التي رافقتها.

ان تلك الهدية بالذات ، والتي كان قد أحضرها اليّ من القدس أيام كان تلميذاً في مدرسة المطران ، تلك الهدية كانت أول أسباب تعلقي بابراهيم ذلك التعلق الذي راح يتكثف فيما بعد بصورة قوية .

كان تعامله معي يعطيني انطباعاً بأنه معنيّ بإسعادي واشاعة الفرح في قلبي ، لا سيما حين كان يصطحبني في مشاويره الى الجانب الغربي من سفح جبل عيبال .

كان يأخذ مجلسه على واحدة من صخور الجبل الكلسية ، ويسمح لي بالانطلاق بينما ينصرف هو الى التأمل . أما أنا فكنت أمضي الى الشعاب القريبة ، أقفز كالمعزى من صخرة الى صخرة ، وأتطلع حولي باحثة عن بقلة (الشمر) ذات الرائحة الزكية والتي كنت أحب مذاق سيقانها الطويلة ، المستديرة ، الريانة ، كما كنت ألملم باقة من زهر قرن الغزال وشقائق النعمان والبابونج ، وبين حين وآخر كان ابراهيم يلتفت ويوصيني بألا أوغل بعيداً عنه .

كان فرحي بتلك المغامرات الصغيرة يتميز بخلوه من توقع عقاب الأهل . فلقد كان الخوف ينغص عليّ دائماً أفراحي الصغيرة . أما مع ابراهيم فقد كنت أشعر بالتحرر من كل المنغصات .

□□□

مع إقامة ابراهيم في نابلس بدأ سطر جديد في حياتي .

أصبحت خدمته وتهيئة شؤونه هدف حياتي ومصدر سعادتي المفقودة . أرتب غرفته ، أمسح الغبار عن رفوف كتبه وعن طاولته ، أهيء له كل صباح الماء الساخن لحلاقة ذقنه وأحضره اليه .

في تلك الأيام لم تكن شبكة انابيب المياه موزعة على طوابق الدار العليا ، فكنت أنقل الماء مساء كل يوم وأملأ المغسلة التي كانت تقوم في احدى زوايا الغرفة قرب الباب .

كما كان عليّ تحضير المائدة له في أوقات وجباته كلها . بكل هذا وسواه ألزمت نفسي ، وكان يسعدني انه اختصني دون باقي اخواتي بالقيام بخدمته وتحضير شؤونه . وتشبث قلبي بابراهيم تشبث الغريق بمركب الانقاذ .

على غير عادة رجال الاسرة ، كان يجلس معنا ـ نحن ، أمه وشقيقاته ـ يبادلنا الحديث ، ويحكي لنا عما جرى ويجري من شؤونه

الخاصة وبعض الشؤون العامة . كما كان يروي لنا الطرائف الأدبية والتاريخية ممايطالعه في كتاب (الاغاني) لأبي الفرج الاصبهاني أو (العقد الفريد) أو كتاب (الحيوان) للجاحظ .

وكان بالنسبة لنا ينبوع حب وحنان ، يغدق علينا من عطائه ، ويمنحنا من وقته ومساعدته اذا لزمت المساعدة .

كنت أخاف عليه من الأذى والمرض ، وأصبح همي تنظيف الارض والتقاط ما يلقي به أطفال الدار من بذور البرتقال أو قشوره خوفاً من أن يطأها ابراهيم فتنزلق قدمه ويسقط فيصيبه الأذى .

أصبح هو وحده الهواء الذي تتنفسه رئتاي ، هواء الصحة والعافية النفسية .

فقد كان حبه لي واهتمامه الخاص بي يضفيان عليّ شعوراً انسانياً بالرضى .

يقول المتفائلون ان النفس كالنور لا يمكن افسادها ، ولكني اعتقد ان الانسان اذا استهلكه الهوان انقلب الى مخلوق مليء بالانحرافات ، الا اذا وجد انساناً يحبه ويدثره بالحنان ، فالحنان عنصر أساسي في الجو الذي يتم فيه النمو ، سواء في البيت أم في المدرسة .

ولا يمكن ان تتوفر الصحة النفسية السليمة بدون الحنان .

لقد كان ابراهيم المصح النفسي الذي انقذني من الانهيارات الداخلية .

ان الطبيعة ضد الفراغ دائماً ، وهي ترفضه ولا تتعايش معه . لا بد للنفس من الامتلاء بشيء ما ، بالحب والخير او بالبغض والشر ، بالنوازع البناءة او بالنوازع التدميرية التي تتحول في النهاية وتنقلب لتدمير الذات اذا لم تجد ما تدمره خارج الذات .

تقول كتب الاديان ان البئر التي ألقى فيها أبناء يعقوب أخاهم يوسف كانت فارغة من الماء ، فهل يعني هذا أنها فرغت من كل شيء ؟ ألا يمكن أن تكون هناك زواحف سامة تقبع في الزوايا او تتنقل على جدران البئر هنا وهناك ؟

في تلك الفترة القاسية من سني مراهقتي كانت يد ابراهيم هي حبل السلامة الذي تدلى وانتشلني من بئر نفسي الموحشة المكتنفة بالظلام ...

منذ صغري أعلن عن نفسه ميلي الفطري للشعر . كنت أجد متعة كبيرة في ترديد محفوظاتي المدرسية منه ، وأقف مملوءة بالانبهار والدهشة أمام ما يقع عليه بصري من قصائد أو مقطوعات مطبوعة في الكتب المدرسية أو في الصحف التي كان يحضرها أبي واخوتي الى البيت ، وذلك رغماً عن عجزي عن ادراك مضامينها .

كان هناك كتاب اسمه (الكشكول) يضم مجموعة من الطرائف والشعر والأخبار الادبية والتاريخية . وفي هذا الكتاب كان لي أول لقاء مع قصيدة (أيها الساقي اليك المشتكي) .

وضعتني القصيدة أو بالاحرى الموشح في دائرة سحرية غامضة ، لعل منشأها موسيقاه الخارجية المنبعثة من طبيعة الوزن ، والمتميزة بتنوع القوافي ، مع الالتزام بقافيتي الشطرين الاخيرين من كل مقطع ، مما أكسب الموشح ايقاعاً يريح السمع ويهدهد النفس .

أما الكلمات فكان معظمها بالنسبة لي محملاً بمعان انفعالية نفسانية غير التي قصدها الشاعر .

كان السقاؤون في تلك الايام يزودون بيوت البلدة بالماء باستثناء بعض البيوت القليلة ، لا سيما بيوت الاقطاع القديمة ، والتي كان أصحابها يمتلكون حصصهم الخاصة بهم من مياه الينابيع العديدة في البلدة .

وكانت المياه تصل الى تلك البيوت بواسطة القنوات الفخارية تحت سطح الارض وتصب في البرك القائمة وسط ساحات البيوت الفسيحة .

وحين كنت ابدا بالقاء المطلع «ايها الساقي اليك المشتكي قد دعوناك وان لم تسمع» كانت كلمة الساقي تتخذ في ذهني معنى انفعالياً خاصاً ، مقروناً بصورة السقاء الكهل الذي كان يزود بيوت «حارة العقبة» بالماء ينقله اليها من (عين الكاس) شرقي البلدة .

كان مجيء السقاء الى منزل خالتي في (حارة العقبة) مبعث اثارة محببة لي ، فمنذ يطأ بقدمه أول درجة من درجات السلم الخارجي المفضي الى الدار ، كان صوته يرتفع بالكلمات المألوفة : «يا ساتر ، يا الله» وذلك تنبيهاً للنسوة لكي يتوارين خلف الأبواب .

كنت أركض الى السقاء وأقف بجانبه عند الزير الكبير ، أرقبه وهو يرفع القربة عن ظهره بيديه القويتين ، ثم يسندها الى بطنه وقد جعل فوهتها المربوطة على فم الزير الواسع ، وبعد ذلك يشرع بفك الرباط ، فيندلق الماء العذب الفضي في الزير الذي لم يكن ليمتليء قبل ان يبتلع حمولة اربع قرب أو أكثر .

كان الساقي الذي يخاطبه الشاعر يمثل دائما في خيالي متقمصاً شخصية السقاء الكهل ، سقاء (حارة العقبة) . ولما كنت اجهل ما هو (الزق) في قوله : (جذب الز ق اليه واتكأ) فقد استلزم الفعلان (جذب ـ واتكأ) اعطاء كلمة الزق عندي معنى الوسادة .

أما النديم الذي هام الشاعر في غرته ، (ونديم همت في غرته) فكنت أتخيله ابن جارنا بائع حلاوة الطحينة ، ذلك الفتى الاسمر الطويل النحيل الذي كان يحمل اسم نديم . وهكذا كان يعطي خيالي للكلمات صوراً ودلالات خاصة به وحده ، وكنت أغتنم فرصة غياب أبي وأبناء عمي وقت العصر فأرتقي السلم الخارجي المكشوف والمؤدي الى أحد طوابق الدار العليا ، وأقف متجهة نحو الشجر المنتصب في صحن الدار ، وأشرع في القاء الموشح بصوت واثق

مرتفع ، مقلدة بذلك ابراهيم في القائه للشعر ، وأتخيل نفسي شاعرة تقرأ شعرها على الجمع المحتشد كما يفعل ابراهيم ، وأستغرق في تخيل الصورة حتى يكاد يصبح الخيال في احساسي حقيقة ، فاذا انتهيت عدت الى الانشاد مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم رابعة ، وأنا في حالة أشبه بالجذب الصوفي .

بعد ستة وعشرين عاماً ، في عصر يوم من ايام حزيران ١٩٥٥ ، وقفت في قاعة (وست) في الجامعة الامريكية في بيروت ، لأواجه لأول مرة في حياتي الحشد الذي دعته الدائرة العربية في الجامعة للاستماع الى مختارات من شعري .

خلال الدقائق التي كان يقدمني فيها الاستاذ جبرائيل جبور ، وبينما انا أجيل بصري في الوجوه امامي ، مر بعيني شريط سريع قصير ، رأيتني فيه بمواجهة الشجر المنتصب في صحن الدار ، ألقي على مسامعه القصيدة: العزيزة (أيها الساقي اليك المشتكي قد دعوناك وان لم تسمع ! وابتسمت .

ربما بدت ابتسامتي في ذلك الحين وكأنها تحية للحاضرين ، وما كانت في الحقيقة الا تحية لتلك البنت الخيالية البعيدة ، المأخوذة بقصيدتها الموشّحة وبالحالة الشعرية الصوفية الغامضة التي كانت تعتريها عند القاء الموشح على شجر الدار .

ثم تجاوزت مجرد انشاد الشعر الى محاولة كتابته . كان داخلي يمتلىء أحياناً بمشاعر غير واضحة ، وبانفعالات مبهمة ، خصوصا اذا استمعت الى الموسيقى والغناء .

فهنا كنت أشعر بميل الى التعبير عن شيء ما ، شيء أحس به ولا أفهمه . فأهرع الى قلم وورقة سرعان ما تمتلىء بكلمات لا رابط بينها ، ثم أذهب بالورقة المحملة بالألغاز الى ابراهيم ، وأرجوه بصوت متردد أن يقرأ ما كتبت (من شعر) . ولم يكن ابراهيم يخيب رجائي ، بل كان يقرأ الكلمات ويبتسم لي ويربت على كتفي ، وأنصرف أنا دون أن أسمع كلمة تشجيع أو تثبيط .

ظلت الموسيقى حتى اليوم تشعرني بالصفاء الروحي ، وتحرك في داخلي تلك الحالة الغامضة المصحوبة بالرغبة في كتابة الشعر .

ولقد التقيت في كتاب (العهد القديم) ببعض أنبيائه الذين كانوا يستعينون بالموسيقى على تجلي الرب ، فيهبطون من الأكمة ، أمامهم رباب ودف وعود ، وهم يتنبأون فيحل عليهم روح الرب .

كما التقيت باليشع الذي قال : الان فأتوني بعواد ، فلما ضرب العواد كانت عليه يد الرب .

أجل ، ان الموسيقى تثير الوجدان ، وتحرك الخيال ، انها تجعلنا نحلم ونرى عوالم غير منظورة ، تعج بالحيوية والحركة .

□□□□

أي دور تلعبه الصدفة في حياتنا !

حادث تافه ، أو خبر عادي ، أو محض مصادفة تعترض طريق المرء ، فيتغير معها مجرى الحياة ، وتنعطف طريق السير انعطافة حادة قاطعة وتصبح الدنيا غير الدنيا والعالم غير العالم .

لو لم يعترض ذلك الغلام طريقي ، ولو لم يحبسني أخي يوسف بين جدران الدار الهرمة ، لاستمرت حياتي تسير في اتجاهها المألوف العادي ، ولكنت واصلت دراستي في المدرسة العائشية حتى نهاية السنة الخامسة ، وعندئذ ما كان ابراهيم ليفكر في ان يجعل مني تلميذة له .

كان قد علم من امي بسبب قعودي في البيت ، لكنه وهو الانسان الواسع الافق ، الحنون ، العليم بدخائل النفس البشرية ، نظر الى ذلك الامر نظرة سبقت الزمن خمسين سنة الى الامام .

لم يتدخل ، ولم يفرض ارادته على يوسف العنيف ، لكنه راح يعاملني بالحب والحنو الغامر .

وظلت تتجمع الامور الصغيرة لتصبح جسرا ينقلني من حال الى حال .

كل ما كان منتظرا هو فقط الصدفة العابرة ! ودق جرس الغيب ليعلن قدوم اللحظة ، الصدفة .

□□□□

كان ابراهيم قد وصل لتوه لتناول طعام الغذاء ، وشرع يتحدث الى امي بفرح ـ بينما هو يغسل يديه ـ عن تلميذين من تلاميذه كانا قد جاءا اليه في الصباح بقصائد من نظمها ، خالية من عيوب الوزن والقافية ؛ وكم كان فخورا ومسرورا وهو يتحدث عن الموضوع . وبعفوية مطلقة ، وبصوتي الخافت الضعيف قلت : «نيالهم !» وتعني الكلمة بالفصحى : هنيأً لهم .

نظر الي ابراهيم وصمت . ثم قال فجأة : سأعلمك نظم الشعر ، هيا معي .

كانت امي قد سكبت له الطعام ، ولكنه ترك الغرفة ، ولحقت به ، وارتقينا معاً السلم المؤدي الى الطابق الثاني حيث غرفته ومكتبته .

وقف أمام رفوف الكتب وراح ينقل عينيه فيها باحثاً عن كتاب معيّن . أما أنا فكان قلبي يتواثب في صدري ، وقد كتمتأنفاسي اللاهثة .

دقيقتان ، واقبل عليّ وفي يده كتاب «الحماسة» لأبي تمام . نظر في الفهرس ثم فتح الكتاب عند صفحة بالذات .

قال : هذه القصيدة ، سأقرؤها لك وأفسرها بيتاً بيتاً ثم تنقلينها الى دفتر خاص وتحفظينها غيباً ، لأسمعها منك هذا المساء عن ظهر قلب .

وبدأ يقرأ :

□ امرأة ترثي أخاها □

طاف يبغي نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة ... أي شيء قتلك
أي شيء حسن ... لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل ... حين تلقى أجلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك

شرح لي معنى الابيات ، فشعرت بخيط رفيع من السوداوية يحز في قلبي . قال : لقد تعمدت ان اختار لك هذا الشعر لترى كيف كانت نساء العرب تكتب الشعر الجميل .

ونزلنا الى غرفة الطعام وفي قلبي عالم جديد يضطرب بالانبهار والتوقع .

في المساء أسمعته القصيدة غيباً دون خطأ او تلكؤ في تلاوتها .

حين أويت الى فراشي ذلك المساء كنت احتضن بين ذراعي دفتراً ذا لون حشيشي باهت ، وقلماً أزرق اللون ، وعيداً من أعياد الشعور !

ها أنا أعود الى الدفاتر والأقلام والدراسة والحفظ . ها انا أعود الى جنتي المفقودة .

وعلى غلاف دفتر المحفوظات تلألأت بعيني هذه الكلمات التي كتبتها بخطي الرديء ، خط التلميذة في الثالثة عشرة من العمر :

الاسم ـ فدوى طوقان

الصف - (شطبت الكلمة وكتبت بدلا منها «المعلم») :
ابراهيم طوقان
الموضوع - تعلم الشعر
المدرسة - البيت .

ولم تكن هذه بعيني كلمات ، بل كانت شموسا وأقمارا قبلها كانت حياتي واقفة لا تسير مع الزمن ولا أعرف ماذا افعل بها . أما الان فها هي حياتي تتحرك ، وها هو ايقاعها يسرع ، وها أنا أشعر بتجددي وبعودة الثقة بالنفس من جديد .

□□□

ما أروع الخطوة الاولى ! ما أجملها ! ما أشد سحرها !

أصبحت خفيفة كالطائر . لم اعد مثقلة القلب بالهم والتعب النفسي . في لحظة واحدة انزاح جبل الهوان وابتلعه العدم ، وامتدت مكانه في نفسي مساحات المستقبل شاسعة مضيئة ، خضراء كمروج القمح في الربيع .

ويا لرهبة الخطوة الاولى

ان قوى الشر ، الظاهرة منها والخافية ، لا تهادن أبدا ، انها تقبع دائماً في زوايا الدروب متربصة بنا . مع الخطوة الاولى يبدأ العراك والصدام بين ارادة الحياة وقوى الهدم ، سواء أكانت عشوائية أم مخططة ومرسومة سلفاً .

قالت أختي (فتايا) لأبي وهي تظن انها تزف بشرى مثيرة : هل تعلم ان ابراهيم شرع يعلم فدوى نظم الشعر ؟

أشاح ابي بيده ، وواصل شرب القهوة المرّة . كانت حركة يده حين أشاح بها تحمل كل معاني الاستخفاف والاستهانة .

انكمش قلبي مع حركة يده ، وتقلص ..

انه لا يؤمن انني اصلح لشيء - قلت هذا بيني وبين نفسي - انه لا يحمل لي سوى شعور اللااكتراث ، كأنني لا شيء ، كأنني عدم وفراغ ، كأنني لا لزوم لوجودي إطلاقاً .

وازدادت الفجوة النفسية بيني وبين أبي عمقاً وإتساعاً .

كما بدا هذا الحدث في عيون عمتي وأفراد أسرة عمي مثار سخرية بادىء الأمر . ثم تحولوا الى أعداء حقيقيين . يعملون على قطع الطريق دون مسيرتي الجديدة .

وكان عليهم ان يتصرفوا حسب تكتيك خاص وذكي ، فلم يكن من الهين اقناع ابراهيم بالعدول عما بدأه معي ، فهو مستقل التفكير ، صريح ، جريء ، وصعب الانقياد الى غير ما يؤمن به .

□□□

مضيت في المسيرة مع ابراهيم والشعر لستة أيام متتالية . فجأة توقف ابراهيم .

ثلاثة أيام مرت دون ان يدعوني لأسمع له اخر قصيدة طلب اليّ حفظها وليختار لي قصيدة اخرى للحفظ .

مع هذا الصمت المفاجىء عاد الشعور بالثقل الى قلبي ، وبدأت كتفاي تتهدلان من جديد ، وعاد ظهري يحدودب وأنا أمشي ، كما في الأيام التعيسة السابقة .

كنت ذات طبيعة خجول ، تعوزني الجرأة واقحام نفسي على الاخرين حتى لو كان ابراهيم . انتظرت حتى يقول هو شيئا ما ، وكان انتظاري على هم وقلق .

في صباح اليوم الرابع كنت قد قررت مبادرته بالسؤال ، مستمدة بعض الجرأة من يقيني بمحبته الحقيقية لي ورفقه بي .

وكعادتي كل صباح حملت اليه ابريق الماء الساخن لحلاقته اليومية . وضعت الوعاء الصغير على المغسلة ، ووقف هو امام مرآتها البيضوية الشكل متهيأ للقيام بعملية الحلاقة .

بدأ يمرر الفرشاة والصابون على جانبي وجهه وعلى ذقنه ، أما أنا فوقفت بجانبه انظر اليه من خلال المرآة ، وأبذل مجهوداً صامتاً لأبدأ بالسؤال ، حتى أعانني الله في النهاية وفك عقدة لساني . سألته بصوت مرتعش : هل غيرت رأيك ؟ هل كففت عن ...

وانكسر صوتي وذاب ، رغماً عني ، في دمعتين . وأجابني فوراً وقد اصبحت رغوة الصابون البيضاء تغطي نصف وجهه : كلا لم أغير رأيي ، ولكنني توقفت لأتأكد من صدق رغبتك في التعلم . سنواصل اليوم الدرس .

هبطت الدرج بقامة منتصبة ، وفتحت لي الدنيا ذراعيها من جديد .

المستقبل ينتظرني ، انه هناك ، لا ريب فيه ، ولا شك !
وكان هذا كافياً لتبدل احساسي بالوجود .

□□□

وجه بيضوي ممتلىء ، عينان دعجاوان ، غرة ناعمة سوداء تغطي الجبهة ، وظل ابتسامة على شفتين مطبقتين مع وضع سينمائي للجسم والرأس .

لا تزال الصورة واضحة في خيالي بكل قسمات الوجه الذي لم تمحه السنون البعيدة من ذاكرتي ؛ وتحت الصورة ، أو فوقها ، أو جانبها ، الاسم المطبوع بخط عريض أسود : «الشاعرة العراقية رباب الكاظمي» .

لقد تخمرت في نفسي صورة مثالية لرباب ، فأصبحت مثلاً أعلى

أطمح الى بلوغه . وكان للانطباعات الوجدانية والتأثرات النفسية التي تركتها في اعماقي تلك الصورة شأن كبير في توجه تفكيري للشعر قبل الحكم عليّ بالاقامة الجبرية في البيت .

وحين بدأت محاولاتي الجادة في نظم الشعر كانت اول قصيدة كتبتها دون أخطاء عروضية او نحوية موجهة الى رباب الكاظمي :

أرباب تاج الشاعرات ... أرباب فقت الناهبات
والله أنت خليقة ... بالمدح بين الآنسات(!!)
وأبوك قد أعطاك كنزاً ... زاخراً بالطيبات
الكاظمي ما الكاظمي ... هو ناظم للبينات
يا ايها الشعراء ... لا تقفوا أمام الشاعرات

وحين توفي أبوها الشاعر عبد المحسن الكاظمي بعد ذلك بسنوات رثيته بقصيدة أعزي رباب من خلالها .

□□□

الصباح ربيعي دافيء ، شارع فيصل الخالي من العمران إنذاك ، يغمره ضوء الشمس . الصبية والبنات يحثون الخطى الى المدارس ـ أبناء الموسرين منهم يحملون حقائب الكتب الجلدية ، واخوتهم أبناء الفقراء يحملون «أكياس» الكتب الصغيرة المصنوعة من القماش ـ وأنا أبطيء في سيري ريثما تطل على الطريق أجمل معلماتي في المدرسة العائشية واحبهن الى قلبي .

كنت أتعمد توقيت الذهاب الى المدرسة في الصباح مع توقيتها الذي لم يكن يخطيء ، فأمشي الى جانبها وأسعد بحديثها معي في الطريق ، معتزة أمام طالبات المدرسة برفقتي لها وبمبادلتها الحديث ، هي ، أجمل المعلمات وأبرزهن شخصية ليس في المدرسة فحسب بل في البلدة كلها .

كانت «ست فخرية الحجاوي» معلمة للغتين العربية والانكليزية واختاً بالرضاع لشقيقي ابراهيم ، وكانت تسألني دائماً عن أخباره وعن آخر ما نظم من قصائد .

في ذلك الصباح الربيعي حدثتها عن قصيدة جديدة له كان قد تلاها علينا في المساء السابق ، وهنا قالت لي : لماذا لا تتعلمين منه نظم الشعر ؟ انك تملكين الموهبة ولا ريب في ذلك ، فالقاؤك للمحفوظات الشعرية يؤكد لي هذه الحقيقة انك تحبين الشعر .

وبالرغم من ان ردة الفعل السريعة لديّ كانت التعبير عن استحالة ذلك ، فان عقلي الباطن التقط الملاحظة العابرة بسرعة البرق ، واحتفظ بها في اعماقه الخفية ، وهذا مما لا شك فيه ، فقد ظلت الفكرة تتحرك وتعمل عملها في لاواعيتي كدينامو لا يتوقف . صرت أنام وأصحو على هذه الرؤيا . ورحت في يقظتي أرى بعين خيالي قصائدي التي لم أكتبها بعد منشورة في الصحف ، تماماً كما تنشر قصائد ابراهيم ورباب الكاظمي .

كان هذا الحديث العابر مع «ست فخرية» قبل الحكم عليّ بالاقامة الجبرية في البيت بفترة قصيرة فقط .

وهكذا فان ما نفكر به ونطمح اليه يصبح في النهاية جزءاً منا . والغرابة في هذه الأمور النفسية ان محركها وباعثها من قرارة الاعماق غالباً ما يكون كلمة عابرة او حادثة بسيطة لا قيمة لها .

□□□

نسيت شقائي كله ، وانسحاقي كله ، ورحت اعيش المستقبل في حاضري الذي جعله ابراهيم مرجاً أخضر وحقلاً من حقول القمح الواعدة . رحت أرى الحصاد الآتي في أحلام يقظتي ، وأصبح بمستطاعي ان اسبق الزمن على جناح الحلم .

أصبح المستقبل هو كل الزمان بالنسبة لي . فهذه الامكانيات التي أملكها سوف تصبح محققة في المستقبل فقط . أما الماضي فقد ذهب بكل تعاساته . لو انني كنت اعرف قبل شهور ما ينتظرني على باب الغد القريب لما جزعت من الحالة التي وصلت اليها ، ولما فكرت بالانتحار ، فما كان هذا الحاضر السعيد في تلك الشهور التعيسة الماضية الا مستقبلاً كنت سأضيعه من يدي وأقضي عليه لو نفذت فكرة الانتحار .

وخططت لي برنامجاً يومياً .

كنت أستيقظ مع آذان الفجر او قبله ، فأعد قهوتي وآخذ مقعدي أمام دفتر التمارين وأمضي في العمل . كان هذا العمل الدراسي كل صباح شيئاً أتطلع اليه قبل النوم ، وأفيق عند الفجر وقد ألقى التفكير بعملي الدراسي وهجه على ساعات الصباح كلها . فكانت تلك الساعات تزهر بالحيوية والنشاط النفسي ، ولم يكن ينغصها الا استيقاظ أفراد الاسرة الواحد بعد الآخر ـ وكانت أسرة كبيرة العدد تزيد على عشرين إنساناً عدا عن النساء المساعدات في البيت ـ ومع يقظة كل هؤلاء تبدأ الحركة والأصوات المختلطة بصراخ الأطفال وضجيج «بوابير» الكاز ـ البريموس ـ العديدة والتي كانت تؤدي وظيفتها في وقت واحد .

كانت الساعات المكرسة للدراسة في الصباح الباكر هي التي تجعل يومي كله حافلاً بالنشاط والمتعة . وأصبح الشعر شغلي الشاغل في يقظتي ونومي ، في وجداني وضميري ، أصبح حبي الذي ظل طيلة حياتي حباً صوفياً ، ليس بالمعنى الديني ، بل بما في هذا الحب من شدة ، وبما يبعثه في أعماقي من نشوة باهرة .

كان الأكباب على الدراسة هو عالم الخلاص . لا أذكر من الذي قال اننا لو نظرنا الى مخلوق سعيد لوجدناه أما يبني منزلاً أو يضع لحناً او يربي طفلاً أو يزرع أرضاً . ذلك ان تلمسنا للسعادة لا يكون الا خارج نفوسنا .

في استغراقي في عالمي الجديد عرفت مذاق السعادة . كنت مستغرقة في عملية خلق نفسي ، وبنائها من جديد ، والبحث الطموح عن امكانياتي وقدراتي مما شكل ثروة وجودي .

ان عادة عطاء أحسن ما لدينا ، ووعينا بأن أيام حياتنا لا تهدر عبثاً ، يعطينا شعوراً بتملك النفس ، وبالسلام ، والهدوء .

بالرغم من انني كنت لا أزال تحت الحكم بالاقامة الجبرية ، فان الدراسة وحفظ إلاف الأبيات من الشعر العربي القديم قد غسلت نفسي من العذاب واجترار مشاعر الشفقة على الذات والاحساس

بالظلم .

أصبح الشعراء الجاهليون والأمويون والعباسيون يعيشون معي ، يأكلون ويشربون ويقومون بأعمال المنزل ويستحمون ويتحدثون اليّ وأتحدث اليهم .

لم أحبهم كلهم في وقت واحد ، بل كنت استغرق في حب شاعر واحد كل مرة ، حتى اذا استنفدت ما عنده شعرت بالاكتفاء والحاجة الى شاعر آخر واكتشاف عالم آحر ، وهكذا .

كان آخر حب لي مع الشعر القديم هو أبو فراس الحمداني . وقد ظللت أحمل حنينه في الأسر وآلامه لفترة طويلة ربما كانت أطول فترات الحب السابقة ، كما رحت انسج قصائدي في تلك الفترة على منوال شعره .

□□□

كان عليّ القيام بمساعدة أمي في أعمال المنزل . «فالسمرة» و«خديجة» الفتاتان المساعدتان في البيت كانتا قد تزوجتا . وبالرغم من وجود امرأة مساعدة دائماً فقد كان المنزل كبيراً جداً ، والعائلة كثيرة العدد . والضيوف من القرى يفدون يومياً علينا ، ومنهم من كانوا يقضون في ضيافتنا أياماً . اذ كان لعمي وأبي أصدقاء ومعارف من أهالي القرى يتعاملون معهم منذ نظام «الاعشار» في العهد التركي ، يوم كان للدولة العثمانية أراض واسعة في فلسطين وهي المعروفة باسم «الجفتلك» أي أرض السلطان . فكانت الدولة تقطعها الاهالي لزراعة الحبوب مقابل دفع عيني بضمان عشرة بالمئة . كانت الدولة تعلن عن ذلك مسبقاً فيتقدم التجار للضمان ، ومن يقدم سعراً أفضل يحال العشر عليه . وكان ملتزم العشر ينزل في موسم الحصاد الى البيادر ويعين أياماً للكيال ، وبحضور لجنة استلام ومخمنين كانت تفرز حصة الدولة على حدة حيث تستلمها إما عيناً او نقداً حسب الاتفاق . وقد الغى الانتداب البيرطاني هذا النظام .

كانت المشاغل المنزلية كثيرة يقع معظمها على كاهل امي . فأختي الكبرى كانت قد تزوجت والتحقت بأسرة عمي في نفس الدار ، وفتايا وأدبية كانتا قد التحقتا بمعهد لتعلم فن الخياطة ـ وقد رفضت الالتحاق به حين رغب ابي في ذلك ، حتى لا أضيع فرصتي الذهبية مع الشعر ، فقد كان الشعر أهم عندي حتى من الافلات من السجن الذي كنت لا أزال ضمن جغرافيته التي كان قد حددها لي أخي يوسف .

كنت أقوم بأعمال المنزل وبجيبي دائماً قصيدة للحفظ ؛ أكوي قمصان اخوتي وبنطلوناتهم وأنا أحفظ الشعر ، ارتب الأسِرة وأنا أحفظ الشعر ، أغسل زجاجات مصابيح النفط وأملأ المصابيح بسائل الاشتعال وأنا احفظ الشعر . لم تكن الاضاءة بالطاقة الكهربائية متوفرة في نابلس ... في تلك الأيام ، بعكس المدن الاخرى في فلسطين فقد كان المجلس البلدي قد قاطع (مشروع روتنبرغ) اليهودي حين خصت حكومة الانتداب البريطاني شركة (روتنبرغ) بمنح امتياز توليد الطاقة وكان ذلك في العشرينات . وقد بقي سكان نابلس يستضيئون بمصابيح النفط حتى بداية الاربعينات ، وذلك قبل ان قام شخصان او ثلاثة اشخاص من الاهالي بامتلاك أجهزة لتوليد الطاقة ، وايصال التيار الكهربائي لبعض أجزاء من المدينة ولبيوت الراغبين في الاشتراك . ولم تتم الاضاءة الكهربائية بصورة منظمة وشاملة الا بعد ان تولى المجلس البلدي تأسيس المشروع الكهربائي الكبير وإنارة المدينة بكاملها في منتصف عام ١٩٥٧ .

□□□

أرسل استاذ الادب العربي في الجامعة الامريكية ببيروت ، انيس المقدسي ، يقترح على ابراهيم التعليم في الجامعة الامريكية ، وكان ابراهيم يحب بيروت وكان سعيداً بالعودة اليها .

وقفت أنظر اليه وهو يهبط الدرج . كان رقيقاً كطيف ، وغاب عن عيني وقد أخذه الباب الخارجي منها .

عدت الى غرفته ، رحت اتسكع فيها ، أقف عند الطاولة التي كان يكتب عليها ، فأراها خالية من أقلامه وأوراقه ، أنظر الى الأوراق الممزقة في سلة المهملات ، افتح خزانة ملابسه التي فرغت الا من بعض سترات قليلة ، ألمس ربطات العنق التي تركها ، أشم رائحة قميصه الذي كان يرتديه في اليوم السابق ، أجيل بصري حولي ، كل ما في غرفته يكتسحه الغياب .

كانت وحشتي بعده ثقيلة ، ألقيت بنفسي على سريره وبكيت .

في الايام التي تلت كنت أجلس أحياناً بجانب البركة في الساحة المكشوفة ، حيث مجلس العائلة طيلة فصول السنة باستثناء فصل الشتاء ، فأرفع عيني الى شبابيك غرفتهالمغلقة والمطلة على صحن الدار . من خلال تلك الشبابيك كان صوته العميق ، الممتلى ، الحلو ، ينتشر في اجواء الدار وهو يقرأ الشعرأو القرآن ، فتمتص جدران قلبي تموجات صوته المختلطة بشذى زهر النارنج . كانت

سعادتي باهتزازات صوته وهي تخرج من خلال النوافذ سعادة مطلقة .

□□□

خلال العامين الدراسيين اللذين قضاهما في الجامعة ببيروت عشت على رسائله التي لم يقطعها عني ، والتي كان يوجهني من خلال سطورها ، ويشجعني على نظم الشعر ، وكتابة النثر ، والدراسة .

كان قد اختار لي مجموعة من الكتب للمطالعة والتثقيف الذاتي ، ولقد نظمت اوقاتي ضمن برنامج وضعته لنفسي . كرست ساعات الفجر لدراسة قواعد النحو والصرف . وقد اتممت جميع أجزاء (النحو الواضح) تأليف علي الجارم ومصطفى أمين . أتممتها كلها جزءاً جزءاً ، من المرحلة الابتدائية حتى آخر المرحلة الثانوية بما في ذلك (البلاغة الواضحة) لنفس المؤلفين .

واذا كنت قد خصصت ساعات قبل الظهر لحفظ الشعر مع القيام بأعمال المنزل في إن واحد ، فقد كرست ساعات بعد الظهر للمطالعة المركزة .

في تلك السنوات ، ما بين ١٩٣١ ـ ١٩٤٠ قرأت البيان والتبيين للجاحظ و «الكامل» للمبرد ، وأمالي القالي والعقد الفريد ، وكثيراً ما غصت في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج كما قرأت كتب العقاد (الفصول) و (ساعات بين الكتب) و (مطالعات في الكتب والحياة) ، وكذلك قرأت طه حسين ، وأحمد أمين وبالذات «فجر الاسلام» والأجزاء التي تلته . ولفترة غير قصيرة أصبح عندي اهتمام بقراءة مصطفى صادق الرافعي من جهة ومي زيادة من جهة أخرى وذلك بعد ان تابعت سلسلة مقالات محمد سعيد العريان في مجلة (الرسالة) المصرية عن حياة الرافعي وقصة حبه مع مي زيادة .

كنت شديدة الاعجاب والحب لأدب محمد حسن الزيات ، وقد تأثرت بأسلوبه لفترة زمنية غير قصيرة . كانت ترجمته «لآلام فرتر»

قد أوقعتني في شباك أسلوبه ، وحفظت عن ظهر قلب كل «نشيد اوسيان» في تلك القصة الرومانسية المؤثرة . لقد كانت لدي القدرة على حفظ الشعر والنثر . وأذكر انني حفظت عدة مقطوعات أدبية مسجوعة لأحمد شوقي من كتابه «أسواق الذهب» كما كنت أحفظ خطب النشاشيبي والكثير من «نقل الاديب» الذي اختاره من تراثنا الادبي ونشره بالتتابع في مجلة «الرسالة» الاسبوعية ، تلك المجلة التي اصبحت مع مجلة «الثقافة» زاداً روحياً لا غنى لي عنه كل اسبوع .

فاذا شعرت بالحاجة الى الترويح عن نفسي انتهزت فرصة غياب أرباب العائلة ، وعكفت على العزف على العود والغناء . وقد تعلمت العزف من احدى قريبات أمي ، وذلك حين كنت أقوم بزيارة خالتي ام عبد الله عسقلان . كان الغناء ووجود آلة عزف في البيت من الممنوعات ، غير ان وجود الفونغراف كان مباحاً . وكثيراً ما كان أبي يمضي أوقات راحته في الاستماع الى أغاني فتحية احمد وام كلثوم والشيخ سلامة حجازي ، وكانوا من المطربين المفضلين لديه . كنت أتساءل : ما دام يحب الطرب فلماذا يحرمنا من العزف والغناء ؟

كنت أحتضن العود وقد اتخذت لي مكاناً في الغرفة أمام الشباك بمواجهة باب الدار ، حتى لا أفاجأ بدخول أبي أو أحد أبناء عمي . وأشرع في العزف والغناء بصوت خفيض ، حتى اذا ما برز رأس احدهم بالطربوش الأحمر نهضت مسرعة وخبأت العود في خزانة ملابسنا الكبيرة .

اما ابراهيم فقد كان يطرب لغنائي وعزفي ، وكان يكافئني أحياناً ببعض النقود او بهدية تفرحني كثيراً . لقد ظل ابراهيم معنياً بإعادة بنائي النفسي ، وابتعاث ما لديّ من ميل طبيعي الى إبراز إمكانياتي وقدراتي الكامنة . لقد ظل طيلة حياته يتغلغل بنظره الثاقب في تلك المساحات الواسعة الممتدة في قلبي ، ويلمس عذابي وشقوتي بفراغ تلك المساحات ، ويحس بطموحي الذي كان يغطيها . كان هو وحده الذي يراني ويحس بكينونتي ووجودي .

يبدو لي من رسائل ابراهيم التي كان يبعث بها اليّ من بيروت خلال العامين (١٩٣١ ـ ١٩٣٢) انني كنت أتقدم بسرعة لا أكاد الآن أصدقها . فها هي رسائله تكشف لي انني اصبحت خلال عامين قادرة على كتابة رسائل وقصائد سليمة من عيوب الصرف والنحو والعروض ، وهذه بلا ريب فترة قصيرة بالنسبة لنقطة الصفر التي انطلقت منها ، يضاف الى هذا حقيقة إخرى ، هي عدم وجود من يوجهني في البيت او يساعدني . أذكر أن أخي أحمد قام بزيارتنا ذات يوم ، وبمحض الصدفة وقعت يده على قصيدة كنت أنظمها في ذلك الحين ، فأثنى على جودتها ـ النسبية طبعاً ـ ولفت نظري الى عيوب قليلة في بعض قوافيها وتفاعيلها ، فقد كان ، الى جانب تخصصه في الفيزياء ذا معرفة بأصول الشعر وكان من محبيه ومتذوقيه . ولقد مضى وقت طويل قبل ان يؤمن بي أحمد ويأخذ مسيرتي الشعرية مأخذ الجد . فالواقع أنه ظل ـ كالآخرين ـ يعتقد ان يد ابراهيم كانت دائماً وراء قصائدي .

لا أذكر هذا إلا لتأكيد الحقيقة التي تقول انه اذا التقى الميل الفطري بالحوافز الدافعة لتحقيق الذات أصبح الانسان مملوكاً وأسيراً لمطامحه وتطلعاته ، كما ان حياته تصبح كلها وقفاً على العمل لتحقيق

هذه المطامح والتطلعات ، فلا تدور الا على محورها ، متحدية كل المعوقات والمثبطات ، ومن ثم تبدأ في الظهور نتائج لا تكاد تصدق .

بخطّي المشوش آنذاك كنت قد نسخت حكمة لكونفوشيوس تقول: (حتى صغار الطير يمكنها ان تطير لو أرادت ، فما في الوجود محال امام الارادة التي لا تقهر) . ألصقت الورقة على باب خزانتي الصغيرة من الداخل ، وظلت هذه العبارة تشحنني بالثقة والأمل على مدى سنوات البداية .

□□□

قبل ان ينمو الشاعر كشاعر لا بد من مروره بمرحلة التقليد ، يتأثر بالشعراء الآخرين ويحاول تقمص تجاربهم حتى يهتدي الى نفسه وأصالته .

كان ابن الرومي من أوائل الشعراء الذين أحببتهم . فمنذ ان اختار لي ابراهيم قصيدته الدالية في رثاء ابنه الأوسط لأحفظها ، شدني الى هذا الشاعر حزنه ورقة شعوره وعاطفيته المسرفة ... وكانت أوّل قصيدة نشرت لي في الصحف تنهج نهج تلك المرثاة وزناً وقافية وعاطفة . كان عنوان قصيدتي «أشواق الى ابراهيم» أو شيئاً من هذا القبيل .

وكما قال ابن الرومي في مطلع قصيدته : ـ

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي
فجودا فقد أودى نظيركما عندي

قلت وأنا أتشوق الى ابراهيم :

لقد زاد في قلبي اشتياقي من البعد
فهل عند ابراهيم مثل الذي عندي ؟

أقول لعين تشتهي النوم كفكفي
دموعك قبلا تستريحي من السهد
الا ليت شعري هل تجيء ديارنا
فيذهب ما يلقاه قلبي من الوجد

□□□

هذا كل ما أذكره من أبيات تلك القصيدة التي حملها أخي يوسف ذات يوم في جيبه ـ وكان قد بدأ الآن يخفف من ثقل ضغوطه عليّ ـ ليطلع عليها الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» .

فوجئت بالقصيدة ذات صباح منشورة في جريدة «مرآة الشرق» التي كان يصدرها في القدس الصحفي الفلسطيني الاستاذ بولس شحادة .

لم تفرحني المفاجأة العظمى ، بل صعقتني . وربض على قلبي هم ثقيل : ما هذا ؟ اسمي في الجريدة ؟ كيف سيكون وقع هذا الأمر الخطير على أبي ؟ حتماً سيحرم عليّ كتابة الشعر بعد اليوم .

بقيت تحت الكابوس الى ما بعد الظهيرة ، وحين دخل أبي الدار ركضت واختبأت في غرفتنا ـ غرفة البنات ـ وقبعت ألهث في انتظار سقوط السقف على رأسي ـ ولكن ، ولدهشتي ، لم يسقط السقف ، فأبي لم يعلق بأية كلمة .. وتنفست بارتياح عميق .

وأتاح لي هدوء بالي الان التفكير بالغلام الذي أحبني وأحببته : ترى كيف سيكون احساسه حين يقرأ اسمي في الجريدة ؟ ومرت الايام وتلتها عشرات الاعوام ولم اعرف جواب السؤال قط ، فقد اختفى الغلام وغاب عن عيني الى الأبد .

□□□

في صيف عام ١٩٣٢ استقال ابراهيم من عمله في الجامعه الامريكية وعاد ليعمل مدرسا في القدس ، وقد اصطحبني معه حيث أقمنا معاً في دار أخي أحمد الذي كان قد تزوج حديثاً .

رحت أعنى بشؤون ابراهيم الى جانب انكبابي على الدراسة ومحاولات نظم الشعر المستمرة . لكني لم ألبث ان وقعت فريسة الهم والقلق . فقد أخذت حالة ابراهيم الصحية تتدهور بسرعة كبيرة . وفي أوائل يناير عام ١٩٣٣ نقل الى المستشفى الألماني في القدس لإجراء عملية جراحية على معدته ، وكان نجاح تلك العملية أملاً ميؤوساً منه .

عدت الى نابلس بقلبي المثقل ، وكتبت بكائية حزينة جداً لا اذكر إلا البيت الأخير منها :

ما الشعر إلا شكاة الروح ان يئست
وان تغنت فترجيع وألحان

وكانت على وزن قصيدة ابن الرومي «أجنينك الورد أغصان وكثبان» . حين قرأها ابراهيم بعد شفائه لم يبد أي تجاوب مشجع . كان قد لاحظ من قبل انني ، في كل محاولاتي الشعرية ، اغرق في التعبير عن مشاعر الألم والحزن ، وكان يلفت نظري أحياناً الى هذه الناحية ويحذرني من الاسترسال فيها . قال لي ذات مرة (يا اختي ، الناس لا تهمهم مشاعرنا الخاصة ، فلا تنسي هذه الحقيقة ...) ولكن يبدو ان طبيعتي الحزينة الانطوائية والتي جعلتني استغرق دائماً في الانكفاء على الذات ، هذه الطبيعة يبدو انها كانت اقوى من نصيحة ابراهيم الذهبية . هناك حتمية في الطبائع . ولقد ظللت كلما حاولت اتخاذ موقف اقوى من طبيعتي أخفق وأعود بمسعاي خائبة مدحورة . وظلت محاولاتي الشعرية تدور اكثر ما تدور حول مشاعري وإلامي الخاصة .

□□□

لم يعد ابراهيم الى مهنة التعليم بعد شفائه ، وطلقها الى غير رجعة . ها هو الآن في نابلس ليقوم بعمل إداري في دائرة البلدية .

□□□

نابلس التي قالوا عنها في كتب الرحلات انها مسرح الشقاوة والثورة على الحكومة التركية .. وان اهلها موصوفون بالتمرد والعصيان والثورات وشدة البأس ..

ولقد ظلت هذه المدينة ذات التقاليد النضالية ، مصدر إزعاج لرجال الحكم منذ سقطت الأقنعة عن الوجه الحقيقي للانتداب البريطاني ، ومنذ انكشفت خبايا سراديب الصهيونية والاستعمار الغربي .

لا شيء يولد من الفراغ ، فكيف بالشاعر الوطني ؟ لقد نبت ابراهيم من ارض يجيش باطنها بالأحداث ومجتمع تكمن فيه البذور الثورية باستمرار . ومنذ قصيدته عن شهداء «الثلاثاء الحمراء» الأبطال أصبح ابراهيم صوت الانسان الفلسطيني الذي التحم وجدانه الوطني والاجتماعي بالواقع المرفوض . لقد اصبح شعره المحمل بحرارة هذا الواقع واشتعاله قويَّ النفاذ في الوجدان الفلسطيني . ولم يلبث ان انضم اليه صوتان لا يقلان نفاذا ـ عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) وعبد الرحيم محمود ، تلميذ ابراهيم وصديقه ، والذي استشهد فيما بعد وهو يدافع عن وطنه المغصوب في موقعة الشجرة عام ١٩٤٨ . وانضمت هذه الأصوات لتشكل الثالوث الذي صنع البداية للشعراء الفلسطينيين الذين راحوا يقدمون فيما بعد عطاءهم الشعري المتوهج على طريق الليل الطويل .

□□□

كان رجال نابلس بعد الاحتلال البريطاني مباشرة قد أسسوا «مدرسة النجاح الوطنية» جامعة النجاح الوطنية الان ـ ولم يلبثوا ان قاموا بتأسيس ناد لتلك المدرسة أصبح بعد فترة وجيزة ساحة تقام عليها المهرجانات الوطنية في المناسبات المختلفة . وشرع «النادي العربي» هذا يدعو المفكرين والادباء والشعراء من عرب فلسطين والبلاد العربية الاخرى ، مما أعطى للمدينة وهجاً ثقافياً ، بالاضافه الى الوهج الوطني والسياسي . كما أسس فرقة للكشافة أصبحت ذات تأثير كبير على شباب المدينة اليافعين حتى ثورة عام ١٩٣٦ ، وصار «النادي العربي» مثار الحماس الوطني المتأجج ، منه تخرج المظاهرات بجموعها الغاضبة ، وكانت قصائد ابراهيم الوطنية تتجاوب أصداؤها تحت قبة هذا النادي ، فتلهب الجماهير المتحرقة شوقاً الى الحرية والخلاص والاستقلال .

في هذه الفترة ـ ما بين ١٩٣٣ وأوائل ١٩٣٧ كنت أحياناً أحاول تقليد ابراهيم في كتابة الشعر الوطني وتقمص تجربته الشعرية . وقد كتبت قليلاً من القصائد الوطنية وأذكر بالذات قصيدة عن الزعماء الفلسطينيين الذين نفتهم حكومة الانتداب الى جزيرة «سيشل» ولقد نشرها الدكتور عمر فروخ في مجلته «الأمالي» التي كان يصدرها في بيروت ، وكان الدكتور فروخ صديقاً حيمياً لابراهيم ، ولم تكن تلك القصائد نابعة من وعي أو وجدان سياسي حقيقي ، ولكنها كانت تظهر (شطارتي) في النظم وفي تقليد البحتري وأبي تمام وسواهما ، كما كانت تظهر تمكني النسبي من اللغة والقدرة على التعبير . وكان ابراهيم يفرح فرحا حقيقياً وهو يرى غرسته تعطي بواكيرها الأولية .

□□□

منذ البداية حذرني ابراهيم من حفظ الشعر الحديث باستثناء بعض قصائد لشوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وخليل مطران كان هو يختارها لي ويوصيني بحفظها . كانت الرومانتيكية هي الاتجاه الغالب على شعراء الشباب العرب في تلك الفترة ، ولم يكن يرضي ذوق ابراهيم الفني ما كان ينشر في الصحف والمجلات الادبية من شعر لهؤلاء الشعراء المحدثين . لقد كان للتراث قداسة في وجدان ابراهيم ، فقد كان ابناً لجيل فتح عيونه على حركة احياء كبيرة للتراث وذلك بنشر وابتعاث قيمه الفنية ، كقوة السبك ونصاعة العبارة ورونق الديباجة ، ابتداء من البارودي في مطلع عصر النهضة ومروراً بشوقي ومعاصريه من شعراء مصر والعراق ولبنان وسوريا ، فكان شعر الشباب المنتمين في ذلك الحين الى مدرسة «ابولو» مثله مثل الشعر المهجري في نظره ، ضعيفاً ركيك الاسلوب ، ولا يرقى الى مستوى التعبير الشعري الجزل والمميز للتراث الشعري القديم . كان يلفت نظري دائماً الى أن متانة تركيب الجملة الشعرية والتمكن من ناصية اللغة لن يتوفرا للشاعر دون العودة الى الينابيع الأصيلة للشعر العربي ، يعني التراث .

التصقت بهذا التراث الشعري سنين عديدة ظل خلالها هو النموذج

الذي احتذيه في محاولاتي الشعرية على امتداد الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٤٠ ، وظل اهتمامي ينصب على ما يسمى بالديباجة والتعابير الفخمة .

لكم شعرت بالزهو والاعتزاز حين رأيت الدكتور عمر فروخ صاحب مجلة «الامالي» البيروتية يقدم لاحدى قصائدي المنشورة في مجلته بقوله : «هذه أبيات لشاعرة ناشئة ، وفي الوقت الذي نرى كثيرين من الرجال ينظمون شعراً مؤنثاً رقيقاً ، نرى فتاة في الخطوات الاولى من حياتها تعيد الى خيالنا ذكرى أبي تمام والمتنبي وتطلع علينا بديباجة شوقي» .

لقد نما وتضخم اهتمامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية الى حد كانت أفكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الحقيقية الى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطنين والدوي :ولي عندكم قلب غريب مطرَّح : لدى بابكم يمسي ويصبح في الكرب / طليح اذا استنهضته كي اقيله : تحامل ثم انكب من ألم الحب / فلا تسألوني عن بكائي فانما : بكائي يا أحباب قلبي على قلبي / سلام عليه اذ يموت صبابة : واذ انتمو لاهون عن قلبي الصبِّ .

كنت اوقع قصائدي الغزلية باسم «دنانير» وأبعث بها الى مجلة «الامالي» حيناً والى مجلة «الرسالة» القاهرية حيناً آخر . كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار ، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسي البيئة المحيطة منذ الصغر . وحين فكرت لأول مرة بنشر مقطوعتين غزليتين لي في مجلة «الامالي» أخذت من كتابة الاغاني ، بكل ما أحمل من سذاجة وبراءة ، قول ابي الفرج عن الشاعرة دنانير جارية يحيى البرمكي : «وكانت دنانير شريفة عفيفة» وجعلت من هذه العبارة مدخلاً للمقطوعتين الشعريتين أحتمي به من عار الحب ، ولكي اؤكد للقارىء أن شعر الحب لا ينفي صفة العفة والشرف عن الانثى قائلة ذلك الشعر .

في تلك الايام كنت اقيم مع ابراهيم وزوجته في القدس . كان ابراهيم يصحب صديقه «ابو سلمى» أحيانا لتناول طعام الغداء في البيت وكان موظفا مثل ابراهيم في مصلحة الاذاعة الفلسطينية . على المائدة فوجئت ذات مرة بأبي سلمى يوجه الى ابراهيم سؤالا لم أتوقعه ، قال : هل مرت بك يا ابراهيم خلال قراءاتك في كتاب الاغاني هاتان المقطوعتان الشعريتان لدنانير والمنشورتان في العدد الاخير من مجلة «الامالي» . قال ابراهيم : «كلا ، لا أذكر انني قرأتهما من قبل » . وسكت أبو سلمى . أما أنا فلم أقل شيئا ، أخفيت خجلي وارتباكي وراء صمتي ، وشرعت أتظاهر بالانهماك بتقطيع شريحة اللحم في صحني لكي لا يفشي احمرار وجهي المفاجيء سر الحقيقة الكامن ، الحقيقة التي تقول أن أحد عشر قرنا كانت في تلك اللحظة تفصل بين الشاعرة البرمكية دنانير وبين صاحبة الشعر المنشور في المجلة، والمنتمية ، كبائي الحضور ، إلى هذا القرن العشرين ، ومع ذلك فهي تكتب شعراً يخلو تماماً من رائحة القرن العشرين .

لم أكتم الحقيقة طويلاً عن ابراهيم ، أعلنتها بعد بضعة شهور ، فقد كنت أتحصن دائماً بمحبته لي وبما كان يبدي من تسامح وعقل مفتوح تجاه المرأة . أبهجته معرفة الحقيقة ، ونقلها لأبي سلمى معتزا فخوراً بتمكن تلميذته من كتابة مثل هذا الشعر القوي في تركيبه اللغوي السليم .

في الحقيقة أن حكاية الديباجة الكلاسيكية هذه ، والاهتمام الكلي بالكلمة ورنينها ، وبأسلوب التعبير المصنوع ، كل هذه كنت أحسها سداً يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم . كنت أحسّ بالتصنع يدب في ثنايا أشعاري ويلصق بها صفة الجفاف واليبوسة . ولم أكن أعرف كيف أبتعث في قصيدتي النسغ المفقود ولا من أين أستمده . كنت أنحت من صخر فعلاً ، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي ***بسهولة*** ويسر ، ولم اهتد الى

اصالتي الا يوم هداني الدكتور محمد مندور الى أدب المهجر .

كان ذلك الناقد والمفكر الثوري الرائع الذي يتربع الان على قمة شامخة في تاريخ الادب والنقد العربي الحديث ، كان قد شرع ينشر في بداية ١٩٤٠ وفي مجلة «الثقافة» المصرية بالذات سلسلة من المقالات النقدية حول الادب المهموس والتي تناول فيها ادب المهجر بشقيه الشعر والنثر . وجدت ان شعر اولئك الشعراء المهجريين أقرب الى تكويني النفسي وتركيبي الذهني . كما صادف تلك الفترة اكتشافي لشعراء مدرسة «أبولو» كابراهيم ناجي والشابي وعلي محمود طه والتيجاني . من هنا بدأت أدير ظهري للديباجة العباسية وأصبح مطمحي الأكبر هو كتابة شعر يستمد جماله من البساطة والليونة والصدق والصياغة الشعرية الخالية من التكلف .

□□□

في أواخر الاربعينات طلعت الشاعرة الرائدة نازك الملائكة بقصيدة التفعيلة ، ولنازك فضلها الريادي في تطور شكل القصيدة العربية المعاصرة وفي السرعة العجيبة التي تم بها اقتناع شعراء الخمسينات بهذا الشكل الشعري الجديد . فقد كان توهج نازك الشعري انذاك مبهراً للأبصار ، متميزاً بجاذبية خاصة وتأثير كبير . ولعله من الحقائق البديهية أن أية حركة «تجديدية» لا يتم لها النجاح والانتشار السريع الا اذا كان الصوت الذي ارتفع منادياً بها صوتاً متميزاً ذا أصداء قوية في الاسماع والنفوس ، وكانت نازك تملك هذا الصوت بحق .

اقتنعت بقصيدة التفعيلة . تخليت عن البيت المستطيل ذي الشكل التقليدي والايقاع الرتيب ورحت امارس كتابة القصيدة الجديدة . لم تكن العملية سهلة بادىء الأمر ، فقد واجهتني صعوبة لم

اعرفها حين كنت أنظم قصيدة البيت ذي التفاعيل المتساوية في شطريه الصدر والعجز . فمنذ اطلعت على علم العروض لا أذكر انني وقعت في خطأ الكسر ، فقد كانت موسيقى الوزن الرتيبة المنتظمة تمضي بي تلقائياً في طريق محددة مستقيمة . وليس كذلك قصيدة التفعيلة . فهذه القصيدة غير منظمة الانغام ؛ من هنا وجدتني أتعثر بادىء الأمر ، فلم يكن من السهل على الاذن المحكومة بموسيقى الوزن الرتيب أن تأتلف بيسر مع الانغام غير المنظمة لافتقاد هذه الأنغام للوحدة الاساسية التي يتميز بها البيت المستقل في القصيدة اقديمة . ففي قصيدة التفعيلة المتميزة بوحدتها العضوية يتدفق الشاعر خلال أسطر متفاوتة الأطوال ملتحمة التفاعيل ، ولا يقف الا عند الوصول الى نهاية المعنى ليبدأ من جديد بمعنى جديد آخر وهكذا الى نهاية القصيدة .

لا يزال موقفي من التحرر من قيود العروض القديمة هو موقف المؤيد لهذا التحرر . ولا يعني هذا انني مع القائلين بالتخلي عن الوزن والقافية بشكل نهائي ، فالشعر يبقى فناً مستقلاً عن النثر ، ولا أجمل من القرارات الموسيقية وهي تتجاوب ضمن الأسطر المتباينة في أطوالها ، ولا أجمل من القوافي وهي تتراوح في قصيدة التفعيلة بين الظهور والاختفاء ، وبالرغم مما واجهته حركة الشعر الحديث من مقاومة التقليديين ورفضهم القاطع لها ، فقد ظلت صامدة على ارضها وأثبتت وجودها باجتذابها لشعراء الخمسين الموهوبين والذين أصبحوا اليوم أعلاماً في تاريخ الشعر العربي المعاصر .

ان قصة الصراع بين القديم والحديث قصة أزلية ، ولكي تتجدد الحياة لا بد من هذا الصراع ، فالثبوت والاستقرار محال .وما دام كل شيء ينزع الى التغير والصيرورة ويأبى الاكتفاء بذاته ، وما دام هذا النزوع الى التغير هو قانون الحياة ، فلا بد للشعر اذن من ان يدركه هذا القانون ، فالجمود مستحيل ، وحين نطالب الشاعر العربي الحديث بالاحتفاظ بصفة الثبوت لمبنى القصيدة ، فكأنما نطالبه بما هو

ضد طبيعة الاشياء ، بما هو ضد قانون الحركة والتطور .

حتى هذه الحركة الشعرية الحديثة التي مر عليها الان أكثر من ثلاثة عقود والتي أصبحت تواجه - كما يبدو - خطر الاجترار وتكرار الذات ، حتى هذه الحركة لا بد من ان يدركها في النهاية نزوع الى التجدد وطموح الى تجريبية جديدة

□□□

خلال عامي ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ نشأت صداقة حميمة بيني وبين صبية كانت ابنة لموظف في نابلس كردي الاصل . كانت هذه الصبية التي قدمتْ حديثاً من دمشق بعد زيارة لأخوالها هناك ، تعيش في مناخ مغاير تماما للمناخ الذي كنت أعيش فيه . وكان والداها واخوتها ينعمون بجو تسكنه روح الفن . كل فرد في هذه الاسرة كان يجيد العزف على العود كما يجيد الغناء ، ولقد أصبح أحد أبنائها فيما بعد اسماً معروفاً في عالم السينما المصرية .

كانت (وجدان) الصبية السمراء ، شديدة الجاذبية ، تتردد باستمرار على جدتها المقيمة بجوار بيتنا . ولقد نفحت صداقتها أيامي بنسمة رخية رطيبة . كانت تأتيني وتهمس في اذني بلهجتها الشامية العذبة :ـ اكتبي لي رسالة الى (فؤاد) .. وكان فؤاد هذا ابن خالها المقيم في دمشق وخطيبها الذي أحبها خلال زيارتها لدمشق .

من صديقة المراهقة (وجدان) تعلمت رقصة الشارلستون .. وكان ابراهيم الان قد اشترى فونوغرافاً أدخل البهجة الى نفوسنا جميعا . كانت هناك ألوان مختلفة من الموسيقى والأغاني المسجلة على اسطوانات «اوديون» و «صوت سيده» وسواها . وكانت من ضمنها موسيقى رقصة التانجو والفوكس تروت والشارلستون . وأصبحت

هذه الرقصة بايقاعاتها وموسيقاها الصاخبة ذات التكرار ، تنفيسا عما كنت اعانيه من كبت وضغط اجتماعي . اصبحت اقوم بأداء رقصة الشارلستون بتفنن كبير ونشوة عظمى ، تماماً كما هي الحال مع دراويش الشرق العربي او فقراء زنوج امريكا اذ يلجأون الى الرقص على ضوضاء الطبول الصاخبة ليتخففوا من ضغط البيئة الخارجية ..

وكذلك كانت الحال مع عمتي «الشيخة» التي كان استغراقها في حركات الدروشة كلما حلت فيها روح الله .. يساعدها على تفريغ المشاعر المتوترة ..

لم يعد بمستطاع «الشيخة» الان ملاحقتي بالزجر والتعنيف ، فوجودي تحت مظلة ابراهيم اصبح يعطيني شكلاً من أشكال الحماية ، لكنها ظلت تضمر غيظها مني ومن اهتمام ابراهيم بي ، وتوسوس للأرباب فتشحنهم بمشاعر الكراهية .

كنت أحس دائماً انني تحت المراقبة ، ولقد مزق ابن عمي الكبير فستاناً كنت ارتديه ذات مساء ، لم يكن الفستان يفتقر الى الحشمة بحال من الأحوال ، ولكن عيبه الوحيد انه كان يكسبني مظهراً جميلاً .

□□□

هذا العالم الذي كنت أعيش فيه ، ظل شديد الوطأة على نفسي حتى لقد سيطر عليّ الشعور بالعبودية والقسر ، لا سيما بعد انتقال ابراهيم الى عمله في اذاعة فلسطين بالقدس ، أخذت احس ان المساعدات المستأجرات في البيت اكثر حرية وسعادة مني ، وظللت اعجز وأضعف من أن أفرض نفسي على الأشياء والامور التي كانت تجري من حولي . كنت على وعي بمهانة هذا الوضع وبعجزي عن تحطيمه والخروج من إطاره . هكذا قام خصام لا هدنة فيه بين نفسي المقهورة بالكبت ، وبين الواقع المتجهم الذي أحياه . مما اوجد في نفسي انفصاما شقها الى نصفين : نصف كان يبدو للأعين مستسلما

خاضعا ، ونصف كان يرعد ويبرق تحت السطح ويكاد يدمر نفسه ..
وظللت أعاني درامية التيار الذي يجري تحت سطح الماء الساكن ،
وكأنني واحدة من شخصيات تشيكوف .

ظلت مراهقتي هدفاً لسيف «الجلاد» الذي ذكرته فيما بعد في
قصيدتي «هو وهي» وفي كثير من قصائد «وحدي مع الأيام» . فقد
كان ذلك السوط يهوي على يفاعتي بدعوى التقاليد والمقاييس
الأخلاقية الظالمة . كنت أعرف ان الضغوط لم تكن تتعلق بالتقاليد
بمقدار ما كانت تنفيساً عن غيظ وحقد ، بسبب مسيرة الشعر التي
بدأت أغذ السير فيها بتصوف غريب .

كنت أتحيَّن الفرص لتعلم اللغة الانجليزية ، ولكن نابلس كانت
تفتقر للمجال المسعف ، فلم يكن فيها مدارس خصوصية أجنبية ،
بعكس البلدان الاخرى في فلسطين ، كالناصرة وحيفا ويافا ؛ كانت
هناك مدرسة راهبات مار يوسف ، ويا طالما تطلعت الى الالتحاق
بها ، وقد كانت بالنسبة لمحيط نابلس شيئاً متميزاً ، تعلم طالباتها -
وما كان أقل عددهن ! - تعلمهن اللغة الفرنسية والعزف على البيانو
والرسم بالزيت . وقد تم لي تحقيق هذا التطلع بعد وفاة ابن عمي
الكبير ، وكنت في الخامسة والعشرين من العمر ، فدرست فيها
عامين. **فقد ظللت مسكونة بحلم مقاعد الدراسة التي حرمت منها ايام
الصغر.**

في عام ١٩٣٩ حانت لي الفرصة لتعلم اللغة الانجليزية ، وسمح
أبي لي ولشقيقتي (فتايا) بأخذ دروس خصوصية لدى فتاة مسيحية
كانت قد تخرجت حديثاً من مدرسة «الفرندز» في رام الله .

أخذنا الدرس الاول ، ثم صدر القرار بالتوقف ، فقد اعترض
بعض ارباب العائلة على هذا الأمر «الناشز» حين علموا به من
«الشيخة» . وكان أبي حريصاً على ارضائهم .

لقد كانوا يرتدون الزيّ الاوروبي ، ويتكلمون التركية والفرنسية
والانكليزية ، ويأكلون بالشوكة والسكين ، ويقعون في الحب ، ثم

يقفون بالمرصاد كلما حاولت احدانا تحقيق انسانيتها عن طريق
التطور الطبيعي او التطلع الى الافضل والاحسن . كانوا يمثلون -
خير تمثيل - جمود الانسان العربي وعجزه الكلي عن الاحتفاظ
بشخصية واحدة غير مشطورة ، ظلوا يمثلون انقسام شخصية
الانسان العربي شطرين :نصف مع التطور والتجاوب مع روح
العصر ومسايرة ايقاعات الحياة المعاصرة ، ونصف مشلول الأقدام ،
مسكون بالانانية المترسبة في نفس الرجل العربي بكل ما فيها من
عنجهية شرقية ، تلك العنجهية التي ظل يعامل الرجال بوحيها
الاناث من ذوي قرباهم . وهكذا كان كل ما حولي يضغط عليّ ، حتى
جدران الدار الاثرية كنت أحسها تجثم على صدري بكل ثقلها
وشموخها . كم كنت أشتهي النوم تحت السماء ، لا سقف من فوقي
ولا جدران من حولي ولا اقارب بجانبي .

كنت أقف دائما موقفاً سلبياً مستسلماً تجاه ما يغضب او يثير ، فما
ملكت يوما الصوت الجريء لأرفعه أمامهم بالاحتجاج . اما شقيقتي
(فتايا) فكانت ذات تركيب نفسي مختلف تماماً ؛ لا تخفض رأسها ولا
تبالي بمن رضي أو سخط .

وقفت (فتايا) أمام أبي تحتج على تغيير موقفه تجاه مباشرتنا تعلم
اللغة الانكليزية . وقالت بغضب : أعرف السبب .. انهم «هم» .. هم
الذين أوعزوا بذلك ! ما شأنهم بنا ما دمت أنت قد سمحت ؟

ترضاها أبي قائلا : سيقوم اخوكما «نمر» بمهمة تعليمك انت
واختك .

وتطوع نمر للقيام بالمهمة بحماس لا يقل عن حماسنا ، فقد كان على
صغر سنة أنذاك يضيق بوضع المرأة في البيت ، كما انه فيما بعد اقنع
أبي بالحاق شقيقتي الصغرى (حنان) «بكلية شميدت» للبنات في
القدس للحصول على شهادة المتريكوليشن الثانوية .

□□□

بلى ، كنت افتقد الجرأة على الاحتجاج الغاضب على مواقفهم المعادية ، غير ان شعور الكراهية المقيت كان ـ بالمقابل ـ ينمو ويتعملق في اغواري كشجرة شيطانية . فمهما كان المرء سهل الطباع ، فلا منجاة له من براثن وحش الكراهية الذي يخلقه فينا وينميه اولئك الذي يسلبوننا حريتنا ، ويسيئون معاملتنا ، ولا يثقون بنا .

لقد كنت في نظرهم النغمة النشاز في البيت والنعجة التي خرجت على راعي القطيع ، من هذا المنطلق ، ومنذ البداية ، ظلوا يتعاملون معي . ولكي يخنقوا تطلعاتي الى تحقيق الذات ، كانوا يعملون بمختلف الطرق على زرع بذور عدم الثقة بنفسي والشك بامكاناتي . ويكمن خطر هذا الاسلوب في ان الانسان ، بطبيعته يرى نفسه بالعين التي يراه بها الآخرون ، وفكرة الآخرين عنه هي التي تنغرس فيه لا سيما حين يكون صغيرا أو مراهقاً في دور التكوين .

أعرف سيدة لا يشغل فراغ ذهنها الا مشاكلها الممتدة مع (الخدم) فأحاديثها كلها تكاد تنحصر في هذا النطاق . وفي رأيها ان الخادم يتصف دائماً بالدناءة وعدم احترام الذات ، ولولا هذه الصفة فيه لما قبل بالعمل (المهين) . هذه أراء وأحكام لا يمكن ان تفرزها الا عقلية انسان لم يعرف اطفاله عضة الجوع ، ناهيك بقسوة القلب. وأتذكر «ام حسن» التي كانت تعمل في أسرة عمي ، و «ام عفيف» التي كانت تعمل في اسرتنا ، وأتذكر «الحاج نافع» الذي كان يعمل في مصبنة أبي وعمي ، وأتذكر (سليمان) الذي كان يقوم بتنظيف الديوان وإشعال قنديل الزقاق كل مساء ، الى جانب قيامه بشراء ما يلزم من حاجات البيت اليومية كالخضار واللحوم وسواها . لقد عرفت كل هؤلاء وغيرهم ، ولي معهم ذكريات حبيبة .. كانوا يدللوني ويحبونني وأحبهم ، وكنت شديدة التعلق (بالحاج نافع) بالذات . وحين كنت أصغي الى أحاديث تلك السيدة وأنا صغيرة كنت أصدق ما تقول ، فالصغار يؤمنون دائماً بما يقوله الكبار ، ولكني كنت في نفس الوقت

أقع في حيرة وبلبلة بين الحقيقة التي اعرفها وأحس بها من خلال علاقاتي بتلك الفئة المسحوقة ، وهي حقيقة تدحض ذلك الحكم ، وبين أقوال تلك السيدة . فما كنت أدرك يومها ان تصرف السيد المتعالي تجاه خادمه والفكرة التي يحملها عنه هي العامل الفعال في توجيه سلوك الخادم وتصرفاته التي يعوزها احترام الذات ، اذا كان حقاً ما قالته السيدة .. فمن المؤكد أن الانسان يصبح الشخص الذي يعتقده الآخرون ، حيث تسيطر عليه فكرتهم عنه وتصبح هي العاطفة المتحكمة في سلوكه .

وبالنسبة لوضعي وواقعي في البيت اصبحت اقف الان بين قوتين ، بين ايمان ابراهيم بي الذي كان يشحنني بالثقة بالنفس وباحترام الذات وبالأمل في انني سأكون (شيئاً) ذا قيمة في يوم ما ، وبين عمل الآخرين المستمر على زعزعة هذه الثقة . وشرعت أتراوح بين هاتين القوتين بقدر ما في طبيعتي من السلبية والايجابية . وكان عليّ ان اخوض بالتالي في صراع مع تطلعاتي والواقع الذي اوجدني فيه مجتمع متخلف وأقارب لم يتحرر تفكيرهم قط .

كانت هناك بذرة صغيرة تأبى الاكتفاء بذاتها وتنزع الى التجدد والتغير . تنزع الى ان تصير شيئا آخر ، فهي تأبى الثبوت والاستقرار . كنت احس بتلك البذرة تتحرك في داخلي كدينامو لا يهدأ ، وكنت أحس في الوقت نفسه بالقالب الفولاذي الذي أقبع داخله يعمل على خنق تلك البذرة لتصبح فيما بعد بركانا يمكن ان ينفجر في أية لحظة ليطيح بالقاعدة والأساس الذي قام عليه ذلك القالب اللعين .

وظل عالم كتبي وأوراقي وأقلامي يمدني بالقوة ، ويساعدني على التماسك وتثبيت القدمين على الارض المهزوزة تحتهما . وظلت احلامي تخطط دائما لقطع صلتي بكل ما هو رمز للسلطة في العائلة : الاب ، أبناء العم ، العمة . ونفرت من كل هؤلاء ، ومن هنا تعلمت فيما بعد كراهة كل ما يمثل السلطة الجائرة والحكم الظالم

في مختلف مؤسسات المجتمع . ولكن كراهيتي ظلّت في الكثير من الأحيان سلبية لا تتحول الى طاقة تعمل على التغيير الى الأفضل والأكمل والأجمل بالنسبة لمؤسسات المجتمع .

أما بالنسبة لوضعي الخاص فقد صرت فيما بعد أشعر بالامتنان تجاه الذين أرادوا خنقي بالقسوة وسوء المعاملة . فلولا فظاظتهم لما نمت قدرتي على التشبث بما كنت أصبو اليه من مطمح أدبي . ولو انهم حاولوا قتل تطلعاتي بالمحبة واللين لأطفأوا فيّ الشرارة الكامنة ، ولو كانوا استعملوا اليد الحريرية في محاولة خنق تطلعاتي بدلا من اليد الحديدية لأفلحوا ونجحوا فخيوط الحرير الرقيقة الناعمة تكون عادة أقدر على الخنق .

حين كنت أقع تحت ممارسة ضغوطهم عليّ ، كنت أشعر أحيانا انني تحطمت فعلاً ، وأغرق في بحر من اليأس . ولكن هذا التحطم كان يصل بي الى نقطة بالذات عندها كان يحصل شيء أخر . فحين يصل المرء الى قاع هوة اليأس تدب فيه شرارة الحركة لتدفعه الى العمل على الخروج من الهوة . وهكذا كان الصراع بيني وبين القوى المضادة يشتد من جديد ليؤكد لي فيما بعد صحة النظرة الديالكتيكية للحياة .

على امتداد هذه المرحلة ، وكانت أقسى مراحل حياتي على الاطلاق ، ظلت رعاية ابراهيم لي هي القوة الدافعة في تحويل المشاعر المضغوطة الى طاقة عملية . فأكب من جديد وباستغراق على مواصلة الدراسة والمطالعة ومحاولات الكتابة شعراً ونثراً .

اذكر الان أنني شهدت قبل سنوات على أحد مسارح لندن مسرحية تروي قصة مدرّسة ذات طموح وعقل وعاطفة متوهجة ، استطاعت بشخصيتها الأخاذة ان تطبع بصماتها على مجرى حيوات تلميذاتها الصغيرات ، مما كان له أكبر الاثر على توجههن في الحياة فيما بعد .

وحين كانت الستارة تسدل كان صوتها يأتي من بعيد وهي تقول: اعطني فتاة في طور التكوين اجعلها من اتباعي مدى الحياة .

خريف عام ١٩٣٥ .. تشارين تهب رياحها على أحراش قرية (يعبد) في قضاء (جنين) ... الارض الحبلى بالاحداث ترهف السمع على انتظار وتوقع .. الشيخ عز الدين القسام يرفع يده العربية المؤمنة ويقوم بأول طرقة على باب الثورة . فلا يكاد يفعل ، حتى تفتح له الأبدية أبوابها ، ليدخل الشهيد العظيم ، مع بعض رفاقه الآخرين ، في رهط الشهداء الخالدين .

□□□

النار التي قدحتها طرقة الشيخ الشهيد تعود فتنطلق شرارتها في نيسان عام ١٩٣٦ بين الفئات الشعبية .. يلتهب الفلاحون والعمال .. تعلن يافا الاضراب ويشمل الاضراب عمال الميناء .

تشتد الثورة الشعبية المتصاعدة ، فتنعطف بمسيرة القيادات التقليدية عنوة واقتدارا ، لتضعها في مواجهة مع الواقع المشتعل ..

في ٢٠ نيسان اجتماع وطني كبير في نابلس ، تتألف فيه «اللجنة القومية» لتصدر بيانها المعبر عن (سخط العرب على سياسة الحكومة التي تهدف الى ابادة العربي في بلده العربي) ـ فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ (عيسى السفري) .

ويجرف تيار الأحداث الملتهبة قيادات الأحزاب القومية فيكون الاضراب الشامل في فلسطين . ويبدأ النضال السياسي والمسلح لتشارك فيه مختلف الجماهير الشعبية الفلسطينية . فتخط فصلا مكثفاً من فصول الكفاح الفلسطيني على شعاب الجبال وفي قراها ، ومن هناك يدوي صوت الشعب الخالد ..

□ إحنا اللي نحمي الوطن ونبوّس جراحه

ويتجاوب الصدى مرددا :

□ بيع أمك واشترى باروده
والباروده خير من أمك
يوم الثورة تفرج همك

«كتاب أغانينا الشعبية» ـ نمر سرحان

□□□

أبحث عن نفسي الان وأنا ألتفت الى تلك الأيام الفلسطينية فأراني في عمان ، محاصرة ـ بسبب الاضراب الشامل في فلسطين ـ ، قابعة في بيت شقيقي احمد المنتدب حديثاً من قبل الحكومة ليشغل منصب مدير المعارف في إمارة شرق الاردن .

□□□

زوجة أخي تلومه وتشكو تركه لها في بعض الأماسي للقيام بواجب زياراته «الرجالية» هنا وهناك :

ـ ولكنك لست وحدك ، لقد اتيت لك بأختي لتسليك .

ـ أختك لا تقيم بجانبي الا قليلا . تعتكف وحدها في الغرفة منذ الثامنة .

كانت زوجة أخي على حق في شكواها ، فما كنت في يوم صالحة للقيام بدور المسلية ، وظللت أفتقر الى هذه الموهبة ، موهبة تسلية الآخرين . فقد كانت موهبة مصادقة النفس من جهة ، ومصادقة كتبي ودفاتري من جهة اخرى ، هي المسيطرة والمتحكمة في سلوكي .

كان يحدث أحيانا نوع من عدم التوازن أو من الخلخلة في علاقاتي بالآخرين وذلك حين ارتطم بغير المتوقع ، او حين ينقلب المثال الى صورة مهزوزة . هنا كنت احس بعجزي عن الالتصاق ، واقع في حالة من الاغتراب الاجتماعي ، فألجأ الى مأواي الأمين . الى نفسي والى كتبي والى وحدتي التي ظلت تشكل العمود الفقري لوجودي ، بما تتيحه لي من فرصة المطالعة والتأمل والاحساس بالأمان .

ولم تكن أسباب لجوئي الى الوحدة بالضرورة او في كل الحالات نتيجة لارتطامي بالآخرين ، فحتى في فترات المصالحة والوفاق مع العالم والناس والأشياء ، ظلت مصادقة النفس التي لا تتم الا في جو التوحد هي الاتجاه الغالب . وهذه النزعة الباطنية المتحكمة أصبحت فيما بعد احد أسباب الصراع النفسي الذي عانيته في تجربتي الشعرية ، خاصة حين خرجت الى الحياة ألمسها بأصابعي وتلمسني .

□□□

حرارة شعبية القائد فوزي القاوقجي ترتفع الى أعلى درجة ، وأصداء الثورة وإنجازاتها تصل الى سمعي من بعيد . فيما أنا قابعة في دار أخي أحمد في عمان . وتثير بطولة فوزي القاوقجي خيالي ومشاعري ، فأكب على نظم قصيدة تعكس انبهار الصبية الرومانسية بشخصية قائد الثورة الاسطوري :

بطل الأبطال يا زين الشباب
هات حدثنا عن الأمر العجاب

وتمر الأيام ، ومع أفول شعبية القاوقجي ، وخمود عشق الجماهير له ، تضيع القصيدة المبهورة مع قصائد المحاولات الفاشلة .

□□□

أواخر تشارين ١٩٣٦ ، القيادة العامة للثورة تطلب في بلاغ موقع باسم القاوقجي توقيف اعمال الثورة .. أيام قليلة ثم تعلن القيادة بعدها ترك ميدان القتال . الملوك والأمراء قرروا ذلك حفظا لسلامة المفاوضات ... وإعتماداً على نوايا الانكليز «الحسنة» تجاه العرب !

□□□

انحل الاضراب في فلسطين ، وانفك معه الحصار المضروب حولي في عمان . فقد اصبح السفر الان ممكناً ، وظل عام الحصار في عمان صفحة حائلة اللون في رحلة العمر ، فارغة من اي مضمون . لم تعطني تجربة السفر والغياب شيئا ذا قيمة . كانت عمان عاصمة الامارة بلدة فقيرة ، صغيرة ، متواضعة ، تخلو من جاذبية المظهر والمخبر على السواء . فالمواضعات والقيود الاجتماعية الصارمة لم تكن لتختلف عما هو مألوف في بقية البلدان العربية المتخلفة . اما أخي أحمد فقد كان يرفع دائما ذلك الحاجز الذي يرفعه الأخ الكبير بينه وبين اخوته ، وكانت له علينا سيطرة الاب ، فكانت علاقتي به يغلب عليها صفة الانكماش والتهيب والكلفة ، الى جانب الصمت ، والصمت لغة الغرباء حتى لو جمعتهم وحدة الدم .

عدت الى ركني الخاص في غرفتنا الكبيرة بنابلس «غرفة البنات» .. عدت الى خزانتي وطاولتي وكرسيّ وابريق قهوتي

وفنجاني .. فعلى مدى حياتي ظلت تقوم علاقة نفسية حميمة بيني وبين أشيائي المتميزة بطابع الخصوصية . وكان بالنسبة لي طابعا شديد الجاذبية .

□□□

فاتتني في عمان فرصة معايشة الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، ولكن ها أنا بعد شهور أعانيها عن قرب ، اذ تهب من جديد مع ظهور مشروع التقسيم من جهة ، ومقتل حاكم الناصرة الانكليزي «اندروس» مع حارسه البريطاني في أواخر أيلول ١٩٣٧ من جهة أخرى .

هيّج حادث الاغتيال السلطات الحاكمة ، وبدأت حركة التنكيل وعمليات القمع والاعتقالات الجماعية . وفقدت الهيئة العربية العليا واللجان القومية شرعية قيامها بعد ان أعلنتها السلطات هيئات غير مشروعة . ثم اختفى الحاج أمين الحسيني بشكل غريب ، وتشرد بعض الزعماء ونفي بعضهم الاخر الى «سيشل» والثورة تشتد ومعها تشتد عمليات القمع .

كنا نفاجأ بإعلان منع التجول في أي وقت من أوقات النهار ، فكان الناس يحاصرون حيث كانوا ، ولا يسمح لهم بالمغادرة الى بيوتهم .

وقفت ذات يوم مع امي في السوق ، ملجلجتين ، أمام القوات المسلحة ، وقد أقفلت الطريق الى دارنا ولم نعرف اين نذهب . أشار بعض الجنود بأيديهم نحو الشرق ، فعرفنا ان علينا ان نتجه شرقا . مشينا الى «ساحة المنارة» لنطرق باب عائلة صديقة ، ونقبع هناك الى ان ارتفع منع التجول فعدنا للبيت .

أصبحت عمليات مداهمة البيوت للتفتيش أمرا مألوفا ، وكان

يحدث ذلك في الليل أو النهار ، لا فرق . كان فرض الاحكام العرفية على البلاد مؤشرا الى مدى عنف الصدام بين الجماهير والحكم البريطاني .

كان هناك يوم بقيت صورته حية في الذاكرة بكل تفاصيلها . استيقظت واخواتي على طرقات أحذية الجنود الثقيلة ، كانوا نفراً يقفون وسط الغرفة في غبش الهزيع الأخير من الليل . هببنا من الأسرَّة ، وطلبوا الينا المغادرة فورا . لم يسمح لنا بتغيير ملابسنا ، ولكنا خطفنا معاطفنا من الخزانة بسرعة ووضعنا أغطية رؤوسنا كما اتفق ، وخرجنا الى السوق مع بقيةالنساء والرجال والأطفال في حينا ـ حي الياسمينة ـ . وبحسب أوامر الجيش المداهم سارَ الرجال في طريق ، وسارت النساء والأطفال في طريق أخر . كان بين النساء نفساء في يومها العاشر تسكن بجوارنا ، رأيتها وهي ترفع وجهها المحجب الى أعلى فيبدو عنقها الابيض وبعض خصل سالفيها الحمراء ، قالت وهم يتحسسون لفانف المولود الجديد : «ربي يكسر جاهكم ويرمّل نسوانكم» ، قالتها بلهجة نابلسية أصيلة ، ناطقة الميم نوناً كما في اللهجة العامية . أما عمتي الشيخة فكانت تحت وطأة نزلة صدرية حادة ولا تقدر على السير ، فحملها جارنا «الدحدوح» بائع الخضار والفاكهة على ظهره ومشى في موكب النسوة .

انتهت بنا المسيرة الى منطقة «رأس العين» في سفوح «جرزيم» وانتشرنا هناك في العراء وقد بدأ الصبح يتنفس .

أطلّ فجأة من الجانب الآخر صف مزدوج طويل من رجال سكان الاحياء المطوقة . رأيت أبي بينهم مشتملاً بعباءته ، فأحسست بالحزن في قلبي والحنو يغمر نفسي . ان منظر الشيوخ والطاعنين في السن في مثل هذه المواقف يثير في النفس من المشاعر المرة الحزينة ما لا يثيره الفتية والشبان . ورأيت في صف الرجال المزدوج المغذ في السير رجالاً عرفوا بالشدة والنزق والعنجهية ، فشعرت بتناقض وجودهم في المشهد الذليل .

عدنا الى بيوتنا في الأصيل لنشاهد آثار أسوأ عمليات التفتيش والنهب ؛ كان قلمي الزيتوني اللون ضمن المنهوبات ، وبقيت الى مدى طويل افتقده بشيء من الحسرة ، فقد كان أول قلم حبر امتلكه ، وكان ـ وهذا السبب الجوهري في انزعاجي لفقده ـ هدية من ابراهيم كافأني بها على قصيدة رثيت بها الملك فيصل قبل ذلك بسنوات قريبة .

□□□

كانت الثورة قد عمقّت الدوافع العدائية الجماعية في أفراد الجماهير الفلسطينية نحو الانكليز ، فوعد بلفور كان شيطاناً انكليزياً منذ البداية . ولقد كانت ثورة (القسام) في الأصل قائمة على مناهضة الانكليز ومقاومتهم ، فهم أصل الشر والبلاء ، وهم العاملون على تنفيذ المطامع الصهيونية الخطيرة . وحين قال ابو سلمى عام ١٩٣٦ : (لو كان ربي انكليزيا دعوت الى الجحود) لمس الوتر الحساس في قلوب الجماهير الفلسطينية ونطق بلسانهم ، وعبر عن مشاعرهم المستفزة الغاضبة .

□□□

«جاءت العباية !.. جاءت العباية !..»

كانت هذه كلمة السر في شوارع نابلس وأزقتها . فحين تقع المدينة في مأزق أو خطر يأتيها من الخارج ، يقوم هناك حب «جماعي» بين النابلسيين يربط الناس بعضهم بالبعض الآخر ، وهذا نزوع طبيعي لدى الجماعة الواحدة في كل زمان ومكان ، فالخوف والمخاطر التي يحسّها الناس من العدوان الخارجي تثير في نفوس الافراد مشاعر مشتركة نحو العدوّ المشترك .

«جاءت العباية» .. «جاءت العباية» ! وتتردد كلمة السر في الاسواق والأزقة ، ويعرف الناس معها ان قوة عسكرية مداهمة في الطريق اليهم ، فيختفي من يختفي ويحتاط من يحتاط ...

أصبح اصطلاح «جاءت العباية» فيما بعد من ضمن تراث الثورة الشعبي في نابلس .

كانت نابلس ، كالخليل ، من معاقل المقاومة الصعبة ، ولقد جاء يوم اضطرت فيه السلطات الى نفض يدها من الحكم داخل هاتين المدينتين . لقد بلغ من عنف المقاومة ان ألغت المحاكم في نابلس ونقلت ملفاتها الى الثكنة العسكرية خارج المدينة[٣] .

□□□

الحكايات البطولية ، اخبار العنف والموت والاعتقالات والنفي والخيانات .. كل هذه كانت تخترق جدران الدار وتصل الى سمعي عن طريق الاخرين : اخوتي ، الجرائد ، النسوة الزائرات ، صبي اللحام والبقال واللبان وسواهم . وحين كانت أصوات المتظاهرين تأتينا من بعيد ثم تقترب شيئاً فشيئاً ، كنت أهبط الدرج ملتفعة الرأس بغطاء كبير يغطي وجهي والقسم الأكبر من جسمي ، وأركض الى الصفّة الحجرية في الديوان فأطل من أحد شبابيكها على السوق ، وتكون الصفة قد غصّت بالنسوة من القاطنين بجوارنا او المستأجرين . وحين أرى الجماهير الغفيرة الهائجة ، تغرورق عيناي أو يسيل الدمع على خدي . وقد ظللت فيما تلا من ايام حياتي أبكي وأحس بالتأثر العميق إزاء مشهد الجماهير المتراصة ، ولعل الدمعة التي كانت تسيل من عيني في مثل هذه المواقف انما كانت بسبب عجزي عن الاندماج في الاخرين والمشاركة الفعلية في الالتحام بهم . فما عرفت طعم هذا الاندماج ولا تعرفت على زخمه وحلاوة مذاقه الا

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . فالاحتلال الاسرائيلي أرجع اليّ الاحساس بنفسي ككائن اجتماعي . وفي ظل الاحتلال فقط ، حين رحت التقي بالجماهير في قراءاتي الشعرية ، عرفت القيمة والمعنى الحقيقي للشعر الذي يتعتّق ويتخمر في دنان الشعب .

□□□

أيقظتنا في منتصف الليل طرقات الجنود البريطانيين بأعقاب بنادقهم على باب دارنا . وحين قام أبي اليهم كانت قلوبنا تضطرب وأنفاسنا معلقة على حبل التوقع المتأرجح في الهواء : ماذا بعد ؟

كنا في اعماقنا نعرف ماذا يأتي بعد ، فحين كانت الابواب تطرق في مثل تلك الساعة من الليل كان يفهم المرء أن هناك عملية اعتقال .

ولم يرجع أبي .

في الصباح كان في طريقه الى سجن «عكا» مع الدكتور مصطفى بشناق وفائق العنبتاوي مقيدي الأيدي بالأغلال ، ليلتقوا هناك بالمئات من ضحايا القمع الجماعي .

ظلت علاقتي الشعورية بأبي تتأرجح بين الحيادية أيام السلام والعافية ، والحنو الغامر أيام السجن أو المرض .

□□□

مرت أيام ، أسابيع ، شهور ، والأحداث في عنفوانها المتقد . جاءتنا أنباء عن مرض أبي في السجن ، وكان رقيق البنية بطبيعته . استيقظت في سكون الليل . كان فراشي دافئا ، وبرد الشتاء حادا في الخارج «يقطع المسمار» كما يقولون في نابلس وقراها . مرت صورة أبي في خاطري مطروحا ، مريضا ، مؤرقا بين جدران السجن

الجليدية ، واكتسحتني موجة من الحنو العميق . كان إحساسي القديم بالضغط والكبت بسبب حضوره في البيت قد تلاشى تماماً ليترك مكاناً للوحشة والحنان والشجن .

كانت قطرات الماء في الخارج تتساقط من أوراق الشجر بايقاع منتظم كدقات الساعة . وكانت لحظة غريبة ، لحظة سايكولوجية في ذلك السكون الشامل ، رأيت فيها بعين الخيال قصيدتي التي لم أكن قد كتبتها بعد ، منشورة في إحدى صفحات مجلة «الرسالة» ، ورأيت ، بعين الخيال ، عنوانها بالخط الأسود : «الى أبي» !

وهربت اللحظة ...

لكن الصورة المتخيلة لم تهرب ، بل ظلت تسكن عيني على مدى أيام ، الى أن إصبحت صورة حقيقية تنبض على صفحة الشعر في مجلة «الرسالة» ، تلك المجلة التي طالما حلمت بالوصول اليها ، ولم تكن الطريق اليها سهلة المنال .

كانت تجربتي الشعرية في قصيدتي «إلى أبي» حصيلة كل ما تجمع في نفسي وتراكم من انفعالات منذ اشتعال الثورة عام ١٩٣٦ . ما أقل القصائد التي كتبتها بعد الهزة الانفعالية مباشرة . لقد ظللت أعجز دائماً عن نظم الشعر وأنا في حالة الفوران العاطفي . لقد اصبت بالبكم مدة شهرين كاملين بعد حرب حزيران ، واصيبت مقدرتي على كتابة الشعر بالشلل مدة شهور بعد مذبحة أيلول . بعد هدوء العواصف تعود اليّ القدرة على النظم . فهنا تبدأ القصيدة كالجنين الهلامي ، ولا أعرف في هذه المرحلة ماذا أريد ان أقول ، ثم ، وتدريجياً تجد الأفكار طريقها الى التبلور ، وبصورة غامضة جداً أجد نفسي أكتب أو سطر ثم الثاني ، بعدها يأتي الجهد الشخصي .

□□□

كان صاحب مجلة «الرسالة» ، أحمد حسن الزيات ، يرحمه الله ، يفتح

صدر مجلته للكتاب والشعراء البارزين الى جانب الكتاب المصريين . كانت الرسالة اوسع المجلات العربية انتشارا بين القراء العرب في مختلف أقطارهم . وكان «الزيات» يولي أدب الثورة الفلسطينية الاهتمام الجدير به . في هذه الفترة كانت مصر قد «اكتشفت عروبتها ونشطت في حركة النضال العربي» ـ ساطع الحصري ـ . ونتيجة للهياج الفلسطيني الغاضب في اعقاب مشروع التقسيم عقد مؤتمر القاهرة صيف ١٩٣٨ ، في ظل حكومة «الوفد» المتميزة آنذاك بحرارة شعبيتها . واشترك في المؤتمر نواب وشيوخ من برلمانات الأقطار العربية وممثلون عن الحركة القومية في المغرب الأقصى . كما عقد في مصر المؤتمر النسائي التاريخي باشتراك ممثلات من المنظمات النسائية في مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرق الاردن ومصر . وكانت القرارات في المؤتمرين تتضمن تأكيد وتأييد مطالب الفلسطينيين بتأليف حكومة قومية مستقلة ، ووقف الهجرة ومنع بيوع الأراضي[٤] .

بيّضت القصيدة التي سهرت عليها الليالي لاسبوعين شتائيين . ووقفت متهيبة مترددة امام رغبتي بمفاجأة ابراهيم بها منشورة في مجلة «الرسالة» التي أصبح حبي لها غراما. كنت أحس ان طموحي الى النشر في تلك المجلة يتجاوز حدودي الأدبية الضيقة الرقعة ، فالزيات لم يسمع باسمي الا مرة واحدة ، وذلك يوم نشر لي قبل شهور تعقيباً ـ بالنثر ـ على مقال كنت قرأته في مجلته تحت عنوان (هل في الحيوان غريزة الغيب) . كان المقال مناسباً لأتخذ منه جسراً للتعبير عن مشاعري الفلسطينية انذاك . فكتبت تعليقاً عليه تحدثت فيه بعاطفية شديدة عن سكون الليل الموحش الذي كان يكتنف «جبل النار» قبل عودة هبوب الثورة عام ١٩٣٧ ، وكيف كانت بنات أوى ترسل في الجبل ولولتها الموحشة وكأنها انذار بما سيقع من ماس ، وبما سيسقط من ضحايا العدوان والتنكيل بجموع السكان . ثم تحدثت كيف صدقت غريزة ذلك الحيوان في احساسها المسبق بما وقع بعد ذلك من

ماسي الاستشهاد البطولي .

وحين ظهر تعليقي في مجلة «الرسالة» لم اكد أصدق عيني . وظللت لأيام عديدة ، أعود الى قراءته في المجلة فأستعيد الاحساس بالغبطة والسعادة بما حققت من انجاز أدبي «كبير» ... كانت هذه البداية منطلقاً للذهاب بطامحي الى مدى أبعد . وأصبحت أحلم برؤية قصائدي منشورة في مجلة «الرسالة» ذات السمعة الادبية في العالم العربي كله .

لم يطل ترددي ، وتجاوزت تهيبي . فقررت تجربة حظي . وقبل اطلاع ابراهيم على القصيدة بعثت بها الى «الرسالة» ، ورحت اعد الساعات واستعجل مرور الليالي والأيام .

للمرة الاولى دائما مذاقها الخاص ونكهتها التي لا تعود بالتكرار .

لقد توهج اسمي في عيني حين رأيته بين الأسماء الادبية اللامعة المدرجة في فهرس أحد اعداد مجلة «الرسالة» ، أوائل عام ١٩٣٩ .

فوجىء ابراهيم بالقصيدة ، وكان يشغل إنذاك منصب مدير القسم العربي في اذاعة فلسطين بالقدس . بعث اليّ برسالة بريدية قصيرة بدأها بقوله «يا أم التمام» .. ثم هنأني على القصيدة «الجيدة» ، وقال ان الاستاذ اسعاف النشاشيبي والاستاذ خليل السكاكيني واخرين قد حدثوه بشأنها وكلهم يثني عليها أطيب الثناء !

وبكيت فرحاً !!.

□□□

اشتد مرض أبي فنقل الى مستشفى في عكا ، وبدأ أخي أحمد ، الذي كان قد عاد من عمان الى منصبه في دائرة المعارف بالقدس ، بدأ يسعى للافراج عن ابي . وقيل له ان إمكانية الافراج مشروطة بتقديم مبلغ معين الى واحد من المسؤولين الانكليز انذاك .

حين ذهب أحمد لتقديم الرشوة وجد ان المسؤول المرتشي كان زميلا له أيام الدراسة في جامعة اكسفورد بانكلترا . ولكن هذه

المفاجأة لم تغير من الأمر شيئاً ، فقد تناول الموظف الانكليزي المبلغ المعيّن وتبادل الاثنان كلمة الشكر الانكليزية «الشهيرة» بل «المشهرة» .. وانتهى الامر .

خرج أبي بعد أيام من مستشفى السجن منفياً الى مصر دون السماح له بزيارتنا في نابلس قبل الرحيل .

□□□

ظهرت على امتداد الثلاثينات وجوه عديدة جديدة لشعراء فلسطينيين شبان راحوا يعطون نتاجهم الشعري الهادف ، المعبر عن وعي قومي وإحساس بالمسؤولية الوطنية . وقد عمل الشعر ، بنوعيه ، المكتوب منه بالفصحى والمكتوب باللهجة العامية ، عمل جنباً الى جنب مع الصحافة وأنواع الانتاج الأدبي الاخرى على ايقاظ الوعي الوطني والسياسي لدى الجماهير في المدن والقرى على السواء ، مما فجر الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ . كان وعد بلفور والهجرة اليهودية وتمجيد البذل والفداء من اجل الحفاظ على الارض ، كل هذه وسواها كانت المحور الذي تدور عليه قصائد شعراء الثلاثينات بغض النظر عن التفاوت في مستوياتها الفنية وأصالتها الشعرية . لقد كانت هناك دائماً رابطة قوية بين الشاعر الفلسطيني وحركة النضال ، وما كان الشاعر الفلسطيني الا نتاج واقع نضالي وفاعلاً مؤثراً في ذلك النضال في الوقت ذاته .

من سوء حظي انني خلقت ، او ربيت ، على المبالاة بما يقوله الآخرون عني . وهكذا ظللت حريصة بين الجماعة على ان اعبر عن نفسي بغير ضجيج او ادعاء . ولقد بلغ من شدة حساسيتي ان اتخذت لي دائما قناعا يخفي عن الآخرين ما تضطرب به روحي . وكان هذا القناع سلاحا ضد الفضول الجارح سابر الأغوار .

للنابلسيين قوانينهم الاجتماعية الخاصة ، ولكي يرضى عنك الناس يجب عليك المحافظة على تلك القوانين . وكان أهمها الا تتخذ بين الجماعة الموقف الذي يظهرك أكثر معرفة والا فأنت المغرور المدعي البغيض الى النفوس . ان الانتقاد التهكمي اللاذع صفة عامة للنابلسيين . لذلك لم أسمح لنفسي ان تفرض نفسها على الآخرين بالحديث عن موضوعات بعيدة عن اهتمامهم ، وفقدت الرغبة في الجدال والأخذ والرد . وفي اكثر الحالات كان تواصلي مع الناس مجاملة دون أن اقترب منهم اقترابا قلبيا .

في الفترة ما بين الثلاثينات والاربعينات لم يكن يسمح لي بالخروج من المنزل الا بصحبة بعض أهلي ـ أمي مثلا أو عمتي واخواتي وبنات عمي . لم يكن هناك من متنفس غير الزيارات . ولم يكن هذا الجو يستهويني على الاطلاق ، ولكني كنت اضطر

لمصاحبتهن احيانا رغبة في الخروج من ضغط الجدران العالية ولو لساعتين من الزمن . وعلى أية حال لم يكن يسمح لأمي ولنساء العائلة الاخريات بالخروج من البيت أكثر من مرة في الشهر او الشهرين .

كانت الصفة العامة للنساء في ذلك الحين هي أمية العقل ، ولم يكن تحصيل من يعرفن القراءة والكتابة ليتجاوز مرحلة التعليم الاولى . كانت هناك قلة قليلة من أكملن دراستهم في (دار المعلمات) الحكومية في القدس ، وكان أعلى مستوى في دار المعلمات هو الصف الثاني الثانوي .

كان لفئة معلمات المدارس في نابلس وغيرها من مدن فلسطين قيمتها الاجتماعية واحترامها في عيون سكان البلد . فكانت المعلمة تمتاز دائما بالثقة بالنفس والاعتداد بالذات . ولقد شكلت المعلمات في نابلس فئة اجتماعية معينة ، وأصبح الانتماء الى هذه الفئة قيمة تتطلع اليها كل فتاة طموحه . لقد عرفت الفتاة المعلمة لأول مرة شيئا من الاستقلال الاقتصادي ، وأصبحت تشارك أباها أو اخوتها في القيام بتكاليف معيشة الاسرة . وكفاها انها لم تعد عالة على أهلها ، بغض النظر عن كونها أصبحت عنصرا اقتصاديا مساعداً في البيت .

على أن ذلك لا يعني انها تحررت من المفاهيم الاجتماعية المتخلفة والسائدة ، فقد ظلت ترضخ لمجتمع التحفظ والتقاليد والتبعية للرجل ، لأن درجة تعليمها كانت محدودة جدا فلم تبلغ مبلغا يغير شخصيتها الى حد الاستقلال الشخصي والثقة بطاقاتها وإمكانياتها . لقد ظلت في جو حماية الرجل والاتكال عليه : حتى شريك الحياة لم يكن لها الحق في اختياره . كما انها ظلت تحت رحمة الاخ حتى لو كان عاطلا ولا خير يرجى منه لنفسه او للعائلة او للمجتمع .

ولكن على أية حال ظل وضع المعلمة أفضل بكثير من وضع سواها ، مما أوجد في نفسها احساسا بالتفوق في المجتمع النسائي الذي يحيط بها ، وكان هذا الاحساس يؤثر على سلوكها الاجتماعي

ويلونه بألوان الغطرسة والغرور والتخايل بالشخصية .

في ذلك العهد لم تكن للمعلمات صلة ودية مع الكتب خارج نطاق المدرسة . ولم يكن يعنيهن تثقيف أنفسهم بالمطالعة الجادة ، بل كان اهتمامهن مصبوبا على الملابس الانيقة وتجميل المظهر الخارجي ، فقد كن من ناحية اقتصادية قادرات على اشباع حاجتهن المادية .

وهناك ، بالتأكيد ، استثناء يشذ عن القاعدة دائما ، ولكنه لا يغير من الحقيقة والواقع بصورة عامة .

هذه الفئة من المعلمات غير القارئات كانت تلقاني بروح غير ودية ، وأحيانا بروح عدائية ، ما عدا واحدة من اللواتي خرجن عن الصورة العامة ، وتفردن بطلب المعرفة وتثقيف الذات وكانت (ست فخرية الحجاوي) معلمتي السابقة في مدرسة العائشية ، والتي كانت دائما تخصني باهتمامها ورعايتها لي في المدرسة وخارجها .

كانت (الست فخرية) تفرح بما تقرأ لي في الصحف ، وبالذات في مجلة «الرسالة» المصرية ، وكانت تملأ نفسي وتفعم شعوري وهي تشجعني وتثني على تقدمي في مسيرتي الشعرية . كنت حين التقي بها لا أجفل من التحدث اليها عن كتاب قرأته أو قصيدة نظمتها ، اذ كنت أجد عندها تجاوبا واصغاء مرهفا يبعث في نفسي وهجا لطيفاً وغبطة عميقة .

باستثناء (الست فخرية) كان ذلك المجتمع النسوي المميز ، مجتمع المعلمات ، يجرح شعوري ويواجهني بمشاعر سلبية تعلن عن نفسها باللقاء غير الودي والمتغطرس الذي كنت ألقاه منهن .

كانت الألسنة الحادة تقول دائما : أخوها ابراهيم يكتب لها الشعر ويذيله بأسمها .

حتى بعد وفاة ابراهيم ظلت تلك المشاعر السلبية قائمة تجاهي ، وكان ذلك الجو العدائي يؤلمني أشد الايلام . ولم أكن أدرك يومها ان كل نجاح يحققه المرء لا بد من دفع ثمن له ، حتى بين الأهل والعشيرة .

زمّار البلد لا يطرب .. وهذه حقيقة نفسية عرفتها فيما بعد ، وأحنيت لها رأسي ، وغضضت الطرف .

تلك هي صورة المجتمع النسائي الذي كان يحيط بي في بلدتي خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن . مجتمع برجوازي غير قارىء ، كنت أبدو في نظره مخلوقة شاذة ، غير اجتماعية .

واتسعت الفجوة بيني وبين المتجمع النسوي ، فلم يكن بمستطاعه ان يعطيني شيئاً أو ان يأخذ مني شيئاً . كان مجتمعاً لاذع اللسان يثرثر كثيرا جدا . والثرثرة رمز التخلف في المجتمعات التي لا تقرأ ، وكان عليّ ان ادرك ان الدنيا كانت تدور على عادتها قبل ان أكتشف عالم الكتاب الجميل الخصيب ، ولكن لم أدرك ذلك في تلك الأيام ، ولو أدركته لضاقت الفجوة بيني وبين ذلك المجتمع النسائي البائس .

على الرغم من كون الثورة الفلسطينية التي امتدت ثلاث سنوات (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) كانت تستهدف قوات الانتداب البريطاني وترتكز على مناهضة الانكليز ومقاومتهم ، على الرغم من ذلك فان شراسة القوى الصهيونية لم تتوقف عن تسديد هجماتها على عرب فلسطين في أنحاء البلاد المختلفة . بلغت هذه الشراسة ذروتها في تموز عام ١٩٣٨ ، حيث تصاعدت حوادث تفجير القنابل في الاسواق العربية في القدس ويافا وحيفا ، مما نتج عنه مقتل العشرات من المواطنين العرب .

في أيار ١٩٣٩ صدر الكتاب الأبيض مشتملا على تفسير معنى الوطن القومي اليهودي جاء فيه : «ان بريطانيا لا تفهم من عبارة إنشاء وطن قومي يهودي ، التي جاءت في وعد بلفور ونظام الانتداب ، تحويل فلسطين الى دولة يهودية»[١٥] .

ومن هنا بدأت أعمال الارهاب الصهيوني تنصب على الانكليز والعرب معا .

***

كانت مصلحة الاذاعة الفلسطينية قد انتقلت حديثا الى مبناها الجديد في حي المصرارة في القدس . المبنى ضخم بطابقين ، نظمت اجزاؤه من

الداخل تنظيما جديداً بحيث تكون صالحة لأحدث ما تقتضيه محطات الاذاعة .

التاريخ ٢ آب عام ١٩٣٩ ، والوقت عصر الاربعاء .

ابراهيم والمذيعان توفيق ابو شريف ومحمد بشناق يتنقلون من غرفة المهندس الى الاستوديو ومن الاستوديو الى غرفة المهندس للتحقق من الأصوات الغنائية والموسيقية ، فهناك برنامج معقد يشترك فيه واحد وعشرون طفلاً عربياً مع مدربهم ، وكلهم يتمرنون على البرنامج بمساعدة المهندس اديب منصور ، ولا احد من هؤلاء يعلم أنه يمشي على أرض يكمن تحتها أفظع انواع المواد المتفجرة .

ابراهيم ينزل الى غرفته في الدور الاول لانجاز ما تأخر من أعماله . محمد بشناق مع الأطفال في الاستوديو في الطابق الثاني ، التمرين لا يزال جارياً ، الساعة تدق الخامسة ، مع دقاتها تفتتح الاذاعة المسائية ، كالمعتاد ، باللغات الثلاث : الانكليزية فالعربية والعبرية .

ابراهيم في غرفته ومعه المذيع توفيق ابو شريف . في الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة عشرة يسمعان صوت انفجار قوي لم يخطر لها انه في الاذاعة ، ذلك أنه حدث في إحدى الغرف الصغيرة التي يذاع منها ، وهذه الغرف تكون محكمة الاغلاق ، ذات جدران مانعة لتردد الصدى . لكنهما سرعان ما يسمعان الضجة في القاعة .

يخرجان ليواجها محمد بشناق ممتقع اللون والأطفال حوله في ذعر شديد .. محمد يقول : حريق .. حريق بسبب احتكاك كهربائي . لحظات .. المهندس أديب منصور ومعاونه ينزلان من الدور الثاني حاملين المذيعة الانكليزية مشز وايزنبرغ .. المهندس ومعاونه يعودان الى الدور الثاني .. الجريحة تنقل الى غرفة المدير .. ابراهيم يبقى معها وأحد المساعدين .. هي تسأل عن رجليها وابراهيم والرجل الآخر يهونان عليها الامر وينفضان عن وجهها الغبار والعفار .. الجريحة تشرف على الاغماء .. ابراهيم يهرع الى الخارج طالباً بعض الماء فيما

هو ممسك الباب بيده منعاً لدخول أحد .. مع تناول ابراهيم لزجاجة الماء من الخادم يهتز مبنى الاذاعة بانفجار أخر .. السقف فوق رأس ابراهيم يتمزق .. على قيد خطوات منه تهبط قطعة كبيرة من السقف على عدة (بدالة) التلفون فتحطمها .. ابراهيم ينظر حوله فيرى اولئك الاطفال يكاد يحيق بهم البلاء .. يدفعهم هو ومحمد بشناق الى خارج المبنى .. أحد أفراد حرس المبنى البريطانيين يحاول منعهم من مغادرة الساحة السماوية الى الطريق .. ابراهيم ومحمد يتغلبان عليه .. يفتحان الباب غصبا .. الحارس لا يزال يحلق عليهما يريد منعهما .. انفجار أخر .. يتبعه انفجار أخر .. الحارس يدرك الان خطر الموقف .. ينشغل بخلاص نفسه .. انفجار أخر يطلق معه أديب منصور صرخة شديدة .. رجلاه تنسحقان من اعلى الفخذين .. سيارات الاسعاف تقبل مسرعة .. الاحتياطات السريعة للوقاية من الخطر .. لا أحد يعلم ان كان قد انتهى ذلك البلاء ام ان هناك بقية تأتي .. ابراهيم يخطر على قلبه طفلاه جعفر وعريب .. يجد للحياة حلاوة .. يسرع الى بيته مبخوعاً ذاهلا ..

- : ماذا عن اليهود العاملين في القسم العبري ؟!
- : اتضح ان المبنى كان خاليا وقت الانفجارات من كل الموظفين اليهود !!..

***

كانت أعماقي ترتعد فيما ابراهيم يقص علينا حكاية اللحظات الرهيبة . أما أمي فكانت تقطع لحم الذبيحة لتوزع فيما بعد على فقراء «حي الياسمينة» فداء لابراهيم ، وكان وجهها المبهوت مخضلا بالدمع .

***

عام ١٩٣٩ يودع الخريف ، وموسم الشتاء يعد بعطاء سخي ..

وابراهيم يطل علينا في عطلة قصيرة .

- كيف مسيرتك الجديدة مع معلمتك الجديدة ؟
- توقفت المسيرة قبل ان تبدأ ..
- لماذا ؟
- كما تعرف .. أوامر !
- هيئي نفسك للسفر معي غدا ..

ومضيت اعد حقيبة الملابس ، مبهورة الانفاس ، ما كنت احلم بهذا أبدا .

***

كانت انعطافة جديدة في حياتي لم يسبق لها مثيل منذ بدأت رحلة الشعر . كانت نقطة انطلاق بدأت فيها شخصيتي تمتد الى الخارج لأول مرة . فالى جانب التحاقي بمدرسة مسائية لتعلم اللغة الانكليزية في جمعية الشبان المسيحية بالقدس ، رحت أشارك في تقديم بعض الاحاديث الاذاعية والتمثيليات والانشاد مع فرقة الاناشيد في الاذاعة ، كما نظمت عدة أناشيد لحنت وأذيعت ضمن بعض البرامج . حدثني ذات يوم الفنان محمد كريم ، عازف البزق ، عن لحن وضعه بأسم «البنفسجية الذابلة» وسألني وضع كلمات لأغنية بهذا الاسم ، ففرحت فرحاً عميقاً ، وقدمت اليه بعد أيام كلمات الأغنية ، فكانت من أجمل أغانيه التي كانت تذاع من دار الاذاعة الفلسطينية بصوته بالذات :

ذوي شبابي وجف عودي　　والعمر ما زال في الربيع
آها لعمري الغض الجديد　　أوديت به حرقة الولوع
يا منية النفس ادن مني　　تعد نضير الصبي اليا
تعد لروحي الحياة أني　　بلمسة من يديك أحيا

مالت برأسي آلام نفسي
اذ فات عمري ومات عطري

الخ ...

كنت فرحة بعالمي الجديد ، سعيدة ببعدي عن نظام الاسرة الصارم وعن الوجوه التي لم اكن احبها ولم تكن تحبني . كان جناح ابراهيم ينبسط على أيامي دافئاً حنوناً .

الى جانب هذا كله كانت هناك المكتبات العامرة ، ودور السينما ، والحفلات الغنائية العامة التي كانت تقيمها الاذاعة ، فيتهافت على حضورها الجمهور العربي في القدس . وكانت هناك سهرات الادب والفن الخاصة في بيت ابراهيم أو في بيت يحيى اللبابيدي مدير قسم الموسيقى في الاذاعة ، وذلك حين تستضيف الاذاعة أديباً أو موسيقاراً من احد البلدان العربية .

كان المجتمع المحيط بي مجتمعاً متحرراً ، تتمتع فيه المرأة الحديثة بشخصية لم تضعفها صرامة الرجل وفظاظته ، يبدو ذلك واضحاً في لباسها ، وحديثها ، وسلوكها الطبيعي في مجتمع رفع الحجاب الحاجز بين الجنسين ، وأتاح للمرأة الشابة قسطاً أكبر من التعليم .

في هذا الجو الفسيح ، جو الانطلاق الصحي ، شعرت بفوحان الحياة لأول مرة ، وعرفت راحة النفس ، وهدوء البال ، وطعم الحياة التي غابت عنها الوجوه العابسة والنظرات المتعدية . ومما ساعد على ايجاد التناسق والتناغم في عالمي الجديد كون زوجة أخي ابراهيم سيدة لينة الطبع ، هادئة . لم تكن «أم جعفر» بالمرأة الغيور أو المتسلطة . كانت سيدة جميلة ، واثقة من نفسها ، تتفهم تعلقي بابراهيم وتتقبل محبته لي بل لنا جميعاً ، نحن أمه واخواته واخوته . ما شعرت يوماً انها تضيق باهتمامه بي ورعايته الخاصة لي . وهكذا فقد توفر لي أثناء إقامتي في القدس جو خلا فيه التعامل معي من أساليب التسلط ومحو الذات . لقد حفظ لي ذلك الجو المعافى وجوداً شخصياً ، مستقلاً ، لم يكن ليتاح لي لو لم تكن «أم جعفر» تتميز بتلك الصفات

الجميلة والطباع الرضية .

في الربع الاخير من عام ١٩٤٠ ، وفي اكتوبر بالذات اقيل ابراهيم من عمله في الاذاعة . وكانت وراء هذه الاقالة عوامل عدة . فمنذ اضطلاعه بإدارة القسم العربي فيها وقف اليهود بالمرصاد . لم يكن يسعد الجهات الصهيونية إطلاقا وجود مثل ابراهيم في مؤسسة ذات خطر كبير في توجيه الرأي العام العربي في فلسطين . كان ابراهيم في نظر تلك الجهات عنصراً محرضاً ، يتخذ من مركزه الكبير في الاذاعة أداة للعمل ضد المصلحة الصهيونية . كم وكم ثارت الصحافة العبرية ضده وكم وجهت اليه إصبع الاتهام بسبب الأحاديث التي كان يكتبها ويذيعها ، أو الأحاديث التي كان يدرجها في البرنامج العربي لأدباء فلسطين ممن كانوا يساهمون في تقديم مختلف الموضوعات الأدبية والاجتماعية والدينية .

كان هناك دائماً تفسير أو تخريج سياسي لما يذاع من أحاديث ، فكانت تلك الجهات اليهودية تشكل من القصة البسيطة شعوباً ودولا ، وحكومات وانتدابات . كما كانت ترى في الأحاديث الأخلاقية تحريضاً تحت قناع ديني . أما الدعاية فكانت في رأيها مبثوثة في الموضوعات التاريخية . وأما الأحاديث النبوية والأمثال المشهورة ففيها الخطر كل الخطر ، حيث يطلب خلالها من الامهات ان ينشئن اطفالهن بعضلات قوية ، ومنشأ الخطر على زعمها هو ان تلك التنشئة القوية انما يقصد من ورائها المقدرة على المقاومة في المستقبل ! وهكذا كانت توضع في الميزان معظم أحاديث القسم العربي ، فيناقش ابراهيم فيها ويحاسب عليها[6] . وكان هذا يجري مزامناً لمراسلات يتحدث فيها (وايزمن) الى وزير المستعمرات البريطاني عن وجود ٤٠ ألف مقاتل يهودي في (الهجانا) كان قد تم تدريبهم[7] .

أما الموضوعات التاريخية التي كان يقدمها ابراهيم فكانت في رأي الصحافة العبرية تهدف الى الدعاية ضد السامية . قالت احدى

صحفهم بهذا الصدد : «بلغت (حرية الكلام) في فلسطين الى حد أن مصلحة الاذاعة الفلسطينية أذاعت أمس حديثا ضد السامية ، وقد كان المحاضر ساميا ، وقد أذيع البغض لاسرائيل بلسان سامي أيضا . أما السامي فليس رجلا عاديا ، فهو موظف من الدرجة الأولى واسمه ابراهيم طوقان ، المساعد العربي لمدير البرامج في مصلحة الاذاعة الفلسطينية» . ثم تطرقت الصحيفة الى موضوع الحديث وكان حول قصة السموأل مع امرء القيس من جهة ، وقصيدة الاعشى في مدح شريح ابن السموأل من جهة اخرى .

وفي اليوم الثاني تطرقت صحيفة أخرى الى الموضوع نفسه فقالت « ان التمويه المتعمد في القصة العربية ، لأن شاعراً يهوديا مدح فيها ، هذا التمويه المتعمد ذو أهمية ، وهو مخيف في وضعه (وبيانه) الحديث وهو أشد خطراً من قتل بضعة أشخاص بقنبلة خطيرة . ان هذا ليس قلباً للحقيقة التاريخية فحسب ، وإنما هو دعاية لهذه القنبلة . ولم تكن الحادثة هذه فريدة في بابها ، فابراهيم طوقان مدير القسم العربي في مصلحة الاذاعة الفلسطينية قد سبق له أكثر من مرة - دون أن يخطر في بال أحد تتبع عمله بنظام في مصلحة الاذاعة - ان قبض عليه متلبسا بحوادث دعاية ضد اليهود ، يسبغ عليها ثوبا شفافا من القصص الشائعة ، ولنا ان نقول أن المراقبة الدقيقة تكشف خيانات أكثر قد ارتكبت في هذه الأداة القديرة على نشر التعليم ، هذه الأداة التي تحمل حكومة فلسطين كامل مسؤوليتها . وبدلا من ان يكون راديو الحكومة لمثل السلام الأعلى ولأحاديث التهدئة ، فقد وضح الآن أنه ينشر البغضاء والتهييج بكلام عربي . فهل يدعى المدير العربي لمناقشته الحساب ، أم يظل سائرا في أعماله بأمان ؟» .

حين دعي ابراهيم من قبل الجهات الحكومية المسؤولة لمناقشة الحساب رد على ذلك بقوله : «ان السموأل واحد من شخصيات عديدة في الادب العربي ، كانت ، ولا تزال ، موضع أخذ ورد في

الأوساط الأدبية ، لا بل ان هذا الدور من تاريخ الادب له من ينكره انكاراً باتاً ، ويعده من الأساطير التي لا تستند الى أساس ، والسبب في ذلك كون تاريخ الأدب في أدواره الأولى ، والتي نحن بصددها ، مأخوذاً من ألسنة الرواة ، يتناقلونه بزيادة ونقصان ، فيكون تحت تأثير عوامل شتى ، منها القوة على الحفظ وتفاوت درجاتها ، ومنها عصبية القبائل ، منها رواج سوق الرواية ، والتكسب بها عند الخلفاء والأمراء ، مما يتطلب دوام المادة وتجديدها ، فشجع كثيراً من الرواة على الانتحال والاختراع في القصص والشعر والأخبار . وعندما جاء دور التدوين تجمع في كتبنا ركام من هذا التراث ، نجد في تضاربه واختلاف مصادره باعثاً ملحاً على الاستقصاء العلمي ، وداعياً الى النشاط في الكشف عن صحيحه وزائفه . والتحقيق في نصوصه والتعليق عليها .

وعلاقة السموأل بتاريخ الادب العربي وبأعظم شاعر في الجاهلية ، تخول كل متخصص بأدبنا وتاريخه أن يتحدث عن أي شاعر أو أديب بقطع النظر عن قوميته ودينه ، فاختياري السموأل أدبي وتاريخي ، وبحثي فيه علمي سُبق لي مثله في عدة أبحاث ابتدأت بها في عهد دراستي في جامعة بيروت الأمريكية . وكانت خطتي أن أتناول حياة الشاعر وما يتعلق بها من روايات مختلفة وأنظر في آثاره ، فأخرج له سيرة منظمة ، مبنية على نقد علمي خالص ، متبعاً أساليب البحث الحديثة ، وأذكر من هؤلاء الشعراء العباس بن الأحنف ، وديك الجن الحمصي ، ومحمد ابن مناذر ، وسبط بن التعاويذي ، والسريّ الرفاء ، وقد أذعت طرفاً من حياتهم ونماذج من شعرهم . والسموأل من هؤلاء ، والبحث في حياته لا يخرج في طريقته عن الأبحاث في الشعراء المذكورين .

لقد عني بالسموأل نقاد ثقاة ، أذكر منهم الأب لويس شيخو اليسوعي ، وروحي بك الخالدي المتوفي سنة ١٩١٤ . وكان البحث في مجلات محترمة كالمشرق والمنادي ، وكتب معروفة منها «شعراء

النصرانية» .

ودار البحث حول يهودية السموأل فأثبتها الخالدي وأنكرها الأب شيخو . كما أن التحقيق يضعف شأن الرواية المنقولة عن علاقة امرىء القيس بالسموأل ووقف مترددا في قبولها .

ان الصحف العبرية لم تكن منصفة بأخذها (نتيجة البحث) دون البراهين التي أدت الى هذه النتيجة . ولو أنها تجردت عن الغرض لرأت انني تناولت امرؤ القيس أعظم شعرائنا وأخلصهم للعروبة ، بنقد صارم وقسوة لا رأفة فيها ، فبيّنت مواضع الضعف في أخلاقه ، وذهبت الى أنه تامر على أمته في قصده ملك الروم ، وقد اتهمته بالخيانة العظمى للجوئه اليه لينصرد على بني قومه من العرب . أما الثقة الذي رجعت اليه في التعليق على السموأل فهو أبو الفرج الاصبهاني . صاحب كتاب الأغاني ، وقد ورد ذكره في الحديث المذاع» .

***

ثم كانت الحرب العالمية الثانية ، وكانت الرقابة . وقام بعض المشرفين عليها من منافسيه العرب بالتحريض عليه لدى السلطات البريطانية ، وقام الدس ، وكان دسا لنيا فاتهم بتسريب الدعاية في برامجه ضد الحلفاء .

وأقيل من مصلحة الاذاعة الفلسطينية ليأخذ منافسه مكانه .

غادر ابراهيم الوطن مع عائلته ليعمل في حقل التعليم في العراق . وعدت الى نابلس حزينة لما آلت الحال اليه ، شديدة القلق على ابراهيم ، هل ستحتمل صحته العليلة مناخ العراق القاسي ؟

بضعة شهور ، ومرض ، وعاد الى نابلس ، ومات .

وانكسر شيء في أعماقي ، وسكنتني حرقة اليتم .

***

منذ الطفولة والخوف يرافق مسيرة حياتي . يد عمياء ، لاهية ، تضرب يمينا وشمالا ، ولا أحد بمنجى . قد ينهار السقف فجأة ، قد يغرق هذا الجبل في السهل بهزة مفاجئة ، قد تهوي على الرأس مطرقة يحملها صوت ناع ينعي حبيبا من الأحباب .

قلبي مرتعد بالخوف
أبداً مرتعد بالخوف
أبداً تحت تحكّم جسر يتكسر
أبداً أرضي تهتز ، تميد تدور بلا محور
من ينقذني من هذا الخوف ؟

***

ظل حبي لابراهيم مصدر كآبة باطنية رافقت تعلقي به طيلة حياته القصيرة . كان شعوري بالسعادة لوجود هذا الأخ الحنون في حياتي يهزني أحياناً بما يشبه الحزن ، وذلك من فرط خوفي عليه من موت مبكر . كان زلزال نابلس الفظيع عام ١٩٢٧ هو الذي زرع في قلبي الطفل المتعلق بابراهيم الخوف عليه باستمرار من الموت . ففي ذلك اليوم الذي لا ينسى إنهار سقف الغرفة التي كان يقيل فيها لحظة الزلزال ، لكن الصدفة شاءت أن يكون سريره بعيدا عن الجزء المنهار ، فنجا من الموت ليمتد به العمر أربعة عشر عاماً أخرى .

لا أزال أحتفظ حتى اليوم بأشياء صغيرة كان يملكها ابراهيم أو أخي نمر الذي اتجهت اليه مشاعر التعلق والحب بعد وفاة ابراهيم : جزدان جلدي صغير ، مفكرة جيب ، رباط عنق ، مشط صغير ، دفتر يشتمل على عناوين وأرقام تلفونات ومواعيد لقاءات .. الخ ..

لا أزال أحتفظ بهذه الأشياء وسواها ، ألمسها بحزن وحب ، وكأنني أحاول ابعاد الفناء والبلى عن الأحبة باحتفاظي بأشيائهم الصغيرة والابقاء عليها حية في خزانتي .

(للاحياء أرض ، وللأموات أرض ، ولا يصل بينهما الا الحب)
ثورنتون وايلدر .

ظلت عقدة السجن كامنة في أعماقي . ان عقدنا الطفولية تتحكم بنا طوال حياتنا ، يذهب الذين ولّدوها فينا ، وتكر الأيام والأعوام ، وتبقى هي في داخلنا قابعة هناك تحكمنا وتوجه خطواتنا .

لم يكن بمستطاع ارباب العائلة تحمل تلك الحقيقة البديهية ، حقيقة أن المرأة انسان يشعر ويتوق الى الحياة والفرح مثلما يتوق ويتطلع أي كائن بشري آخر . ليس هناك قوة تستطيع ان تقهر او تمنع القانون الطبيعي عن العمل . ولقد كان تحديهم للطبيعة البشرية يضخم تلك الطبيعة في ذاتي ويدفع بها الى التفجر ، لكنها كانت تصطدم بالسدود القائمة ، وهنا كان يحصل نوع من الهزة يشبه زلزال البركان .

ودعت آفاق القدس الفسيحة وعدت الى نابلس لتستقبلني الوحشة القائمة بيني وبين أهلي وقد زادها سفر ابراهيم ثم موته المبكر ترسيخاً وعمقاً . عدت اوغل في هجرتي النفسية ، في الرحيل داخل الذات . ان الشيء الأكثر أهمية هو ما يحدث فينا لا ما يحدث لنا . لقد أصبح الحزن منذ الان هو العنصر الأساسي في حياتي ، يربض في الأعماق وحشاً حزيناً متوحداً .

في تلك الأيام ظل البعد النفسي الذي يفصلني عن ابي شاسعا ،

وظل الصمت هو لغتنا المشتركة التي عمقت ذلك البعد لا سيما بعد تلك العاصفة الغاضبة التي أثارها في وجهي ساعة دخل الغرفة ذات يوم ووجدني متلبسة بجرم تدخين السجائر .

الان ، وأنا استرجع موقف أبي الجاف مني بالذات ، لا أجد الا تفسيرا واحدا لإبقائه ستار الكلفة مسدلا بينه وبيني . فلعل بروزي في العائلة بشخصية جديدة مغايرة للمألوف جعله يخشى من ان يؤدي بي ذلك الى الجموح والخروج على الثوابت ، فجعل من التحفظ والجمود تجاهي عنانا يكبح به تطلعي الى التحول والتجاوز أكثر مما ينبغي لفتاة تنتمي الى أسرة مسرفة في المحافظة . كانت الطابعيّة في البيت هي القالب الذي يصبون فيه شخصية البنت ، فقد كان الطابع الواحد مفروضا على اناث العائلة .

في مثل ذلك المحيط وتلك الظروف كان من الصعب ان تنمو قدرتي على التمرد الفوري ، اذ لم يكن التمرد او الجموح من مكونات شخصيتي . كنت أحيانا افكر بالهرب بحثا عن الخلاص من العذاب والألم . غير انه كان لديّ رقة قلب بالغة تجاه شيخوخة أبي بالرغم من كل شيء ، فما ملكت يوما القلب القاسي الذي لا يبالي بآلام الآخرين في سبيل نزعاته ومطامحه الكبيرة . وهكذا لم يكن أمامي الا الانعزال الكامل في قلب العلاقات البشرية المتشابكة من حولي والهروب من زمني البائس الى الزمن الرواني حينا وأحلام اليقظة والشعر حينا اخر .

كان الواقع المعاش في ذلك (القمقم الحريمي) مذلا مهينا ، حيث تعيش الأناث وجودها الهزيل القاتم . كنت التفت حولي فلا أرى الا ضحايا بلا شخصية ، بلا كيان مستقل ، يقبعن في بيت يتعجل فيه الرجل شيخوخة اخواته وبنات عمه ، متخذا من القهر وسيلة لذلك التعجيل . ضحايا لم أعرفهن الا عجائز ، عجزت الواحدة منهن منذ الخامسة والعشرين من عمرها ؛ لم أعرفهن الا في ثياب التبتل والتقشف ، يغطي شعرهن المنديل الأبيض فيما هن قعيدات الجدران

المحيطة . ليس لهن صديقات . ليس لهن حياة خاصة . صبايا بشعر شائب ووجوه جعدها الكبت قبل الأوان . كان تزويج البنت من رجل غريب يتعارض وتقاليد العائلة . فاما ابن العم شقيق الأب ، او البقاء على العذرة حتى القبر .

كانت وحدتي النفسية قاسية ضمن هذا الواقع . كما كان وجودي داخل ضجيج الأصوات والجلبة التي لا تهدأ شيئا غير محتمل . فمنذ الطفولة ظلت الضوضاء عملية تعذيب لي . لم أملك في تلك الأيام حياتي الخاصة . ولقد مضى وقت طويل قبل ان استقل بغرفة خاصة بي لم تنجني مع ذلك من البقاء في قلب الضجيج حيث (ليوان) الجلوس المشترك والساحة السماوية المشتركة والمطبخ الكبير المشترك «ومنقل» النار المشترك في ليالي الشتاء والسهرة العائلية . كان جوعي الى الهدوء والصمت والعزلة جوعا دائما لا ينتهي . وحين كان يتاح لي سرقة مشوار الى كروم الزيتون على طريق «رفيديا» القرية الصغيرة الخضراء . كنت اجلس في ظل زيتونة كبيرة . أعب من الصمت والهدوء . وأحلم بامتلاك كوخ خشبي صغير يقوم في أحد تلك الكروم استقل فيه بحياتي .

كذلك أصبح من احلامي الثابتة السفر والدوران حول هذا العالم . يقولون أن أكثر الذين عشقوا الأسفار كانوا قد عانوا عيشة الحيوانات وراء قضبان الأقفاص الحديدية . ولقد كنت لأعيش تلك العيشة فعلا .. كم تابعت ببصري العصافير وهي تنطلق من عب الأشجار في صحن الدار وتمضي الى ما وراء الجدران سارحة في الفضاء الفسيح ، حرة من الخوف والحرمان . كنت أنظر اليها بحزن وأشتهي وأحلم بامتلاك جناحين طليقين . ولكن صفعات الواقع كانت تهوي عليّ وتردني مستلبة الأحلام ضائعة الأمنيات .

لم يكن بمستطاعي التفاعل مع الحياة بالصورة القوية التي يجب على الشاعر أن يتفاعل بها . كان عالمي الوحيد في ذلك الواقع الرهيب بخوائه العاطفي هو عالم الكتب . كنت أعيش مع الأفكار المزروعة في الكتب ، معزولة عن عالم الناس ، بينما أنوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه ، لا تجد لها متنفساً مهما كان نوعه .

وأنا في تلك الحال من الحصر النفسي والاغتراب ، كان أبي يأتي اليّ طالباً مني كتابة الشعر السياسي . كان يريدني أن أملأ المكان الذي تركه ابراهيم . فكلما برزت مناسبة وطنية أو سياسية أقبل عليّ يسألني الكتابة في الموضوع . وكان صوت في داخلي يرتفع بالاحتجاج الصامت : كيف وبأي حق أو منطق يطلب مني والدي نظم الشعر السياسي وأنا حبيسة الجدران ، لا أحضر مجالس الرجال ولا أسمع النقاشات الجادة ولا أشارك في معمعة الحياة . حتى وطني لم أكن قد تعرفت على وجهه بعد ، فقد كان السفر محرماً عليّ . وباستثناء القدس التي عرفتها بفضل احتضان ابراهيم لي حين كان يعمل في الاذاعة الفلسطينية ، لم أكن أعرف مدينة أخرى غير نابلس .

من قوانين الطبيعة التي لا تقهر أن المخلوقات من نبات أو حيوان لا يمكن لها ان تعيش وتنمو خارج شروط بيئية حياتية محددة .

وبالنسبة لي لم تكن البيئة البيتية التي نشأت فيها ملائمة لخلق روح الاهتمام بالعالم الخارجي وما يدور فيه من صراع .

كان أبي يطالبني بالكتابة في موضوع بعيد عن اهتماماتي كل البعد ، وليس له أية علاقة بالحركة النفسية في داخلي . فكان يطغى عليّ الشعور بالعجز ، وحين أوي الى فراشي أسلم عيني للبكاء .

ان بلوغنا مركزاً يتطلب منا أشياء تفوق الكفاية الطبيعية فينا كثيراً ما يسيء الينا سيكولوجياً ، وذلك من جراء الصدمة والصعوبات التي نعانيها . كان أبي يظن أن بمستطاعي النظم في أي موضوع . حقاً ، كنت قد رسخت قدمي في أرض الشعر ولكن تيار الحركة النفسية عندي كان مغايراً ومختلفاً تماماً عن التيار الذي أراد أبي ان يحملني على الانسياق معه . ان على الشاعر أن يعرف الحياة والعالم من حوله قبل أن يعالجها في شعره ، فمن أين آتي بالمادة الأولية الأساسية المناسبة ؟ من أين يتوفر لي الجو الفكري والنفسي لأكتب مثل ذلك الشعر ؟ هل أستمده من قراءة الجريدة التي كان أبي يحضرها في ظهيرة كل يوم حين يعود الى البيت لتناول الغداء ؟ ان قراءة الصحف ، على أهميتها ، لم تكن كافية لانبعاث جذوة الشعر السياسي في أعماقي ؛ لقد كنت معزولة عزلة تامة عن الحياة الخارجية ، وكانت تلك العزلة مفروضه عليّ فرضاً ولم أخترها بارادتي . فالعالم الخارجي كان (تابو) محرماً على نساء العائلة فلا نشاطات اجتماعية ولا اهتمامات سياسية ، كانت أمي واحدة من أعضاء جمعية خيرية نسائية ولكن هذا لا يغير من الصورة شيئا ، فقلما كانت تشترك في اجتماعات الجمعية ، ولم يسمح لها في أي مرة بالسفر لحضور المؤتمرات النسائية كغيرها من أعضاء الجمعية ، ولم يسمح لها قط بالمشاركة في السير في مظاهرة نسائية ، فتقاليد العائلة لم تسمح بهذا مطلقاً .

كانت قد تأسست في نابلس جمعية نسائية منذ عام ١٩٢١ برئاسة المرحومة مريم هاشم (توفيت عام ١٩٤٧) وكانت الجمعية ذات طابع

خيري ، (توفيت عام ١٩٤٧) وكانت الجمعية ذات طابع خيري ، ثم انضمت عام ١٩٢٩ الى الاتحاد النسائي العربي العام الذي أسسته في مصر المرحومة هدى شعراوي ، وهنا أصبح الاتحاد النسائي الفلسطيني يقوم بتنظيم النضال السياسي للمرأة الفلسطينية في معظم المدن الفلسطينية وأحيانا في قراها . ولئن كان اشتراك المرأة في المدينة مقتصراً على المظاهرات وبرقيات الاحتجاج وعقد المؤتمرات من خلال الهيئات النسائية ، تلك الهيئات التي أفرزتها البورجوازية الوطنية أنذاك ، فان المرأة القروية كانت تملك حرية الحركة بشكل أفضل وأكثر فعالية بفضل سفورها ، فكانت تقوم بنقل السلاح والطعام الى الثوار القابعين في الجبال .

مع ذلك الوضع المعزول كليا ، والمفروض على النساء في البيت ، لا غرابة في أن يخلو جو الدار النسوي من أي وعي سياسي أو اجتماعي . كانت الدار أشبه بحظيرة كبيرة تملؤها الطيور الداجنة ، يلقي إليها بالعلف فتزدرده دون نقاش ، راضية قانعة به . وكان ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات . كانت رسالة تلك الطيور الداجنة تقتصر على تفقيس الفراخ الصغيرة واستنفاد أيام العمر بين حلل الطبخ النحاسية الكبيرة وبين حطب المواقد الدائم الاشتعال شتاء وصيفاً .

وكما يحصل في المجتمعات **المتخلفة** حيث تكون السخافات هي حصيلة حياة المرأة ، فان الجو النسائي في البيت لم يشذ عن هذه القاعدة التي كانت هي الصفة السائدة في كل الأسر والبيوت . وهكذا لم يكن بمستطاع الجو العائلي أن يعطيني شيئا ، بل كان يزيدني رهقا على رهق .

وأصبت بمرض بغض السياسة . ففي هذه المرحلة بالذات عانيت صراعا نفسيا وفكريا حاداً . كنت أحاول الاستجابة الى رغبة أبي لكي أرضيه وأكسب محبته ، ولكن أعماقي كانت تحتج وترفض وتتمرد . اذا لم أكن متحررة اجتماعيا فكيف أستطيع أن أكافح

بقلمي من أجل التحرر السياسي أو العقائدي أو الوطني ؟ وظل يعوزني الاختمار السياسي كما كنت افتقر الى البعد الاجتماعي : لم يكن لديّ سوى ذلك البعد الأدبي وكان بعدا ناقصا .

كنت أعي ذاتي ، وكنت على وعي بأن الذات لا تتكامل الا في الجماعة . وكانت الجماعة هناك ، وراء الجدران التي تحاصرني ، وبينها وبيني مسافة قرون طويلة من عالم «الحريم» ....

وظل يطغى عليّ الشعور بالعجز . لقد تعطلت لديّ القدرة على كتابة الشعر ، فتوقفت حتى عن نظم الشعر الذاتي . وهكذا غطى الجدب الشعري كل تلك المرحلة الصعبة . كان وعيي الشديد لما أنا فيه من كبت وضغط يؤثر على كياني الروحي والجسدي معا ، فازداد هزالي ، ولم تكن إلام الرأس تفارقني الانادرا ، وكان التعب النفسي رابضا بكل ثقله على أعضاء جسدي ، وفي الليل كان يغرقني العرق .

ولم يعد للحياة معنى أو طعم ، وإنما كنت أستبطن همومي الخاصة ومشاعري الذاتية وكأنّ عطبا أصابني في داخلي ؛ كانت التعاسة تضخم شعوري بنفسي وبكياني . ورحت أنزف على حدّيْ سكين تلك المقولة القديمة : (ان لم أكن لنفسي فمن يكون لي ، وان أكن لنفسي فمن أنا ؟) لقد ظل ضعف الارتباط بالواقع والحاجة للاتصال بالعالم الخارجي مصدرا لصراع نفسي عانيت منه طويلا . وكان أبي أول من زرع بذور هذا الصراع الذي رافقني فيما تلا من مراحل حياتي الشعرية ولكن بصورة مختلفة .

ظللت أحس بأنني وحيدة تماماً ، فليس هناك من يحس بتعاستي سوى هذا الكيان الخاص بي . لقد كان هو ، كياني أنا ، الذي يتوتر ويتمزق ، والقلب هو قلبي أنا ، الذي ينقبض وينسحق ، ومحنتي التي تزداد تأزماً هي محنتي أنا ، فلم يكن ليشاركني في كل هذا أي كيان آخر لأي شخص آخر .

ورحت كلما ازدادت تعاستي من القهر والكبت ازداد شعورا بفرديتي وذاتيتي . لقد جعلني وجودي داخل جناح «الحريم» المغلق

أتقلص وأنكمش في قمقم ذاتي ، وصرت لا أملك إلا التحديق في مرآة هذه الذات ، هذه الأنا حبيسة القمقم اللعين . ولقد كان الشعر الذي نشرته في الصحف هو العمل الاجتماعي الوحيد الذي استطعت أن أجعل منه جسرا يصلني بالاخرين وأنا قابعة بين الجدران الأثرية . وهكذا كان شعوري بالاغتراب يتكثف وبدأ إحساسي باستلاب أحلامي وأمانيّ وتطلعاتي الطموحة يتخذ صفة مرضية .

في هذه المرحلة بالذات ابتلعت محتويات زجاجة الاسبرين بكاملها ، وكان طبيب العائلة الدكتور نديم صلاح هو الذي أنقذني من الموت الذي أصبح ملاذي الوحيد للخلاص مما كنت فيه من عذاب .

لم أكن أحمل لأبي عاطفة قوية ، بل ظل شعوري تجاهه أقرب ما يكون الى الحيادية ، لم أبغضه ولكنني لم أحبه ؛ لم يكن له أي حضور وجداني في نفسي إلا في أوقات مرضه أو حين يسجن أو يبعد لأسباب سياسية . كان بالنسبة لي خيمة تظللنا ، اذا فقدناها أصبحنا عرضة للزوابع ، فقد كنت أخشى دائما ان يموت ويتركنا تحت رحمة الآخرين ؛ وهكذا كنت أتأرجح مع عواطفي بين الشعور بالحاجة الى وجوده ، والشعور بالاغتراب وعدم الانتماء الوجداني اليه ، فلم يكن يبدي لي أي لون من ألوان الاهتمام أو الايثار ، حتى حين كنت أقع فريسة لحمى الملاريا في صغري ما كان ليدنو مني أو يسأل عني ، وكان هذا الاهمال يؤلمني . من هنا أصبح ابراهيم بحنوه الغامر وايثاره لي تعويضاً عن أب لم يشعرني أبداً بدفء عاطفته الأبوية . وحين توفي ابراهيم ، وكان أبي لا يزال على قيد الحياة ، عرفت طعم اليتم الحقيقي ، أما حين انتقل أبي الى العالم الآخر فقد كنت أعاني حالة من التأزم النفسي الرهيب بفعل الكبت العاطفي الشديد الذي كنت أكابده خلال تلك السنوات من حياتي . ولقد حاولت أن أرثيه ففشلت ، غير انني افتقدته افتقاداً حاداً حين أخذت تهب علينا بعد وفاته رياح المشاكل العائلية .

لم أكن في يوم ما طرفاً في أي خلاف أو نزاع ؛ كنت أقف دائماً بعيداً عن الخلافات ، أرى وأسمع وأتألم . وفي هذه الفترة كتبت قصيدتي (حياة) ، وكانت من القصائد القليلة التي كتبتها خلال بضع ساعات قليلة متواصلة ، وفي هذه القصيدة تظهر حقيقة إحساسي بفقد والدي وكان إحساساً حاداً الى مدى بعيد .

في ضجة السقوط مات والدي عام ١٩٤٨ ! .

آلاف من اللاجئين يفينون في نزوحهم الى نابلس ، فتكتظ بهم الدور والمساجد والمدارس والكهوف في جبلي عيبال وجرزيم .

مضت شهور طويلة على وقوع الفضيحة الاولى على الأرض العربية قبل ان أعود الى كتابة الشعر ، ولكن وراء الصمت كانت هناك عملية ارهاص وإختزان كامنة في الأعماق ، الأعماق التي لم تعد الآن تكابد الفراغ والخواء .

وانفكت في الأخير عقدة لساني . رحت اكتب الشعر الوطني الذي طالما تمنّى أبي لو يراني أتفرغ له فأملأ مكان ابراهيم . لقد كتبت ذلك الشعر بصورة تلقائية وبدون أي إلزام من الخارج .

بعد وفاة والدي لم يعد انفعالي بالسياسة معدوماً ، ولكنه لم يكن حاداً ، فلقد ظل يجتاحني على فترات متقطعة ويفتقر الى صفة الاستمرارية ، يشتعل في المناسبات المشتعلة ويخمد بخمودها .. يفور مع الفوران العام ويهمد بهموده . فمع تجمد الأوضاع وتجمد القضية الفلسطينية بدأ يتسرب الخدر الى الحسّ السياسي لديّ ، وخرجت الى الحياة أعبّ منها وألمسها ، أمسك باللحظات الهاربة فلا أدعها تفوتني قبل أن استهلكها ثانية فثانية ودقيقة فدقيقة .

****

في النصف الاول من الخمسينات خرجت من «قمقم الحريم» . فمع انهيار السقف الفلسطيني عام ١٩٤٨ سقط الحجاب عن وجه المرأة النابلسية ، وكانت قد كافحت طويلاً لتتحرر من ملاءتها التقليدية ومنديلها الأسود الكثيف .

قبل السفور النهائي كانت المرأة في نابلس قد نجحت في تطوير حجابها على مراحل امتدت على مدى ثلاثين عاماً . ففي العشرينات تخلصت من التنورة السوداء الفضفاضة واستبدلتها بالمعطف الأسود او البني وغيره من الألوان الغامقة . وفي بداية الاربعينات تخلصت من الغطاء الذي كان ينسدل من أعلى الرأس حتى الحضن ، ساتراً لتفاصيل النصف الأعلى من الجسم ، وحيث تنطوي وراءه يداها على صدرها حتى لا تظهر اصابعها امام عين الرجل . أما في اواسط الاربعينات فقد بدأ المنديل الأسود يشف عما تحته . في منتصف الخمسينات طار المنديل نهائياً وراحت الوجوه الجميلة تتحدث بنعمة ربها في هدوء وخفر .

لقد كان تطور الحجاب في نابلس بطيئاً عكس ما كان عليه في القدس وحيفا ويافا ، ولم تكن طريق ذلك التطور هينة أو معبّدة . فقد ظلت نابلس بلد التعصب والتقاليد العتيقة ، لا تتم التحولات الاجتماعية فيها بسهولة ويسر ، فالقوالب والقواعد المتصلبة تبقى هي المتحكمة رغم كثرة المتعلمين من أبنائها . ومن الغريب ان هذه المدينة التي اشتهر اهلوها بالديناميكية وكثرة الحركة تظل ترفض الجديد الذي يمسّ تقاليدها . لكن حتمية التطور تظل أقوى من كل مقاومة ، فالتطور هو خط سير الحياة ولا يمكن التصدي له وإعاقة حركته .

***

كان جوعي للحياة قاسياً . ان من هدرت سنوات طويلة من عمره في صحراء الربع الخالي لا يعقل ان يهرب من الواحة الخضراء حين تفتح

له أبوابها .

وخرجت بنت الحياة الى أمها الحياة ، وكانت صادقة كل الصدق ، فطالعتها بوجه طبيعيّ أصيل هو الوجه الذي يصرّ المجتمع بقوانينه وتقاليده الصارمة على تزييفه ، وإضفاء قناع كاذب عليه . ولم تكن بنت الحياة أنانية ، أخذت وأعطت ، وكان العطاء قانونها في الحياة تعمل به ، فقد كان جزءاً لا ينفصل من طبيعتها . كانت من قبل ، حين تسرق مشوارها الى حقول القمح تكتئب وتحزن ، اذ ترى عطاء القمح دون ان تقدر هي على العطاء . ان القلب الممتلىء بالحب يختنق اذا لم يجد من يحب .

وحان الوقت لتتكلم بنت الحياة ، وحين تتكلم امرأة صادقة فالحياة هي التي تتكلم .

لقد ظلّ مجتمعنا العربي الشرقي يظلم عاطفة الحب مثلما ظلم المرأة باستمرار ، وبقيت هذه العاطفة الانسانية الجميلة التي لمست بكفها السحرية حتى قلوب الأنبياء ، والتي قال بصددها النبي الكريم محمد «صلعم» : (سبحان الله ! سبحان مصرّف القلوب !) وذلك ساعة طلعت عليه زينب بنت جحش فجأة قبل زواجه منها . هذه العاطفة الانسانية الجميلة في مجتمعنا العربي المصاب بانفصام الشخصية ظلت تحمل معنى محملا بالفضيحة والعار.

بالنسبة لي ظل الحب يحمل مفهوما أوسع نطاقاً من كونه تأكيداً لانوثة المرأة ؛ ظل بالنسبة لي تأكيداً لانسانيتي المسحوقة ، وإنقاذاً لها . ولقد بقيت طوال عمري مشدودة الى الحب . مدفوعة بعاطفة شعرية يصعب توضيحها . فكما تستجيب الطيور بصورة غير ارادية لاتجاهات المجال المغناطيسي في تحديد اتجاه طيرانها ، كذلك ظلت استجابتي للحب ، وبقي هو الشعلة الأكثر اجتذاباً في مجالات الحياة المختلفة .

ولست أبعد عن الحقيقة اذا قلت ان الحب كان عندي فكرة مجردة وعالماً مطلقاً هو الذي احببته، وظلّ (الآخر) بالنسبة لي تجسيداً لتلك

الفكرة التي لم استطع هجر آفاقها أبداً . حتى أصبحت حاسة من حواسي وغريزة من غرائزي ، تحمل الحرارة والنبض باستمرار ، فأغطس معها في حمام عاطفي ساخن يغسل أعماقي من الشوائب المرة . ولم يكن لتلك الفكرة المجردة شواطىء ولا مرافىء أرسو عندها . كانت بحراً واسعاً تعلو أمواجه أحياناً حتى تستحيل الى دوامة تدور بي وتلفني فتفقدني أحياناً إحساسي بالعالم الخارجي من حولي .

قبل الخروج من «القمقم» كانت مراهقتي العاطفية حادة مشتعلة ، نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة . حب بالمراسلة .. كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه ، وبيني وبين التجربة الواقعية جدران «القمقم» الأثرية ، فكانت المراسلة والخيال هما ميداني الضيق والواسع في آن . كنت جائعة الى شيء غير موجود ، ضائعة ، وحيدة ، لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل .

وكان الخروج ، حيث وجدتُ نفسي في الاخر واهتديتُ اليها ببوصلة الواقع ، وظل قلبي حديقة للحب لا تذبل أشجارها أبداً .

في لحظات الحب يحس الانسان بانسانيته تتكثف ؛ يخرج من القطب الجليدي المعزول ويرحل الى الوهج والاشراق ، ويصبح الآخر كأنما هو الجسر الى كون التمّتْ أجزاؤه المبعثرة وأصبح كلا واحداً بلا انهيارات ، كون هو الطريق الى العافية النفسية والروحية بكل ما فيه من حلاوات ومرارات وتناقضات ومفارقات ؛ كون جميل وقاس وحنون كالحياة نفسها . وهو بعد ذلك كله مفروض كالحياة والموت ، خاصة على ذوي الطبائع الشعرية ، ولا مفر لهم منه .

لا أحلى منه حين يلمس حتى توافه الأشياء ، فيحيلها الى أشياء جميلة وذات قيمة : فاتورة حساب في مطعم .. بطاقة دخول الى مسرح .. زهرة جافة .. قلم حبر ناشف أو سائل ، كل هذه وأمثالها من توافه الأشياء تصبح ثمينة نادرة حين يلمسها الحب .

كان الخيال المشتعل يصنع هالة سحرية تطوق الانسان المحبوب ، فيضفي عليه ما ليس فيه . كنت أرى النواقص ، ولكن لم تكن النواقص في رأيي لتتعارض مع الحب ، وأينا بحث عن مسيح يحبه ؟ ظل المثاليون في نظري يشكلون طبقة فاشلة من المحبين ، فمثاليتهم تجعلهم يعرضون الأمر بشكل يسلخ عن الحب عنف اثارته ، لقد آمنت دائماً ان الحب ثروة لا ندرك قيمتها الا بعد ان نكون قد انفقناها أو خسرناها في مضاربة .

وحين كان الزمن ـ وهو تلك القوة التدميرية الجبارة ـ يفعل فعله في الأشياء والعلاقات ، لم أكن أطيل الوقوف عند الأطلال .. ولم أكن أمينة على الماضي بعد ذهابه ، ولم أسمح لنفسي بأن تتيح للماضي سرقة المستقبل فالماضي لص ، يسرق ولا يعطي .

لا غرابة في ان يحب القلب الواحد أكثر من مرة ، فمن الشذوذ ان يتجمد قلب الانسان عند شخص معين طول الحياة . انها ظاهرة طبيعية ان تنشأ في القلب وتتكرر أكثر من علاقة ، وفي كل مرة تكون للعاطفة نفس القوة السابقة والصدق والفوحان ، ولا مكان هنا للأهواء العرضية والطيش والعربدة .

في أحيان كثيرة أجد ان الماضي لم يذهب فقط بمعناه المادي ، بل بمعناه النفسيّ أيضاً ، فما كان في الماضي يحمل قيمة معينة ، تكون نظرتي اليه في الحاضر قد اختلفت تماماً ففقد بالتالي معناه النفسي ، وأحس أني ـ أنا نفسي ـ شخصية أخرى لا تمت الى تلك القديمة بصلة ولا تكاد تتعرف عليها إلّا في ساحة ذكرى .

عالم طفولتي فقط هو العالم الوحيد الذي لا يفقد معناه النفسيّ في داخلي . انه العالم الوحيد الذي أعود إليه بقلب حار قديم ، وما عدا ذلك فكل شيء في نظري ينال منه قانون التطور .

صادف خروجي من «القمقم الحريمي» مرحلة درامية تمر بها الأمة العربية في عراكها مع الاستعمار الغربي الجديد . فمع سقوط فلسطين عام ١٩٤٨ تزعزع بنيان المجتمع العربي التقليدي سياسياً وإجتماعياً وثقافياً ، ومع سقوط أنظمة الحكم الرجعية في مصر وسوريا ، تنامت الحركات الشعبية في مصر والعراق ، وبدأ الفكر الاشتراكي والماركسيّ يوغل في ضمير الشعوب العربية موجهاً كفاح الانسان العربي ضد السيطرة الاستعمارية من جهة ، وضد مفاهيم المجتمع التقليدي من جهة أخرى .

مع هبوب رياح التغيير والثورات خرج الشعر من بروج الترف ليواكب مسيرة الجماهير العربية فاعلاً ومتفاعلاً مع تطلعاتها الى التحرر من القهر والاستغلال ، وأصبحت قضية الشاعر جماعية وبعيدة عن الفردية .

وكان هناك السطوع الباهر لوجه جمال عبد الناصر ، ذلك القائد العربي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس . فقد طلع هذا الانسان المخلص على أمة ظلت تنتظر قدومه عدة أجيال ، ففجر فيها ، وهو يشرف بها على الأماني الجديدة ، فجرّ فيها ينابيع القوة ، فبدأ عصب الحياة ينبض فيها من جديد رغماً عن كل قوى الشرّ المحيطة المضادة .

أحببت جمال عبد الناصر كما أحبه الملايين من العرب : عشت تأميم القنال وعشت العدوان الثلاثي على مصر بكل ما أملك من عاطفية وإنفعال .

في هذه الفترة ، وبالذات بين عامي ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، كان هناك في نابلس (النادي الثقافي المختلط) الذي أسسه الدكتور وليد قمحاوي مع بعض الشباب الواعي ، لكي يسدّ فراغاً ثقافياً واجتماعياً كان يهيمن على المدينة . وبالرغم من الأصوات الرجعية المعادية التي راحت ترتفع في المساجد ضد النادي المختلط ، وبالرغم من العبارات الهجومية التي كانت تكتب على جدران المدينة ذات التقاليد الصارمة ، فقد استطاع هذا النادي ان يقوم بتحقيق بعض أهدافه ، وذلك من حيث النشاطات الفكرية والأدبية والاجتماعية . وأقول حقق بعض أهدافه ، ذلك ان نظام الحكم القائم يومئذ لم يلبث أن أغلق أبواب النادي بسبب نشاطه السياسي الخفي[8].

كنت واحدة من أعضاء النادي ، وكانت أول مرة أنخرط فيها مع الجماعة . وحين شبت نار العدوان الثلاثي على مصر أصبح جو النادي يتوهج بالانفعال . كانت قلوبنا معلقة بشعرة ، تتأرجح بين الأمل والخوف من إنكسار جديد ، وملأ النفوس موقف (الكرملين) ، واجتاحنا حب جارف لروسيا .

كان قد ظهر قبل ذلك على صعيد السياسة الغربية مبدأ (أيزنهاور ـ دالاس) القائل بتعبئة الفراغ الذي تركته بريطانيا . ومنذ اتضح لأمريكا ان الاردن هي المكان المناسب لملء الفراغ ، بدأت المتاعب تحيق بحكومة سليمان النابلسي التقدمية .

في العاشر من نيسان ١٩٥٧ تمت إقالة حكومة النابلسي وذلك على أثر ظهور حركة الضباط الوطنيين في الجيش الاردني ، وكان معظمهم من حزب البعث المؤازرين للحكومة .

كان الفلسطينيون يسيطرون على الأحزاب التقدمية السياسية التي راحت تساند بالاجماع ـ حكومة النابلسي المستقيلة ، إدراكاً منها

لما سينتج عن تلك الاستقالة من كبت للحريات . وقامت في الضفة الغربية مظاهرات احتجاج ضد طلب الملك إقالة الحكومة . وحين تشكلت الحكومة الجديدة برئاسة د. حسين فخري الخالدي في ١٦ / نيسان رفضها الرأي العام التقدمي في البلاد . وفي نابلس عقد مساء ٢٢ نيسان المؤتمر الذي عرف باسم «المؤتمر الاسلامي الوطني» حضره أكثر من مئتي عضو ممثلين لكافة الاحزاب السياسية التقدمية ، ناهيك بمختلف القادة الوطنيين الى جانب ثلاثة وعشرين عضواً برلمانياً وكان مجموع الأعضاء المشتركين في المؤتمر يمثل غالبية البرلمان .

كان تشكيل الحكومة الجديدة ، ايذاناً بمرحلة انتقالية خطيرة ، تحضر لسياسة قمع داخلية تمنع الحرية السياسية في البلاد ، وتقطع التعاون مع الأنظمة العربية التقدمية في مصر وسوريا . من هنا كانت القرارات التي خرج بها المؤتمر الوطني حازمة وجريئة ، وطالبت باستقالة حكومة الخالدي وتشكيل حكومة جديدة قائمة على الأحزاب الاشتراكية الوطنية . كما طالبت برفض مبدأ أيزنهاور وبإخراج السفير الأمريكي والملحق العسكري الأمريكي من البلاد . وكذلك قررت القيام بإضراب عام في ٢٤ نيسان تأييداً لهذه المطالب . وهكذا استيقظ الناس صبيحة ٢٤/ نيسان على اضراب شامل في معظم مدن المملكة . وقامت المظاهرات العنيفة لا سيما في مدن الضفة الغربية[1] .

في ذلك اليوم استقالت الحكومة لتقوم حكومة جديدة في ٢٥ نيسان برئاسة ابراهيم هاشم معلنة الأحكام العرفية وإلغاء كل الأحزاب السياسية في الاردن ؛ وفرضت منع التجول على مدن عمان ، اربد ، نابلس ، القدس ، ورام الله . وجرت عملية اعتقالات مباغتة وواسعة ، لم تتح معها الفرصة لكثير من اعضاء المؤتمر العقائديين ليعودوا الى مدنهم ، فوقعوا في الفخ ليساقوا الى

السجون . أما الذين حالفهم الحظ فقد اختبأوا في بيوت الأصدقاء أو الأقرباء .

***

شهر مايو في منتصفه ، أو قبله أو بعده بقليل .. شمس العصر تلقي على غرفة النادي الغربية أشعة ضعيفة .. الغمائم العابرة تسرق الأشعة من جدران الغرفة بين الحين والآخر .. بعض الأعضاء يتبادلون الحديث .. موضوعنا ـ كالعادة ـ يتناول الظروف السياسية السيئة في البلاد .. على المقعد المقابل الصديقة المعلمة (س) .. عيناها تبرقان في وجهي .. شيء ما في عينيها السوداوين يقول لي انها قلقة وفي حالة غياب .. فجأة أراها تقفز من مكانها وتجلس بسرعة الى جانبي .. يدنو رأسها من رأسي وتلامس شفتاها خصلة الشعر على أذني .. تهمس بغمغمة : «هل لديك مكان أمين لأحد (الرفاق) المطاردين ؟ اننا في مأزق والعيون تحاصر منطقتنا .. يجب ان يغادر مكانه الحالي هذه الليلة قبل ان يصطادوه ..»

ذهني يتحرك بسرعة ... يدور حوار سريع بيني وبين صمتي المبهور : ـ الدار في هذه الأيام خالية الجو ... الباقون من أسرة عمي في الدار يعزلهم عنا خصام قائم .. لا مجالس مشتركة بيننا ولا أحاديث متبادلة ... العلية الغربية في طابقنا العلوي معزولة ومناسبة ... أمي وأختي فتايا بجانبي دائماً .. أخي رحمي سيرحب بالضيف بكل تأكيد .. رحمي مع (الرفاق) و (للرفاق) منذ السادسة عشرة من عمره ولو لم ينضو بشكل رسمي .

وهمست في أذنها : «نعم !» وتم الاتفاق على ساعة التنفيذ ..

في الثامنة والنصف مساء كان ثلاثتنا في سيارة أجرة ، هي بجانب السائق الأمين ، وعلى المقعد الخلفي يجلس الى جانبي رجل صامت لا أعرفه ، معتمراً بكوفيه بيضاء وعقال أسود .

السماء معنا !

أمطار غزيرة غير متوقعة تهطل في شهر يحمل معه عادة روائح الصيف .. عبرت السيارة داخل السوق القديم .. الدكاكين مقفلة .. البلدة مقفرة الا من قطة تنكمش على نفسها في زقاق مظلم ، وهناك عابر يركض هارباً من الأمطار المباغتة ، متجنباً ما أمكن مزاريب الأسطح على الجانبين ، رأسه غارقة في كتفيه ويداه مدفونتان في جيبي سترته .

وقفت السيارة عند باب دارنا ، ونزلنا لنرقى السلالم الكثيرة ، المستقيم منها والملتوي ، واحتوتنا غرفة الاستقبال في الطابق الثالث ، وتم التعارف !.

الدكتور (عبد الرحمن شقير) ، عرفته من قبل بالسماع . انه من أقطاب الحزب في عمان ، ومن أشدهم خطراً على النظم الرجعية .. حملاته على النظام القائم في الاردن عنيفة متواصلة . كان العثور به ـ لو تم ـ مكسباً كبيراً من مكاسب سلطة القمع السياسي آنذاك .

عاد أخي رحمي للبيت ليفاجأ بالضيف العزيز ، وتلقاه بذراعين مفتوحتين . قبع السياسي المطارد في «العلية» المعزولة بستائرها المرخاة على نوافذها الضيقة وبابها الزجاجي .

في الصباح الباكر توجهت الى عمان لأطمئن زوجته الصابرة وبناته الصغيرات الثلاث . كانت عائلته في قلق كبير لا تعرف من أمره شيئاً . وبعدها رحلت العائلة الى دمشق .

خلال فترة إقامته كنت حريصة على أن تبدو الأمور في البيت طبيعية ، لا تثير تساؤلات أفراد أسرة عمي . وحين كانت أمي تهيء له وجبة الطعام على «صينية» صغيرة ، كنت أتحيّن اللحظات التي تخلو فيها ساحة الدار من أهلها ، فأركض «بصينية» الطعام الى العلية ، كما أنني تعمدت طوال تلك الأيام المواظبة على الذهاب الى النادي ، وحضور الأفلام في دور السينما كما لو كنت غير مسكونة بالقلق وإنشغال البال .

وكنت قبل مغادرة الدار أقفل بالمفتاح باب السلم المؤدي الى

الطابق العلوي . كنت سعيدة بالواجب الذي اضطلعت بالقيام به ، ولكن سعادتي كان يمازجها همّ خفي . كنت أحس برجفة اذا ساير رجل خطواتي في الطريق خوفاً من أن يكون أحد المخبرين القذرين . ولا أدعي الشجاعة اذا قلت أن خوفي الكامن لم يكن على نفسي . كان همي الوحيد هو الحرص على سلامة المطارد السياسي من جهة ، وسلامة أخي رحمي من جهة أخرى ، فقد كانت البلاد تعاني من قهر سياسي واضطهاد لا يرحم أحداً .

مرّ أحد عشر يوماً على القابع في العلية المغلقة ، المسدلة الستائر ، قبل أن يتم تدبير الأمر وتسريب المطارد الى دمشق ...

....

أشرب قهوة الصباح على قلق وانتظار ...

جرس التلفون في غرفتي ينتزعني من مقعدي بقفزة ملهوفة ..

أتناول السماعة : ـ دمشق .

ـ .. احكوا مع دمشق ....

وتصافح أذني كلمات زوجة الدكتور (عبد الرحمن) ناعمة شامية :

ـ .. هالو .. صباح الخير .. شكراً على الهدية .. وصلت أمس في أحسن حال ..

ـ .. الحمد لله ، لا شكر على واجب .. كيف الصغيرات ؟ سلّمي ..

أعدت السماعة ...

تنفست بعمق . واسترحت !

في مطلع الخمسينات عرفت الصديقة (ياسمين زهران) ـ دكتور في التاريخ فيما بعد ـ وتوطدت بيننا أواصر صداقة حميمة منذ البداية ، فاتصلت لقاءاتنا ومشاويرنا في القدس ورام الله وأريحا على مدى سنوات ، كانت ياسمين من أبرز العناصر النسوية المثقفة في البلاد . منها تعلمت حب «پروست» و «الكتاب المقدس» وكانت متشبعة بالفكر الغربي حتى الامتلاء . كانت من جهة أخرى تتبنى أفكاراً تقدمية ، وتميل عاطفياً وفكرياً الى حزب (البعث) فكان بيتها ملتقى أصدقائها البعثيين في رام الله والقدس . كانت تؤكد دائماً على أن العامل الفكري والروحي من أهم العوامل الأساسية في تقرير مصائر الشعوب ، ولا يقل عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وللتاريخ شواهد على ذلك ، ومن شواهده فتوحات العرب التي لم يكن وراءها تقدم اقتصادي أو اجتماعي ، فلم يكن هناك سوى الاندفاع الروحي والعقيدة التي حارب العرب في سبيلها . وكانت لها في ذلك الحين زاوية أسبوعية في بعض الصحف المحلية جعلت منها منطلقاً لآرائها وأفكارها التقدمية ، والتأكيد على وجوب ايمان الفرد العربي بقوة الأمة العربية وبَحقها في الحياة الكريمة ، فبدون اختمار هذه الفكرة في أعماقه وإمتلاكه للدافع الروحي لن

يكون الفرد العربي قادراً على التغيير وتقرير المصير بنفسه .

كان بيتها في مدينتها رام الله يضم الجنسين من صفوة المثقفين عموماً ، فقد أصبحت الآن الشابة الفلسطينية الجديدة تتمتع بنصيب من التعليم العالي . حتى بنات بعض الشيوخ المسلمين في نابلس وسواها من المدن الفلسطينية كن من خريجات الجامعات الأمريكية والبريطانية .

كانت الصديقات النابلسيات لبيبة صلاح ـ دكتور في التربية ـ ويسرى صلاح مفتشة اللغة الانكليزية ، وسبأ عرفات[١٠] وشقيقتها الفنانة التشكيلية عفاف ، هؤلاء وسواهن من جيل ياسمين المتفتح الواعي في رام الله والقدس كن حبات في عقد ملموم يحتضنه بيت ياسمين الجميل .

في بيتها عرفت صديقي حسن الذكر جميل البديري . كان يحب شعري ولكن .. كان يطلب اليّ باستمرار الخروج من دائرة الذات . وفي بيت ياسمين عرفت صديقي الشاعر الشهيد كمال ناصر .

كان حينئذ نائباً فلسطينياً في البرلمان الأردني ، وكنا نقضي أمسيات غنية في بستان ياسمين وقد تركنا النفوس على سجيتها . كان كمال باستمرار قلقاً ثائراً ضاحكاً ضائعاً ، وكانت أحاديثنا تدور حول الأوضاع القائمة والشعر والحب والموت والنضال والانتحار . كنا نقرأ الشعر ونحزن ونفرح ونأمل ونيأس . وكان كمال بشخصيته الديناميكية الحارة شديد القرب من نفوس أصدقائه ومحبيه .

في عام ١٩٥٧ وخلال الفترة الدرامية من تاريخنا مع الاردن ، أعني فترة الأحكام العرفية والبطش بالعقائديين ، كانت جريدة «فلسطين» التي تصدر في القدس تطالع القراء بين أسبوع وآخر بقصيدة جديدة موقعة باسم «أبو فراس» وكان يلفت نظري حرارة تلك القصائد وصدقها وأصالتها ، فأتساءل دائماً : من هو ـ أبو فراس» هذا .

وحين سألت الصديق رجا العيسى ، رئيس تحرير جريدة

«فلسطين» عن الشاعر المجهول قال وهو يبتسم : من تظنينه يكون . قلت : في القصائد رائحة كمال .. قال رجا : هس .. لا يسمعك أحد ..

اذن كمال مختبىء ، ولم يفلت من الحصار كما كنت أظن . وغمرني تأثر عميق .

في طريق عودتي الى نابلس أخذت عصافير الأفكار وصور الأمسيات الجميلة ولقاءات الأصحاب في بستان ياسمين زهران ، كل هذه أخذت تحوم وتطوف في رأسي وفي عيني وفي قلبي .

في الأسبوع التالي مضيت الى الصديق رجا العيسى ومعي قصيدة جديدة مهداة الى المغرد السجين» .

خلال أسبوع جاءتني من كمال قصيدة مقابلة . بعدها صرت التقي بكمال في مخبئه الأمين .

وجدته يوماً يكابد الآلام من بعض أضراسه ، وكانت المغامرة بالتسلل الى طبيب أسنان مستحيلة لخطورتها . اقترحت يومئذ ان أمضي الى القدس وأعود مع نسيبنا الطبيب برهان عبد الهادي ليقوم بالمعالجة . وتم ذلك فعلاً في اليوم التالي .

في تلك الأيام ، أيامي مع الدكتور عبد الرحمن شقير وأيامي مع كمال ناصر في محنتهما ، اكتشفت الفرق بين إحساس الانسان وتفكيره وهو يعمل منفرداً ، وإحساسه وتفكيره وهو يعمل مع الجماعة ، وذقت حلاوة الشعور الجماعي المشترك ، وأسعدني وأفعم نفسي خروجي من إطار نفسي وإنطلاقي ضمن إطار الجماعة .

بقيت مشكلتي هي ذلك الحماس الأني الذي يهجم مع المناسبات الساخنة ويتراجع مع انتهائها .

كنت أتمنى بصدق لو تظل السياسة جزءاً دائم السخونة في تفكيري ، لو أستطيع الانضواء الى أحد الأحزاب التقدمية ، لو أتخلص من هذا التمزق الدائم بين فرديتي وبين عواطفي الشعبية ، تلك العواطف التي كانت تستيقظ فقط في المناسبات المتأججة . كنت

أتمنى من كل قلبي لو أستطيع الارتقاء في خضن الجماعة فأعيش حياتها واهتماماتها ومواقفها المتصلة بالقضايا الوطنية . ولكن تحقيق هذا التمني ظل فوق قدرتي ، فالتعامل مع الناس في الخارج ليس في طبعي ، وهكذا بقي عجزي التام عن الاندماج مصدر شعور بعدم الرضى . وبقيت حائرة بين هذه الحالات المتعارضة ، موزعة النفس بفعل التعارض القائم بين قوة طبيعتي الأصليّة المتحكمة وبين عدم اقتناعي بل كرهي لهذه الطبيعة ، مما ولّد في ضميري ما يشبه عقدة الذنب . وفي الحقيقة لقد كان عجزي عجزاً مأساوياً يتطابق وتعريف «انجلز» للمأساة حين قال : انها التصادم بالضرورة ، واستحالة تنفيذ هذه الضرورة عملياً .

لم يكن بين شعراء جيلي من لم ينضو الى حزب ، أو لم يتخذ موقفا ملتزما ينبع من خلاله شعره . لقد كنت فريسة لتشابك صعب بين شعور (بالأنا) لا أستطيع تجاوزه ، وبين إدراكي التام لما في تجربتي الشعرية من نقص نابع من خلوها من الالتزام .

أحياناً كنت أحاول أن أفلسف وضعيتي وافتقاري الى الشعور بروح الجماعة ، فأمضي في حواري مع النفس أتساءل : هل من الممكن أن يتجرد الانسان الشاعر من ذاتيته الى هذا الحد المطلوب منه في هذا العصر ؟ ثم ، لماذا يساق الشعراء ، جميعا بهذه العصا الواحدة ، عصا السياسة فقط ؟ ان جوانب الحياة كثيرة ووجوهها متعددة ، والنزعة الذاتية هي أحد هذه الوجوه وهذه الجوانب ، فلماذا تلغى من الشعر ما دام الشعر هو انعكاس الحياة بأوضاعها المختلفة؟ الشاعر انسان قبل أن يكون اي شيء آخر ، قبل ان يكون سياسيا ـ هكذا كنت أفلسف وضعيتي ـ الشاعر فرد ككل الأفراد يمثل الانسان في جوهره الذي لا يختلف ، يتألم حين يفجع بموت أخ أو حبيب . يحب الجنس الآخر ، يستجيب لمعطيات الطبيعة والحياة ، فلماذا يطلب منه أن يدير ظهره ـ كشاعر ـ الى تلك المعطيات فلا يعبر عنها في شعره .

بل كنت أحيانا أذهب الى إقتاع نفسي بأن الحزبية في بلادنا العربية ناقصة . وتظل ذات صفة شخصية ، فهي تتصل بالأشخاص قبل المبادىء ، مما يشغل الشعب عن العمل الحقيقي .

بالتأكيد لم يكن لجوئي أحيانا الى هذا التفكير الفطير الا تصيدا للمبررات ، فقد كنت أدرك أن الشاعر يستطيع أن يمارس بشعره فعالية وطنية دون الانضواء الى تنظيمات سياسية معنية ، فليس من المحتم أن يرتبط بالحزبية ليقوم بدوره كشاعر ملتصق بالواقع العربي من حوله .

وهكذا فقد ظلت كتابتي للشعر أسيرة الحالات العاطفية والنفسية التي تباغت فجأة وتذهب فجأة . ولم أعرف الاحساس الدائم بالواقع والالتصاق الوجداني الملازم بالقضية الجماعية الا بعد حرب حزيران .

أنا أقرأ فأنا موجودة . ظللت قارئة كتب شرهة . وقد نّمى هذه الشراهة حرماني من الدراسة الاكاديمية ، فالانسان الطموح يظل ينطوي على مرارة مصدرها ذلك الفراغ الذي يتركه في النفس الحرمان المبكر من المدرسة . هنا يتحول الى (دودة كتب) .

لم تكن قراءاتي منهجية . كنت أقرأ أي كتاب يقع في يدي ، مرورا بالموضوعات الادبية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية الى كتب العلوم المبسطة . كان سلامة موسى والعقاد والمازني من الكتاب الذين فتحوا ذهني وعلموني ما لم أعلم . ومنذ الأربعينات أصبحت شديدة الالتصاق بعلم النفس من جهة والرواية من جهة أخرى .

وجدت في الرواية حصيلة المعرفة الانسانية ، وجدت فيها الفكر والشعر والفلسفة والتحليل انفسي . انها تتناول الحياة ، بل كل شيء حي . الانسان ، هذا الجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر ، تتناوله الرواية بكل اهتزازاته الحية ، بكل تناقضاته وتقلباته ، بكل ما في تركيبه من عناصر مختلفة متضادة . وهكذا أصبح عالم الروائيين الغربيين الكبار عالمي الذي يضج بالحياة والحركة وأنا سجينة الجدران . كنت أقرؤهم بالعربية أو بالانكليزية .

ظلّ يجتذبني في الرواية الفكر الفلسفي بشكل خاص : مشكلة

الخير والشر ، قضية الموت والمرض ، قضية العدل السماوي وهل هو موجود فعلاً ؟ وانجذبت بطبيعتي التشاؤمية الى الشخصيات القلقة المتشككة المتسائلة دائماً : هل قدر الانسان في السماء أم في دمه ؟ هل تأتينا الجبرية من الخارج أم هي ، كما يقول علم النفس الحديث ، جزء كامن لا ينفصل عن النفس ؟ يقول الوجوديون ان الانسان حر ملزم بالاختيار وهو وحده الذي يصنع نسيج وجوده ، ولكن ماذا عن عصره والظروف المحيطة به ؟ ماذا عن القوى الوراثية المؤثرة ؟ أوليس الانسان سجين بيئته وظروفه وزمنه وتكوينه النفسي والجسدي ؟ وهذه الانسانية المعذبة ، هل خلصتها الاديان من عذابها ؟ هل ولد الانسان مفطوراً على الشر أم هي عوامل البيئة ؟

لقد كانت تشغلني في صغري قصة تحكيها لنا أمي ونحن حول موقد الشتاء ، تروي فيها حكاية النبي موسى حين مر برجل فقير قابع في حفرة تغطيه حتى منتصفه لكي يواري عريه عن أنظار المارة . وتألم موسى لحال الفقير ، فصعد جبل الطور وكلم ربه وسأله راجياً الرزق للفقير ، فوعده الله خيراً . واذ رجع موسى الى البلدة مسروراً بما وعده الله به فوجيء برؤية الفقير معلقاً على المشنقة جثة هامدة .

صعق موسى وعاد الى الجبل فوراً يخاطب ربه بلهجة عاتبة : يا الهي لقد سألتك ان ترزقه لا ان تشنقه . فقال الرب العظيم : تأدب يا موسى أنا خلقته وأنا أعلم به .

وتكمل أمي القصة وسط دهشتنا واستغرابنا فتحكي لنا سبب ما حدث . فقد حدث ان أحد أصحاب الدار التي كان يستظل الفقير بحائطها نفض غطاء المائدة فسقط منه دينار ذهبي تناوله الفقير ومضى الى خمارة ، وسكر وعربد وتخاصم مع أحد الندماء ، ثم قام واشترى بما بقي من الدينار سكيناً طعن بها الرجل فمات ، وهنا أخذوه الى الحاكم فأمر بشنقه .

كانت القصة تبلبل عقلي : «أنا خلقته ، وأنا أعلم به» . لكن لماذا خلقه هكذا ثم عاقبه ؟

وكان كتاب «العهد القديم» من الكتب التي أعود اليها بين حين واخر . لقد وجدت في بعض أسفاره صورا إنسانية لمسها الفن القصصي . فخرجت نابضة بالحياة.شخصية ايوب او بالأحرى قصة «الانسان» في توتره وهو يصارع ما يعترض سبيله من اسباب الشر . ثم تلك القضايا الفلسفية التي يثيرها هذا السفر : الشر والبؤس ومن المسؤول عنهما ؟ هل في الكون عدالة سماوية وأين مكانها اذا وجدت ؟ وكنت أفييء الى سفر (الجامعة) كلما حاصرت روحي الأسئلة التي لا تجد جوابا شافيا ، أو كلما شعرت بخيوط حياتي تتبعثر دون ان أستطيع لملمتها «باطل في باطل .. ماذا يجني الانسان من جهده تحت الشمس ؟» فكأن ذلك الحكيم الذي وضع كل تشاؤمه في ذلك السفر يردد ما قاله جلجامش من قبل : «هذه هي الدنيا ، ما من بيت نسكنه الى الأبد ، ما من عقد نعقده حتى النهاية ، ما من ديمومة لشيء» .

أما صرخة المسيح في محنته (الهي لم تركتني ؟) فقد علقت أصداؤها بجدران قلبي ولا تزال عالقة .

في أوراقي القديمة أجدني قد سجلت بيتيّ شعر نظمتها تحت عنوان (شعلة الايمان) :

يا رب ادرك بقايا شعلة همدت — قد كاد يطمس شكي نور ايماني
ان كنت موقدها فابعث لها مددا — او كنت مطفئها فاغفر لنكراني

ولقد كانت في هذين البيتين البذرة التي انبثقت فيما بعد عن قصيدتي (امام الباب المغلق) بعد سنين عديدة .

حين يتزعزع الايمان تتزعزع الارض وتمضي تدور بالانسان وكأنها بلا محور ، ومع الأسئلة المعلقة بلا جواب تصبح الحياة عبثا لا يطاق . عبثاً حاولت ان أرفع شعار (وليم بليك) القائل : اصنع ما تريد ، فهذا العالم قصة خيالية ، أساسها التناقض . ان الانسان بدون المعرفة الروحية يظل ناقصا كما قال الهنود . وفي «الخوف والرعشة»

عبّر سورين كيركجارد عن حاجة الانسان الى ايمان ديني بقوله : «لو لم يكن لدى الانسان وعي إبديّ خالد ، ولو كان أساس الخلق قوة عمياء تنتابها عواطف غامضة غير واعية ينبعث منها كل ما هو عظيم وكل ما هو حقير ، فأي شيء يمكم ان تكون الحياة الا يأسا) .

كان الفكر الاسلامي قد جذبني منذ وقت مبكر الى القضايا الفلسفية ، وكان أول من حرك ذهني في هذا الاتجاه كتاب زكي مبارك عن الغزالي . ثم رحت اجد متعة ذهنية في قراءة «المعتزلة» وجدلهم حول الجبرية والحرية والعدل والثواب والعقاب ...

***

كان شقيقي رحمي صديقي اللدود ، ورحمي ظل دائما أخا حنونا فيه من طباع لبراهيم الكثير خصوصاً طبيعة الايثار وحبّ المساعدة . ولكن رحمي لم يكن يبدي حماسا لاهتماماتي ومطالعاتي وأشعاري . كان ماركسيّ الميول والتفكير ، ينام على لينين ويفيق على ستالين . وقد سجن وهو في السابعة عشرة من العمر بتهمة الشيوعية . فقد كانت عناصر الحزب منذ أواخر العشرينات تكابد ارهاب السلطة البريطانية ومن ورائها القيادات الاقطاعية والبورجوازية اليهودية .

كان رحمي يلح على وجوب ارتباطي بالواقع الذي تعيشه البلاد ، ذلك اننا نعيش في أوضاع وفي زمن لا يستطيع معه أحد ان يبقى لا مباليا ، والا فلا ضرورة ولا أهمية لكل ما اكتب من شعر . وكان هذا يقلقني ، وكنت أجد فيه تهديدا لأهمية وجودي ذاته ، فقد كان الشعر هو كل وجودي .

لم أكن أبالي بالشيوعية ولم تكن لديّ فكرة صحيحة عنها ولا صورة واضحة . كانت (عصبة التحرر الوطني في فلسطين) قد قررت الموافقة على قرار التقسيم ، وبعد قيام اسرائيل بدأ أعضاء الحزب

بقيادة المرحوم فؤاد نصار ، الأمين العام للجنة المركزية ، يطالبون بإقامة الدولة الوطنية الفلسطينية المستقلة التي نص عليها قرار الامم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩ .

في تلك الأيام كانت تعتبر الموافقة على قرار التقسيم خيانة للوطن والشعب . ومن هنا كان نفوري التلقائي من الشيوعيين ، ومن هنا كان يحتدم الجدل بين شقيقي رحمي وبيني . ومن أين لحسيّ السياسي الضعيف أنذاك إدراك الفطنة وبُعد النظر في موقف عصبة التحرر الوطني ؟ لقد سبقنا الشيوعيون الفلسطينيون بموقفهم ذاك ثلاثين سنة ؟ وها نحن اليوم نطالب بما طالبوا به قبل ثلاثة عقود من الزمن ، ها نحن نطالب مثلهم بممارسة حقنا في تقرير مصيرنا وإقامة الدولة الوطنية المستقلة التي نص عليها قرار الامم المتحدة عام ١٩٤٧ ولكن دون جدوى .

حين خرجت الى الحياة كنت عزلاء من سلاح الخبرة ومعرفة الناس ، فكانت المواجهة متعبة صعبة يعوزها التكافؤ . ان الكتب وحدها لا تكفي كمصدر لمعرفة الحياة وما في العلاقات البشرية من تعقيد وتصادم . علينا أن نحيا في الحياة ذاتها ، فتجاربنا الخاصة تظل هي الينبوع الأصلي لتلك المعرفة .

المشاعر والأفكار المعزولة عن أرض الناس والواقع .. الحس الاجتماعي العاجز عن النمو الحقيقي بسبب كساحه المزمن .. كل هذا فوجيء بالناس والحياة المتحركة وراء عالم «الحريم» المعزول ووجدتني أقف حائرة مبلبلة : الحياة الاجتماعية ومعطياتها في طرف ، وأنا في طرف اخر ، وكان الأمر باعثاً على الدهشة والخيبة والتأمل .

ان نعرف الحياة ونلمسها معناه أن نعرف الناس ونلسمهم ، أن نصطدم بالآخرين ، ان نضع أصبعنا على ما فيهم من رقة وخشونة ، وحب وكره ، وضعف وقوة ، ونبل وحقارة ، وصدق ورياء ، وكل ما هو خليط من التناقضات . وكانت هناك ، الى هذا الجانب ، الضريبة الغالية الثمن التي لا مهرب من أن يدفعها المرء ، وهي طيبة القلب والبراءة .

اكتشفت أن عالم العلاقات البشرية مشحون بالتعقيدات والعراك . لم أملك يوما الطبيعة العراكية التي كان يمكن أن تسعفني في ذلك العالم الغريب على طبيعتي ، وأخذت اضطرب بين حبي للناس وخوفي منهم . بين عمق العلاقة الانسانية التي تربطني بالأصدقاء والناس ، وبين اكتشافي ان الحقيقة كثيرا ما تنأى عن اللغة وتكمن باردة متوارية خلف ستار الكلمات المراوغة . وبقيت اتراوح بين فترات من استيعاب الاخرين والاستمتاع بالصحبة ، وبين فترات من الجمود الكليل نحو الناس . وفي كثير من الأحيان كنت أتعزى ببيت الشعر الجميل القائل :

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه .

وجدت في هذا البيت تلخيصا رائعا لكل سايكولوجية الصداقة والعلاقات البشرية عموما . على ان ارتباطي بالناس ظل يخضع لحالتي المزاجية .

ثم وجدت نزعتي الرومانتيكية مبررها لتسحبني من جديد الى أعماق ذاتي ، وقد ساعد في ذلك عدم وجود ما يضطرني الى الاتصال بالحياة الخارجية ، فلا عمل ولا وظيفة تحتل جزءا من تفكيري ، ولم أحس يوما بالميل الى الانخراط في خدمة اجتماعية . وهكذا لم تكن عواطفي ومشاعري لتجد أي موضوع خارجي تمتد اليه ، أو أي بديل تتفجر من خلاله وتأخذني خارج نفسي . وتأكد لي أن سعادتي لا تكون الا في عزلتي ، ولكن السعادة الفردية تظل في نزاع وصراع مع الاحساس بالواجب الاجتماعي ، فما هو الحل .

تحققت من عجزي التام عن تحطيم عزلتي التي لم تعد الان مفروضة علي من قبل الاخرين . وفي نفس الوقت لم يكن بوسعي تبرير هذه العزلة في حال من الأحوال . وهنا بدأ لون اخر من الوان صراعي مع حياتي ومع نفسي ، وشرعت أبحث عن مخرج لهذا التأزم .

كانت انكلترا حلما من أحلامي البعيدة التي تراودني باستمرار .
قلت في نفسي : أمضي بقطار العمر في رحلة جديدة الى محطة جديدة لاختراق أفاق جديدة . أغيب في قلب الحضارة هناك عاما أو عامين .

شهر أغسطس من عام ١٩٦١ في اسبوعه الأخير . المساء في الحديقة العامة بنابلس لطيف شفاف ، وروّاد الحديقة من أهالي المدينة يستمتعون بلطافة الجو بعد نهار قائظ لا سيما اولئك العائدون من دول الخليج والمملكة السعودية لقضاء إجازاتهم في الوطن الغالي وبين ذراعي جرزيم وعيبال المفتوحتين أبداً لاحتضانهم .

في زاوية تظللها أشجار الحديقة الشاهقة الفروع جلسنا ، ابن عمي فاروق وأنا ، نحتسي القهوة ونتبادل الحديث . وفاروق صديقي الحميم قبل أن يكون قريبي القريب . ظلت تربطني به أواصر المحبة منذ طفولته المبكرة . لا أزال أذكر كيف أدركته غفوة ذات مساء فيما هو قابع في حضني ، وحين حاولت أمه نقله الى سريره صحا فجأة وشرع يبكي متشبثا بي رافضا الانصياع . كان تعلقي بأطفال العائلة شديدا ، وحين كبروا ظلت علاقة المحبة راسخة الجذور مع أكثرهم .

***

في تلك الامسية الصيفية بالحديقة العامة شرع فاروق يحدثني عن تجربته الحياتية والدراسية في انكلترا ، فقد كان حينئذ طالبا في

«نيوكولج» بجامعة اكسفورد وكان سيحصل على شهادته الجامعية في صيف السنة التالية .

حدثت فاروق بدوري عن حلمي البعيد وتطلعي الى الاقامة في انكلترا عاما أو عامين . بارك فاروق على الفكرة ، وتحمس لها بصدق ، وأكد لي انه سيتدبر هو بنفسه ترتيب الأمور وتسهيلها فور عودته الى انكلترا .

اكسفورد ٨ اكتوبر ١٩٦١*[١١]

العزيزة فدوى حفظها الله

أكتب اليك من أقدم مدينة جامعية في الدنيا . اليوم هو يوم الأحد . في مثل هذا اليوم من كل اسبوع اسمع أجراس الكنائس تقرع من الصباح حتى الساعات الأولى من المساء ، وأرى سكان هذه المدينة وهم يتجهون الى بيوت العبادة وأناجيلهم في أيديهم ليلاقوا ربهم مرة في الأسبوع املين منه أن يجعل السلام يخيم عليهم وان يبعد عنهم شبح الحرب ، فقد ذاقوا ويلاتها مرتين في هذا القرن . تريتهم لا يريدون الغنى أو الرزق ـ لأنهما حاصلان ـ بل يريدون السلم والسلام .

الحياة الاجتماعية بدأت تصخب في الجامعة ، سيبدأ الفصل الدراسي في ١٣ أكتوبر . أمس ، السبت في ١٠/٧ كنت مدعوا الى حفل استقبال في مقر سير وليان هاتر رئيس كليتي ، وقد رحب بي كثيرا وكذلك زوجته ليدي هاتير ، وهي خريجة جامعة كمبردج وعلى جانب كبير من اللطف . تبادلت وإياهما الحديث ما يقارب من ربع ساعة ، وقد دعياني الى تناول الغداء في الحادي والعشرين من الشهر الحالي .

تجدين طية قصاصة اقتطعتها من جريدة التايمز . وهي تتعلق بالاعلانات . ارسلها إليك لتاخذي فكرة عن مثل هذه الأمور . وقد وضعت علامة على بعض الاعلانات التي اود أن تعرفي شيئا عنها . هناك مثلا إعلانان كل واحد منها يتعلق بسيدة تريد أن تسكن مع عائلة . ولكن أود ان ألفت انتباهك الى ان هذه الاعلانات تصدر يوميا ، وبعد ساعة من صدورها تكون قد قرنت من قبل المعنيين بهذه الاعلانات وذهبت جميع الفرص ، وأكبر برهان على ذلك هو أنها لا تتكرر في اليوم التالي . لذلك فأنت لا تستطيعين الاعتماد على قراءتها وأنت في نابلس ومن ثم تكتبين اليهم ، انك سترين ان القطار قد فاتك ، مع العلم ان الجرائد الانكليزية تصل الى القدس متأخرة عن تاريخ صدورها يومين .

الذي أقترحه أنا هو ما يلي : يستحسن حضورك الى انكلترا بعد شهر ديسمبر وستجدينني أرحب بك كل الترحيب ، تسكنين معي في اكسفورد المدة التي تختارينها وفي أثناء وجودك في اكسفورد تنشرين إعلانا في جريدة التايمز تذكرين فيه كل ما تريدين بعد أن تكوني قد عرفت كل ما تريدين . وأوكد لك انني بعد ديسمبر سوفْ أكون في الشقة التي أشرت اليها في بداية الرسالة ، وهي تتالف من غرفتي نوم ، واوكد لك أيضا بان ذلك لن يكون مصدر إزعاج لي بتاتا ، بل على العكس ، سيكون مصدر سرور ، فأنا أرحب كثيرا ومن صميم قلبي بمجيئك وبالسكنى معي المدة التي تريدينها . أحبذ مجيئك الى اكسفورد لكي لا يتغير عليك جو الحياة فجأة . وسوف أعرّف عليك الأصدقاء والصديقات من زملائي في الكلية . وسأدلك على أماكن شراء الخضار واللحوم . ثم الحليب والخبز يرسلان الى المنزل كل صباح . وأنا على يقين من أنني سوف أبدد كل الصعوبات التي ستلاقينها في بادىء الأمر ككل أجنبي يأتي ليسكن في بريطانيا ، وسترين ان الحياة هنا أبسط بكثير مما نتصورها في بلادنا ، وأن الحياة جميلة ويمكن أن تكون خالية من كل ما يسبب وجع الرأس وتنغيص

المزاج .

أخيرا أرجو أن تفكري بالأمر وان تكوني شجاعة في الاقدام على المجيء الى انكلترا .

سلامي وتحياتي الى أفراد الأسرة جميعا ودمت .

المخلص

فاروق طوقان

اكسفورد ١٩٦١/١١/١٥

العزيزة فدوى حفظها الله

سررت كل السرور لعزمك الجدي على القدوم الى انكلترا . خاصة الى اكسفورد في بداية الفترة . لقد بدأت من الآن أفكر في وضع برامج لك لكي تستفيدي من كل لحظة تقضينها هنا . أسأل الله أن يأخذ بيدي في تجهيز كل ما يلزمك . وأصارحك أن بعض الأصدقاء والصديقات تواقون الى رؤيتك والتحدث اليك . أنا متأكد من أنك سوف تجدين في اكسفورد الجو المناسب لك .

أما بخصوص وقت الحضور فاننا نرحب بك أي ساعة تختارينها . اذا أردت قضاء فصل الشتاء في انكلترا فشدي الرحال الان ، أما اذا اردت تجنب برد انكلترا فان أوائل شهر آذار تبدو لي الوقت المناسب مع العلم ان الفرق في البرودة بين شباط وآذار ليس كثيرا . على كل حال أطلب منك أن تتصلي بي فور إنهاء المعاملات الضرورية ـ الحصول على الفيزا وإذن الإقامة ـ ومن الآن كوني مطمئنة . فان كل شيء في انكلترا منظم والزائر لا يجد صعوبة إطلاقا في الحصول على أي شيء . انني في انتظار سماع أخبارك السارة .

الحياة في اكسفورد هذا الفصل على ما يرام ، فانني غارق في تحضير مقالاتي الاسبوعية ، الى جانب حضور الحفلات التي أدعى اليها . أهمها كانت تلك التي أقامها صديقي الذي زارني في نابلس مع زميلين اخرين ـ وتذكرين كم كان مثيرا لهم استحمامهم في حمام

المدينة القديم ـ أمس دعيت الى مائدة الأساتذة في كليتي والمعروفة «بالمائدة العليا» .

كنت الشخص الوحيد بين تلاميذ الكلية الذي دعيَ هذا العام الى تناول الطعام على هذه المائدة ، كما كنت التلميذ الذي دعيَ اليها في العام الدراسي الماضي . وهذا شرف عظيم جدا في اكسفورد . بعد الأكل انتقلنا من الطعام الى قاعة الاساتذة الرائعة ذات الأثاث الذي يرجع عهده الى قرون خلت ، شربنا النبيذ الحلو مع جوز وموز وفواكه على ضوء الشموع . وهذا يحدث بعد العشاء مرة كل اسبوع كل يوم ثلاثاء .

وقد تناقشت مع أساتذة الكلية في عدة مواضيع لمدة ساعتين . أشكر الله الذي بيّض وجهي في الاجابات على أسئلتهم التي كان بعضها «خبيثاً» بمعنى تضمنها نية كشف أوراق الشخص . كانت كل إجاباتي مدعومة ببراهين وأدلة .

تبدأ عطلة عيد الميلاد يوم الجمعة في ٨ ديسمبر لمدة ستة أسابيع ، سأذهب خلالها الى النمسا للتزحلق على الجليد هناك ، ومن ثم سأذهب الى ألمانيا لبضعة أيام ثم الى باريس . لم أخبر أحدا عن هذه الرحلة بعد ، لكني سأكتب الى سيدي الوالد مستأذنا بالسفر كالعادة ، وسأخبر العم قدري والشقيق العزيز سعد .

حوالي العشرين من ديسمبر سأستلم السيارة المرسيدس الجديدة ، وبدأت من الآن أعد العدة لتأمينها تأميناً كلياً . أما الرحلة الى النمسا فستكون عن طريق الجامعة . فالتكاليف ذهاباً وإياباً ، مع الإقامة لمدة اسبوعين في أحسن الفنادق مع تأمين على كسر الساقين أو اليدين تبلغ خمسة وثلاثين جنيهاً ما عدا مصروف الجيب . سيذهب معنا بعض الشباب والشابات من جامعتي اكسفورد وكمبردج . سأرجع الى انكلترا قبل يوم عيد الميلاد لأنني سوف أقضي نصف العطلة الباقي في الدراسة .

هذا كل ما في الجعبة من أخباري . أدعو لك بالتوفيق والنجاح وامل أن توافيني بالأخبار الطيبة . للجميع حبي وإخلاصي .

ودومي للمخلص المحب

فاروق

اكسفورد ٢٠ شباط ١٩٦٢

العزيزة فدوى حفظها الله

أكتب اليك هذه الرسالة والساعة حوالي السادسة صباحاً ، لم أنم طوال الليلة الماضية حيث قضيتها في تحضير أطروحة صغيرة عن «ما هو الصحيح وما هو الخطأ» وسوف القيها بعد ساعات قليلة .

أود ان ألفت انتباهك الى ان التأخير في الكتابة لم يكن بسبب الكسل أو عدم الاهتمام بموضوعك ، لكن بسبب ان المعلومات التي اود تزويدك بها وأخذ رأيك فيها لم تتوفر الا أمس .

أرسلت اليَّ مسز مور رسالة على عنواني بنابلس رداً على رسالتي التي كنت بعثت بها اليها من نابلس ، ولكن ردها ذاك وصل بعد أن كنت قد غادرتكم ، ولهذا فقد أعاده العم العزيز قدري مرة ثانية الى اكسفورد .

ان أهم ما جاء في رسالتها هو عناوين توصيني بأن أتصل بأصحابها أسألهم عما اذا كان ممكناً أن تسكني مع إحدى تلك العائلات . وبالفعل اتصلت بالسيدات اللواتي رشحتهن مسز مور . وكان ان استلمت أمس رسالة من سيدة اسمها مارجريت فيرنش تخبرني فيها انها مستعدة لقبولك في بيتها . تقول في رسالتها ان زوجها يدرس موسيقى في اوكسفورد وان عائلتها تتكوّن من ثلاثة أطفال ، يذهب الأول والثاني الى المدرسة ، والطفلة الصغرى تذهب الى المدرسة في الصباح فقط . ولهذا فهي لن تتمكن من تسليتك كثيراً ، وتضيف

قولها بأنه في مدينتهم الصغيرة لا يوجد صخب أو أي مكان يستحق الزيارة ، الا أنها قريبة من اكسفورد ومن بلدة شكسبير ستراتفورد ابون ايفون وهي تعد بأن تتحدث معك بالانكليزية أكثر ما يمكن لكي تستفيدي من الإقامة معهم . وأخيراً تذكر بأنها ستتقاضى مبلغ سبعة جنيهات وسبعة شلنات في الاسبوع الواحد مقابل غرفة وطعام وكهرباء وتدفئة باستثناء الغسيل الخاص ، أي ملابسك .

ذهبت عصر أمس الى تلك المدينة واسمها «بامبوري» فوجدت أن مسز فيرنش تسكن في الواقع في إحدى ضواحيها . البيت قديم ولكن وسائل الراحة فيه متوفرة . والمدينة ليست بعيدة عن اكسفورد أبداً ، حوالي ثلاثين كيلومتراً فقط .

أقترح ان تحضري الى اكسفورد في نهاية آذار فتقيمين معي اسبوعين أو أكثر ، ثم آخذك الى بامبوري لتقيمي مع تلك السيدة بضعة أسابيع ثم نعرف ماذا تقررين بعد ذلك .

أما في اكسفورد فسوف تقيمين في الغرفة المجاورة لغرفتي ، ولحسن الحظ فان عطلتي تبدأ مساء ٣/١٧ وتستمر ستة أسابيع .

أنتظر منك شرح وجهة نظرك بصراحة تامة ، كما انني أقسم لك بأنني انتظرك على إحر من الجمر لأني في حالة حزن شديد ، الحياة ما عادت تطيب لي خارج بلدي خاصة بعد وفاة سيدي الوالد رحمه الله . فوجودك بجانبي سيخفف من وطأة حنيني الى الوطن والأهل . والحقيقة انني ما تصورت ابداً انني سأصل الى مثل هذه المرحلة من الشوق والحنين الى العودة . لقد تشبعت من كل شيء ، واني لأنتظر بشغف اللحظة التي ستطأ فيها قدمي ارض نابلس ، كفاني ان فيها ضريح والدي الذي كانت وفاته أشد مصيبة نزلت بي .

لهذا أرجوك مخلصاً ان تحاولي الحضور في أي يوم بعد ٣/١٧ .

ودمت للمخلص

فاروق

تبقى رحلة الحياة مع الانسان الطموح تجاوزاً مستمراً لمحطات عديدة . بدون هذا التجاوز يستحيل التجدد والاستمرار في الحياة ، ليس هناك هدف نهائي ، ليس هناك مستقر نهائي يتجمد عنده ، فالحياة حركة بالنسبة اليه تتجه دائماً الى الأمام . ان البحث الدائب عن أقاليم جديدة ، حتى لو كان بحثاً ميؤوساً منه هو الذي يمنح الحياة غناها وكثافتها .

غادرت البلاد الى انكلترا في أواخر مارس عام ١٩٦٢ وأنا أغزل الحلم عند مرافيء التوقع المثير .

***

في كل رحلة من رحلاتي الجوية يطل عليَّ أبو العلاء المعري من خلال رؤيا عجيبة كان قد أوردها في كتابه «الفصول والغايات» :

(اذا شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر طوفه بالكعبة حول قاف ــ حول الكرة الأرضية ــ ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالإسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من «تهامة» فيوقد

ناره في «يبرين» وقاصية الرمال) .
هكذا ، وقبل ما يزيد على ألف عام ، ينطلق أبو العلاء المعري بمخيلته العجيبة فيستشرف في رؤيا أديب وشاعر عبقري ما اخترعه الانسان في هذا العصر من طيران وراديو وإضاءة بالتيار الكهربائي وسواها من اختراعات بلغ الانسان فيها ذروة عظمته الخلاقة .

***

قبل الغروب بدأ الريف الانكليزي ينكشف لعيني من خلال نافذة الطائرة ، الشجر والغابات والأكواخ الآجرية الحمراء ، ها قد بدأ الوجود الجميل يعطيني نفسه وسوف اعرف كيف آخذه .

***

كانت أول مرة أسافر فيها بمفردي خارج البلاد العربية . أما رحلتي السابقة الوحيدة الى اوروبا والتي شملت آنذاك هولندا فالسويد فروسيا فالصين الشعبية فقد كانت بصحبة وفد اردني وبدعوة رسمية لحضور مؤتمر السلام العالمي الذي انعقد في مدينة استوكهولم عام ١٩٥٦ . كان بعض أعضاء الوفد يقومون في أثناء الرحلة بمهمة المعاملات الضرورية في المطارات هنا وهناك فلم أحمل هم القيام بمثل هذه الإجراءات بنفسي .

***

لم يكن لي في مطار هيثرو بلندن من ينتظرني ، ففاروق يقضي إجازته في النمسا ، ولكني كنت أعرف ان السيدة التي يقطن في مسكنها في اكسفورد تحتفظ لي بغرفة خالية ، والعنوان في حقيبة

يدي ، وكل شيء سيكون على ما يرام .
في مطار هيثرو يسير النظام الباهر أمور الناس بصمت ومهابة . لا فوضى ولا تزاحم بالأيدي والأكتاف . مئات من المسافرين القادمين من مختلف أقطار العالم المتقدمة منها والمتخلفة ، ينتظمون في صفوف ، كل واحد ينتظر دوره ليقدم جواز سفره والنظام يفرض نفسه والسكون والهدوء يخيمان على القاعة الفسيحة فكأنك في معبد بوذي . الموظفون المسؤولون عن الكشف عن شرعية الدخول كل في مكانه يقوم بإداء المهمة الملقاة عليه ، ينقل عينيه بين صفحات جواز سفرك وبين النظر في وجهك ، ثم أسئلة قليلة عن سبب القدوم ومدة الإقامة ومبلغ النقود التي في حوزتك ، ويرد اليك جواز السفر وتمضي أنت الى الداخل باسم الله مجراك ومرساك .
انحدرت الى الطابق الأرضي والتقطت حقيبتي من بين مئات الحقائب ، دخلت قسم الجمارك وخرجت منه . الخدمات تقدم اليك نفسها بنفسها والأمور تجري بسهولة ويسر ، مكتب الاستعلامات مرشدك ودليلك الهادي . وجهني الى قسم حجز الفنادق ، وبمكالمة تلفونية تم حجز غرفة لي في فندق في لندن ناولتني الموظفة عنوانه . سأمضي فيه ليلة وفي غد أغادر بالقطار الى مدينة اكسفورد .
خرجت من مبنى المطار التمس لي سيارة توصلني الى الفندق . وجدتني أنتظم ضمن طابور من المسافرين المنتظرين ، كل واحد حقيبته تقف بجانبه على الرصيف وسيارات الأجرة تزحف واحدة اثر واحدة تلتقط الراكب صاحب الدور ثم تمضي مسرعة نحو المدينة الكبيرة مخلية مكانها للسيارة التي تليها .
قرأت على السائق الصامت صمت أبي الهول عنوان الفندق ، وبشكلها المربع ولونها الأسود وسقفها العالي تحركت بي سيارة التاكسي وانطلقت تخترق الشوارع الفسيحة النظيفة الخالية الا من دفق منهمر من السيارات .
نصف ساعة أو تزيد أخذت بعدها لندن تمرق أمامي بميادينها

وحدائقها وساحاتها ونوافيرها وعمائرها وواجهات متاجرها وسياراتها ودراجاتها النارية وحافلاتها الحمراء ذات الطابقين والجموع الهائلة من البشر . حشد عنيف من الناس والأضواء والألوان والمشهد بمجموعة ينقل الى مسامعك وعينيك ايقاع الحياة الدينامية في شوارع المساء . أحسست بإشراق غريب في داخلي . فرح لا أملك تصويره بالكلمات ، كأن يداً خفية ضغطت فجأة على زر كهربائي غير مرئي في أعماقي فاذا بروحي تضيء بوهج باهر ما عرفت مثله من قبل . إشراقة صوفية تفصلني عن الماضي كله ، تمحو عن قلبي آثار الفظاظة والخشونة والقسوة ، تطوقني برقي الامان والسلام النفسي .

العالم طيب . اني ابارك على الحياة (رامبو) . وداعاً يا زمان الجفاف والضيق وداعاً يا زمان التمزق والحيرة .

***

تلقفتني غرفة الفندق المريحة . فيما كنت أتناول فطور الصباح سألت النادل عن موقعي الجغرافي من المدينة فقال انني في وسطها . خرجت الى ميدان فسيح حاشد في جولة استطلاعية . هذا ميدان بيكاديلي الشهير ـ مواكب من الناس من كل الأجناس . آلاف من السيارات تتدفق كسيل عارم من الجهات الاربع . هرج ومرج وحركة دائبة . طالعتني المباني الفخمة الكلاسيكية ، طالعتني نافورة تصب مياهها كفضة سائلة يتحلقها فتيان وفتيات بثيابهن المزركشة الملونة . طالعني تمثال شاهق جذاب لفتى نحيل مجنح أوقفه صانعه على قدمه اليسرى وعلق رجله اليمنى في الهواء وحمّله في يديه قوساً وسهماً على وشك الانطلاق . هذا اذن تمثال ايروس اله الحب .

هذا ملمح من ملامح وجهك يا لندن لا يغنيني ولا يشفي غليلي . طموحي ان أعرف روحك الحقيقية . عليَّ ان أقيم فيك بضعة شهور . وسأحقق هذا المطمح في المستقبل .

عدت الى الفندق لأحمل حقيبتي ثم استقل من هناك سيارة تاكسي توصلني الى محطة بادنجتون للقطارات ، أخذت مقعدي في إحدى عربات القطار المتوجهة الى اكسفورد وغبت في أحلامي السعيدة .

أيامي في انكلترا لا تنسى .

أجمل إحساس هو إحساس المرء بأنه في سلام مع نفسه . ها هو الزمن يمد اليّ يد المصالحة . يد كريمة تفصلني عن ماضي حياتي التي سلفت والتي ما شعرت يوماً بالحنين اليها . ان الحنين الى الماضي يصبح جزءاً من حياة الانسان حين يكون ذلك الماضي محملاً بالذكريات السعيدة فقط .

ليس هناك أجمل من الشعور بالحرية والتحرر من المنغصات المحيطة ، تلك المنغصّات التي يستحيل الفكاك من براثنها الا بالبعد الجغرافي . لقد عرفت في انكلترا فرحة السجين بلحظة الخروج الى الفضاء والنور . لا يحس بجمال الحرية وبروعة امتلاكها إلا أولئك الذين حرموا منها . ما كنت أصدق انني سأنطلق يوماً خارج أبواب تلك العلاقات الكئيبة وأقفالها . كانت ابواباً وراءها أبواب وكنت أقبع خلفها أسيرة اليأس الممزق للنفس والروح ، يملؤني شعور مستمر بأنني قد ألقي بي الى عالم أقوى مني .

في إحدى رسائلي التي كنت أبعث بها الى شقيقتي «أديبة» في الكويت كتبت أحدثها عن الغبطة التي تتفجر وتنشر العافية في كل ذرة من ذرات كياني ، قلت لها : «... ان حياتي هنا جميلة بشكل غير

معقول ، كثيفة الزخم بشكل غير معقول ، شديدة الحلاوة بشكل غير معقول ...

لقد قرأت ذات يوم هذا القول لأحدهم : لا طعم للحلوى في فم تعود مذاق العسل ـ وأختك التي ما تعود فمها إلا مذاق المرارات عرفت اليوم مذاق عسل الحياة وحلواها ...»

***

بقيت في اكسفورد في ضيافة فاروق مدة عشرة أيام أو تزيد قليلاً ، أكرمني خلالها إكراماً كبيراً . لقد أتيح لي معه التعرف لأول مرة على ملامح تلك المدينة العريقة وأهمها الكليات وروعتها . ان للهندسة المعمارية لكليات الجامعة شهرة عالمية ، وفيها يحس المرء بروح اكسفورد تسكن الجدران العتيقة وتسكن باحات الكليات وحدائقها وممراتها .

كان ينطلق بي أحياناً نحو الريف حيث الحانات الصغيرة المسقوفة بالقش فنتناول طعامنا في أحد مطاعم تلك الحانات ، والمطاعم في حانات الريف تتميز بطابع ذي حميمية خاصة .

لقد أخذت بسحر اكسفورد شاير وبما تضمه تلك المقاطعة من ارث عظيم من الاراضي الحرشية الواسعة والاعداد الهائلة من الأشجار الجميلة . لقد عرف الانسان في تلك البلاد الخضراء كيف يسيطر على تقطيع الأشجار ويحافظ بعملية التحريج على هذا الإرث الثمين ، فهو لا ينشر شجرة قبل ان تكون قد طلعت بجانبها ونبتت شجرة أخرى .

قبل أن يأخذني لمشاهدة كليته (نيوكوليج) أي «الكلية الجديدة» كنت أظن وكما يوحي اسمها ، انني سأشاهد كلية حديثة الى حد ما ، ولكني فوجئت حين علمت ان تاريخها يرجع الى ستة قرون مضت . وكما لفت فاروق نظري فان الزائر يحس فيها بذلك المزج بين القديم

والحديث . فهناك مقابل معمار غوطي ينتصب تمثال ضخم لعازر نحته قبل سنوات النحات المعاصر الشهير أبستين . وكان أكثر ما هزني من المشاهد ذلك النصب التذكاري للحرب العالمية الاولى ، فعلى هذا النصب التذكاري قرأت ما يلي :

«في ذكرى طلاب هذه الكلية الذين دخلوا في ارث»
«هذا المكان قادمين من بلد غريب ، ثم عادوا ليحاربوا»
«ويموتوا من أجل وطنهم في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨» .

أما الطلاب ضحايا الحرب الذين سجلت أسماؤهم على ذلك النصب التذكاري فقد كانوا جميعاً من الألمان الذين تركوا الكلية وماتوا في ساحة الحرب مقاتلين ضد انكلترا .. لقد وجدت في هذا الذي قرأته أقوى تعبير عن روح تلك المدينة الجامعية العريقة .

دعيت مع فاروق الى حفلة مسائية أقامها في الكلية بعض زملائه الطلاب تعرفت فيها على أصدقائه وصديقاته . وكان أكثر ما لفت انتباهي الهدوء المخيم على الجو بالرغم من كون عدد الحضور لا يقل عن ثلاثين طالباً وطالبة . كانت الأحاديث تدور بين المجموعات المتناثرة هنا وهناك بصوت خفيض ، مما جعلني أستحضر في ذهني قول نيتشه : «كلما ارتقى عقل الانسان قلت رغبته في الضجة» .

ويوم سألت فاروق عن مكان الجامعة استغربت حين قال لي أنه ليس هناك جامعة في اكسفورد بمعنى جامعة منشستر مثلاً أو جامعة برستول . ذلك ان اكسفورد مثلها مثل كمبردج هي مجموعة كليات ، كل واحدة منها ذات إدارة ذاتية ومستقلة ، الجامعة هي جسم إداري فقط ينظم المحاضرات ويرتب الامتحانات ويعطي الدرجات . فالكليات هي اكسفورد الحيوية الحقيقية ، وكل كلية تضم طلاباً من جميع الأنواع ، أي أن المرء لا يجد كل طلاب العلوم في كلية وكل طلاب القانون في كلية أخرى ، ففي كل كلية طلاب في الفنون والعلوم والطب والهندسة ، وبالطبع فان كل طالب يتبع في الدراسة مساقه الخاص ، وبما أن المحاضرات تنظم بواسطة ذلك

الجسم الاداري الذي اسمه الجامعة ، وليس بواسطة الكليات لذلك فان أي طالب يستطيع حضور أية محاضرة في أية كلية اذ أنه عضو في الكلية وفي الجامعة معاً . وهذا مما يتيح للطالب اكتساب الكثير من المعرفة من خلال تعايشه مع أولئك الذين يمثلون كل الفروع الاخرى .

استقر بي المقام المؤقت لدى عائلة فيرنيش في بوديكوت ، إحدى ضواحي بلدة بامبري . البلدة لا حياة فيها بالمعنى العميق والرائع ، ولكن التجربة كانت غنية بالنسبة لي . أحاطني السيد فيرنيش وزوجته بالرعاية والمودة . كنت أدفع في نهاية كل أسبوع مبلغ سبعة جنيهات وسبعة شلنات مقابل المبيت والطعام والخدمة ، وسرني ان المبلغ لم يبهظ دخلي المتواضع ولم يتجاوز حدود إمكانياتي المادية .

كانت تسعدني النزهات الخارجية يومي السبت والأحد من كل اسبوع ، من خلال تلك النزهات تعرفت على عدة من المدن الواقعة وسط انكلترا . كانت زيارتي لبلدة ستراتفورد أبون آفون أول تلك النزهات الممتعة . قال لي السيد فيرنيش ونحن في طريقنا لمشاهدة البيت الذي ولد فيه شاعر الدراما العظيم والواقع في شارع هنلي وسط البلدة : «قليلة هي الأماكن التي لها مثل الجاذب الذي يشد السياح الى ستراتفورد ، حوالي ثلاثمئة ألف سائح يفدون كل عام اليها من مختلف أنحاء العالم .

ان شكسبير هناك في كل مكان ، ترافقه من البيت الذي ولد فيه ، الى البيت الذي توفي فيه ، الى المدرسة التي تعلم فيها ، الى الكنيسة التي دفن فيها ، الى بيت «هولز كروفت» الواقع في البلدة القديمة في

الطريق الى الكنيسة ـ وهو بيت ابنته سوزانا وزوجها الطبيب جون هول ـ الى مسرح شكسبير على نهر آفون المقوس ، الى تمثال الشاعر المنتصب على قاعدةٍ عالية تحيط به أربعة تماثيل لأربع من شخصياته الرئيسية ، قبعوا هناك يراقبون معه آلاف الزائرين وهم يعبرون جسر كلوبتون العتيق ابن الخمسة قرون ، أليس جديراً بستراتفورد أبون آفون أن يصبح اسمها شكسبير أبون آفون ؟ انه ابنها ومن قلبها وحضوره أبدي فيها .

أما الحديقة الخلفية للبيت الذي ولد فيه فتموج بالأشجار والأزهار والحشائش التي ذكرها شكسبير في مسرحياته .

ثم أخذنا طريقنا الى القرية الصغيرة «شوتاري» والتي تبعد عن ستراتفورد مسافة ميل فقط لمشاهدة كوخ زوجته آن هاثاوي . والكوخ ، كما تؤكد أقدم صوره ، لم يتغير فيه شيء منذ زمن شكسبير : الكراسي العتيقة بجانب المدفأة الحجرية ـ حتماً كان الشاعر يجلس في ذلك المكان .. الصحون التي تناول فيها طعامه ـ ربما .. ـ الزق الجلدي الذي كانت آن تصب منه الجعة لشكسبير ؛ في ذلك البيت يشعر المرء كما لو أنه يعيش في القرن السادس عشر . وقفت مخطوفة مرهفة السمع ، فلم يبق الا أن يطرق أسماعنا وقع خطوات الشاعر وهو يقبل علينا من الدرج الضيق .

حين غادرنا البلدة في المساء كنت على يقين من انني سأعود اليها أكثر من مرة ، فلا بد من مشاهدة بعض مسرحياته التي تمثل باستمرار على خشبة مسرح شكسبير الملكي ، هذا المسرح الخاص بعرض أعمال الشاعر المسرحية والذي لا يحوز من الناحية المعمارية على اعجاب الانكليز ، فهم يشبهونه (بمصنع غاز) .

لقد شهدت فيما بعد ، وعلى مدى ما يقرب من عامين ، الكثير من الأماكن التاريخية في انكلترا واسكوتلنده ، كما قمت بزيارة بعض البيوت الكبيرة الفخمة في المناطق الريفية التي لم تعد ملكاً خاصاً لأفراد ، بل تعتبر تراثاً قومياً يباح التمتع بمشاهدته لأفراد الشعب

مقابل قروش قليلة تدفع عند الدخول ، أقول على الرغم من مشاهدتي للعديد من مواطن الجمال الباهرة والأماكن ذات التاريخ ، غير انني ما شعرت قط بمثل الهزة التي عرتني وأنا أقف بضريح شاعر الكون ، ذلك الخالد ، مالىء الدنيا وشاغل الناس ما بقيت الحياة .

في أيام الأحد كثيراً ما اصطحبني السيد فيرنيش معه الى جولة في الريف وبرفقتنا ولداه جون «١٢ عاماً» وبيتر «عشرة أعوام» . كان يترك سيارته على كتف أحد الشوارع ثم نمضي مسافة أميال مشياً على الأقدام . ان رياضة المشي في ريف انكلترا من أروع وأمتع أنواع الرياضة. أكثر ما أثار دهشتي وانبهاري أمام الريف الانكليزي هو ذلك الامتداد والتنوع: مزارع، حقول، أحراش، غابات ووديان؛ لقد اكتشفت أن الريف في كل جزء من انكلترا قريب من المدينة أو البلدة، فهو يعطي مباهجه بسخاء ليتمتع بها كل الناس. هناك يجد رجل المدينة راحته، كما أن ساكن الريف يحب الروائع المحيطة به ويحميها بالحفاظ عليها. إن الخضرة هي فرح الناس في انكلترا، والغابات في الريف من أهم ملامح البيئة الطبيعية. إنها طبيعة يحرصون على الحفاظ عليها كل الحرص.

ما اقوى احساسي بالطبيعة وما اشد حدته . لا ازال منذ طفولتي اندمج فيها وأشعر كأنني جزء منها . اتخيلها كائناً حياً وأحس بدبيبها ونبضاتها ؛ ويا لذلك الجمال الخارق في طبيعة الريف الانكليزي ، كيف أصفه ؟ من يستطيع وصف الجمال بالكلمات ؟ مهرجان أخضر ، هيب بارد زبرجدي يمتد ويمتد ولا حدود لامتداده ، صمت المراعي ، سكون الطرقات الريفية الضيقة ، الخراف البيضاء ، الأكواخ الوادعة الداخلة في الطبيعة الخضراء والمندمجة فيها ، الهواء النقي الطازج المحمل برائحة الشجر والمطر والتراب ، ان روح الريف حاضرة في العشب والماشية والزهر وفي بذخ النباتات الحرجية ، والجمال هناك يهدي نفسه اليك كيفما التفت . أما أروع روائع الريف فهو ذلك الهدوء الشامل ، هدوء يهدهد الأعصاب كترنيمة

طفل .

بحكم وظيفته في مدينة اوكسفورد كان السيد فيرنيش يغادر اليها كل صباح ويعود بعد الخامسة ، كنت في بعض الأيام اصطحبه اليها ، ليمضي هو الى مكان عمله ولأشرع أنا في التجوال هنا وهناك ، أكتشف وأستطلع ، وفي الظهيرة أتناول قطعة سندويش مع فنجان قهوة في أحد المقاهي ثم أمضي الى إحدى المكتبات ومنها الى إحدى الحدائق اذا كان الطقس مشمساً ، أقرأ ساعة وأتأمل أخرى ، وعند الرابعة انتقل الى متحف «اشموليان» لقضاء وقت ممتع مع أعمال مشاهير الفنانين ، كان اشموليان أول متحف للفنون التشكيلية أشاهده في حياتي ، ومنذ أصبت بالادمان على التردد على المتاحف كلما اتيحت لي زيارة لندن أو سواها من عواصم أوروبا .

عند الساعة الخامسة أكون قد أخذت مكاني خارج باب المتحف في انتظار السيد فيرنيش للعودة الى بوديكوت وقد ملأني الشعور بالرضى .

***

لكي أتمكن من تمديد إقامتي في انكلترا ، كان عليّ الالتحاق بدورات تعليمية أستطيع معها الحصول على إذن إقامة طويلة . مثل هذه الدورات متاحة هناك لكل إنسان وعلى مختلف المستويات والأعمار . وقد زودتني السيدة فيرنيش بنشرة صادرة عن مدرسة سانت كليرز هول باكسفورد تتضمن معلومات عن دورتين صيفيتين لعام ١٩٦٢ ، الأولى خلال شهر يوليو وتجري في كلية «كرايس تشيرش» إحدى كليات جامعة اكسفورد ، والثانية تجري في اغسطس في مدرسة سانت كليرز هول نفسها . لم أتردد لحظة واحدة ، فها هي الفرصة الذهبية تقدم نفسها اليّ . ومن خلال المراسلة بيني وبين تلك المدرسة تم التحاقي بالدورتين .

هنا بدأت أعرف ما اريد ، فقررت الالتحاق بعد الدورتين بمدرسة

لمدة عام قابل للتمديد ، كما قررت ان تكون مدينة اكسفورد هي المكان المختار . أما مدينة لندن فسوف أوليها المقام الأول فيما بعد .

وغمرني شعور بالتفتح والانتشاء لا يمكن وصفه .

***

في صباح اليوم الأول لافتتاح الدورة الأولى ودعت السيدة الطيبة وأطفالها ، وكان السيد فيرنيش لطيفاً جداً وكريماً جداً . أخذني بسيارته الى اكسفورد . وفي تمام الساعة التاسعة كنا أمام بوابة الكلية . قدمت اسمي للموظف المسؤول هناك فسلمني مفتاح غرفتي المرقم برقمها ، كما طلب من احد العمال مرافقتي بالحقيبة الى الغرفة ، أما مستر فيرنيش فلم يغادر الا بعد أن تأكد من أن كل شيء ماض على أتم وجه ، ثم ودعني بمودة أخوية وبأجمل التمنيات .

عدت فهبطت الى الساحة رباعية الزوايا والمحاطة بأبنية الكلية . كانت الساحة قد بدأت تنبض شيئاً فشيئاً بالوافدين من الطلبة والطالبات الملتحقين بالدورة . الغربة تكتنف الجميع فلا أحد منا يعرف الآخر ، ثم سرعان ما بدأت لقاءات التعارف العفوية تتشكل حلقة حلقة ، كل واحد يسأل الآخر : من أين ؟ وتتعارف الجموع وتأتلف ، وتصبح النظرات الودودة والبسمات الصافية هي اللغة المشتركة ، إحساس جميل ، في ظرف جميل ومثير ومليء بالتوقع ، إحساس يؤكد الشمول الأخوي في المجموعات الانسانية حين ينسى أفرادها عصبيتهم العمياء وينفتح كل قلب لاحتواء الانسانية كلها في أعماقه .

حان وقت المقابلة مع هيئة الامتحان ، كل طالب على حدة ، وعلى ضوء المقابلة تقرر المستوى الدراسي المناسب لكل منا . كان موقعي في القسم المتوسط ، وكان ضمن المنهج المقرر لهذا القسم كتاب (مزرعة الحيوان) - لجورج اورويل ورواية «غرفة فوق السطح» لجون برين . ثم مجموعة شعرية بعنوان «شعراء ما بعد الطبيعة» .

حوالي أربعمئة طالب وطالبة من مختلف أنحاء أوروبا وآسيا وافريقيا تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والأربعين ، وبالطبع كانت الشبيبة هي الأكثرية الغالبة ، آوت الكلية حوالي المئتين ، لكل طالب غرفته الخاصة كما لكل طالبة ، وكانت مباني الكلية الخاصة بالمبيت قد قسمت الى قسمين ، للذكور قسم ، وللاناث آخر . أما باقي الملتحقين بالدورة فكانوا موزعين بين عائلات انكليزية تكفل لهم المبيت والطعام .

قبل ساعة العشاء بدقائق بدأنا نتجمع أمام قاعة الطعام مغلقة الأبواب في انتظار لحظة فتحها على المصراعين . حانت اللحظة ، بدأ تدفق الجموع داخل القاعة ، قاعة - كما قيل لنا - هي الأكبر لأكثر ادهاشاً وروعة بين قاعات الكليات الأخرى . علقت على جدرانها صور زيتية لرجال عظام نالوا تحصيلهم الجامعي في كرايس تشيرش : الشاعر سير فيليب سدني ، وليم بن مؤسس مستعمرة بنسلفانيا في أمريكا الشمالية ، السياسي الانكليزي سير روبرت بيل ، الواعظ الانكليزي جون وسلي مؤسس مذهب الميثوديست ، جون لوك الفيلسوف الانكليزي ، وليم غلادستون السياسي البريطاني ، جون رسكين الكاتب والناقد الانكليزي ، تشارلس دودغسون الكاتب والعالم الرياضي المعروف باسمه المستعار لويس كارول ومؤلف كتاب «أليس في بلاد العجائب» المشتمل على أكثر أقاصيص الأطفال إثارة ، تلك الأقاصيص التي رواها المؤلف للطفلة الصغيرة ابنة صديقه عميد الكلية خلال رحلة نهرية . لقد قيل لنا ان كرايس تشيرش تفخر بكونها أعطت انكلترا خمسة رؤساء وزارة في قرن واحد عدا العظماء الآخرين الذين تخرجوا فيها على مدى تاريخها الطويل .

كان مقعدي على مائدة العشاء الكبيرة مجاوراً لمقعد فتاة ألمانية في

مثل سني ، بدأنا نتبادل الحديث عن تلك التجربة المثيرة . في مثل هذه المناسبات سرعان ما تحصل الألفة لا سيما بين الأفراد المتقاربين في السن . عرفت منها انها معلمة للغة الانكليزية في بلدها وقد التحقت بتلك الدورة الصيفية رغبة منها في اكتساب المزيد من المعرفة باللغة من جهة ، وبهدف قضاء عطلة صيفية ممتعة من جهة أخرى ، ومنذ ذلك العشاء الأول أصبحنا ، اورسولا وأنا رفيقتين .

بعد وجبة العشاء الدسمة عدنا فانتشرنا في الساحة مربعة الزوايا ، كانت بعض زهرات اللوتس تطفو أمام عيوننا على مهل في بركة الماء الكبيرة المغشاة بالطحلب . في الدقيقة الخامسة بعد التاسعة فوجئنا بدقات جرس لم تتوقف الا عند الدقة الواحدة بعد المئة دقة ، وعكست العيون علامة سؤال كبيرة ، ماذا تعني هذه الدقات ؟ ما الذي تشير اليه ؟

وعرفنا القصة :

من (برج توم) الذي صممه المهندس الشهير كرستوفر رن لكرايس تشيرش يقرع جرس توم الكبير مئة دقة ودقة في الدقيقة الخامسة بعد التاسعة من كل مساء ، وذلك إحياءً لذكرى المئة تلميذ وتلميذ في الكلية زمن الملك هنري الثامن الذي أتم تشييدها بعد وفاة مؤسسها الكردينال ولسي في القرن السادس عشر ، والذي لا تزال الكلية تحتفظ بقبعته وكرسيه الى اليوم .

صعدت الدرج الضيق العتيق الى الدور الثاني حيث غرفتي المطلة نوافذها على الساحة ، والتي تقع على ظهر كنيسة الكلية ، أو بالأحرى كتدرائية مدينة اكسفورد ، فهي أقدم من الكلية ويرجع عهدها الى اثني عشر قرناً .

درت بنظري في أرجاء الغرفة ، كل ما فيها يشير الى أنها تخص واحداً من الطلبة الأصليين والذين يمضون الآن إجازاتهم الصيفية لدى ذويهم . تُرى كم من طالب شهدتهم وعرفتهم جدران الغرفة الصامتة والمشبعة برائحة الزمن ؟ كم احتضنت من مشاعر

وأحاسيس لأولئك الطلاب من خلال حياتهم الجامعية على مدى القرون الأربعة . الأماني ، والمطامح ، والأحلام ، ما تحقق منها وما لم .... النجاح ، الفشل ، السعادة ، الاحباط ، الدموع ، البسمات ، الحب ، الألم ، الى كل ما يختلج في النفس البشرية من انفعالات ومشاعر وصراعات . ما أقوى إحساسي بالأمكنة القديمة التي مرت عليها مركبة الزمن ، انها تضعني وجهاً لوجه أمام قوة الزمن ، أمام المصير الزائل للانسان ، أمام اللاديمومة لكل شيء في الحياة .

أيقظتني في الصباح طرقتان على الباب وصوت أجش يهتف : السابعة والنصف ، السابعة والنصف ؛ ثم وقْع خطوات تنأى عن الباب ، ثم الصوت الأجش نفسه مصحوباً بطرقتين على الأبواب المجاورة بابا بابا . كانت تلك وظيفة صباحية لأحد العمال هناك لايقاظ الطلاب كل يوم في السابعة والنصف .

التمّت الجموع في قاعة الطعام العتيدة . كانت الموائد المستطيلة حافلة بأباريق القهوة والشاي ، وبالزبد ومربى البرتقال والخبز المحمص (توست) ، بعد ذلك تأتي وجبة الفطور الانكليزية الشهيرة ، البيض المقلي والبيكون (لحم الخنزير المملح) . تركت شريحة البيكون على حالها ، ذلك أنني قليلة الميل الى تناول اللحوم لا سيما الأحمر منها ، بالاضافة الى الاشمئزاز الموروث من تناول لحم الخنزير . كانت القهوة والزبد والمربى والبيضة المقلية وجبة صباحية كافية وممتازة .

في صباح اليوم التالي ، وفيما أنا أحتسي قهوتي مستمتعة بنكهتها العطرية والاخوة والأخوات حولي يتمتم بعضهم للبعض الآخر : من فضلك ناولني السكر ، اذا سمحت ناوليني الملح ، فجأة أحسست بقلبي يهوي بين جنبي وأنا أسمع اسمي يهتف به الاستاذ أحمر الشعر المشرف على الدورة . وقفت وتطلعت اليه بتساؤل صامت . قال : من فضلك دعيني أراك بعد الانتهاء من الفطور .

خير يا رب ، ماذا هناك ؟ برقية ؟ مصيبة ؟ رحمتك يا رب .

حين ذهبت اليه قال : نراك لم تتناولي صباح أمس شريحة

البيكون . لعلك مسلمة . ـ نعم مسلمة ..

منذ ذلك اليوم اختفت قطعة اللحم الحمراء من صحني في وجبة الصباح . وعي استهلاكي عجيب يتمتع به الانكليز . كل الانكليز ، وهو وعي قلما عرفناه نحن العرب . هذا ما لاحظته خلال إقامتي في انكلترا ؛ كل شيء مقدر ومحسوب مهما قلّت قيمته المادية ، وكلمة «تبذير» موجودة فقط في القاموس الانكليزي ، أما عملياً فلا أثر لها في حياتهم . تقف المرأة الانكليزية بدكان البقالة لتطلب نصف خيارة ، حبة دراق ، حبة بندورة ، ربع فرخة ، فلا تشتري أكثر مما يكفيها .

قبل الدخول الى صفوف الدراسة طُلب الينا التجمع في الساحة المكشوفة ، ثم أقبلت علينا رئيسة مدرسة سانت كليرزهول . امرأة بل آنسة في منتصف العمر ، على وجهها آثار جمال لا شك أنه كان باهراً ، أما عيناها فقد انعكست فيهما أطياف حزن ناعم دفين .

كانت جالسة على كرسي ذي عجلات تدفعه من الخلف فتاة في الثلاثينات من العمر ، وكان على النصف الأسفل لجسم الرئيسة غطاء صوفي يتدلى حتى القدمين .

دقيقتان أو ثلاث ، وكَسَر الصمتَ المخيم صوتُ تلك الانسانة المرهفة المقعدة مرحباً بنا أولاً ، ثم شرعت تحدثنا عن الأسباب التي حدت بها الى ترتيب مثل هذه الدورات الصيفية لتعلم اللغة الانكليزية . خدثتنا عن أهوال الحرب العالمية الثانية والمآسي التي مر بها البشر خلال تلك الحرب ، حدثتنا عن القنبلة التي بترت ساقيها في احدى الغارات الجوية عام ١٩٤١ ، ثم تطرقت الى أهمية تعارف الشعوب وتحقيق التفاهم بينها ، من هنا انبثقت لديها فكرة ترتيب دورات ينعكس فيها بشكل رائع روح اللقاءات التي تساهم في تحقيق التفاهم ، وفي إقامة جسور الصداقة بين مختلف الشعوب ، وفي القضاء على لعنة الحروب وما تخلفه من مشاعر البغضاء في نفوس البشر .

***

كانت الدورتان مكثفتين بما رافقهما من نشاطات وزيارات ورحلات ونشوء صداقات جديدة . أما عن الحصص الدراسية فقد كانت الحصة المخصصة للأدب الانكليزي أكثرها متعة وإثارة بالنسبة لي . فمن خلالها أخذت فكرة واضحة عن الحركة الأدبية في الخمسينات ومطلع الستينات ، حيث ظهر أدب يكاد يكون من خلق أولئك الشباب الذين أطلق عليهم اسم الشباب الغاضب والذين فتحوا عيونهم على تفجر الثورة الاشتراكية في العالم والسخط على القيم البورجوازية والأوضاع الاجتماعية وما يسودها من ظلم ؛ لقد عكست حركة الشباب الغاضب رفضاً قاطعاً للمجتمع القائم ، كما عكست الثورة ضد القيم السائدة في الأدب والفن والسياسة والجنس وعدم الاهتمام بقيم الامبراطورية وبسيادة كنيسة انكلترا .

وأدهشني وسرني سروراً هائلاً ، أنا التي نشأت في ظل الاستعمار البريطاني البغيض لبلادي ، أدهشني وسرني أن أعرف أن هناك كتاباً وأدباء وشعراء وفنانين معاصرين لا يؤمنون بالاستعمار ويبغضون العنصرية ويتهكمون على الملكية كنظام ، كالشاعر ديلان توماس مثلاً والكاتب جورج اورويل والرسام ديفيد هوكني ، هؤلاء وسواهم كرهوا الملكية والاستعمار وكانت لهم ميول اشتراكية كأكثر معاصريهم .

قبل الشروع في قراءة رواية «غرفة فوق السطح» للكاتب الشاب جون برين أشار أستاذ الحصة الى ما أطلق عليه اسم رواية اللابطل ، أو بمعنى أوضح الرواية التي لا بطولة لدى بطلها ، فهو انسان عادي جداً . ثم انتقل الى الحديث عن التحول الاجتماعي

الذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية وعن إنعكاس هذا التحول على الرواية الانكليزية الحديثة وعلى مختلف الفنون الأخرى ، فالموضوعات الاجتماعية هي التي تستقطب اهتمام الروائيين الشباب ، كحياة الطبقة العاملة ، والفوارق الطبقية ، والاهتمام بالتغير الاجتماعي ، والتأكيد على قيمة الفرد الخ ...

في تلك الفترة ، ولحسن الحظ ، جرى على أحد مسارح اكسفورد عرض لمسرحية جون اوزبورن (انظر وراءك في غضب) تلك المسرحية التي أكسبت مؤلفها شهرة واسعة في بريطانيا وأمريكا والتي جعلت اسمه يتربع على رأس قائمة كتاب المسرح المعاصرين بما أعطت للمسرح من دم جديد وعنيف راح يتدفق في شرايينه بعد خمود وجمود .

أحصى الأستاذ عدد الراغبات والراغبين في مشاهدة المسرحية ، وفي مساء اليوم التالي كانت مقاعدنا المحجوزة تنتظرنا في الوقت المحدد .

كان الاستاذ قد تحدث الينا عن موضوعها في النهار لكي يضعنا في جوها فتزداد متعتنا بمشاهدتها . وقد ظلت عيوننا وآذاننا مشدودة الى ما يجري وما يدور على خشبة المسرح منذ ارتفعت الستارة عن الفصل الأول الى أن أسدلت على آخر مشهد من الفصل الأخير . كان البطل صورة مجسدة للثورة والغضب والنقمة على القيم والأوضاع السائدة في المجتمع الانكليزي ، وكانت المسرحية في كل فصولها تنبض بالحيوية والحركة .

منذ ذلك الحين استقطب جون اوزبورن اهتمامي . وقد شهدت بعد بضعة أعوام في لندن مسرحيته «غرب السويس» التي رسم فيها صورة رمزية للامبراطورية التي انهارت وغربت عنها الشمس ؛ وفي قصيدتي (في المدينة الهرمة) إشارة الى تلك المسرحية .

بعد انتهاء الدورتين التحقت (بمدرسة سوان) القائمة في شارع بامبوري أحد الشوارع الرئيسية الكبيرة في اكسفورد . وكنت قد

انتقلت الى المنزل رقم (١٠) في «بينتون رود» لأقيم مع سيدة وقور في السبعينات من العمر اسمها «مسز فيتهام» .

في لقائنا الأول تم الاتفاق على أن ادفع اليها في نهاية كل اسبوع جنيهين ونصف الجنيه على أن أكون مسؤولة عن وجبات طعامي وتكاليف التدفئة . كانت صفقة رابحة بالنسبة لدخلي المتواضع ، وكان عليّ أن أعوّد نفسي على الاقتصاد في نفقات معيشتي ، فلم أكن اشترى من الملابس أكثر مما احتاج اليه ، كما اهتديت الى مطعم صينيّ صغير ، لطيف ونظيف جداً ، كنت أتناول فيه وجبة ساخنة شهية مقابل أربعة شلنات ونصف الشلن .

كانت مسز فيتهام قد سألتني في لقائنا الأول عما اذا كنت أحب مساعدة الآخرين ، وحين أجبتها بالايجاب قالت : انني كما ترين امرأة مسنة ، وأنا لا أستطيع مغادرة سريري في الصباح قبل أن أحتسي فنجاناً من الشاي الساخن مع تناول الفطور ، وستكون مساعدة انسانية منك لو جهزت لي كل صباح فنجان الشاي مع الفطور وأحضرته اليّ .

رحبت بالطلب كما سعدت به ، ففنجان الشاي هذا سيوثق علاقتي بها ، وهذا ما حصل فعلاً : علمتني طريقة تجهيز لحم (البيكن) ورحت أقوم كل صباح بإداء هذه الخدمة التطوعية . وأكثر من ذلك شرعت أقوم بشراء ما تحتاج اليه بين حين وآخر من خضار وفاكهة ولحوم . كما كانت تسألني مرافقتها الى الكنيسة في بعض صباحات أيام الأحد ، وذلك حين تكون في حالة ضعف ووهن ، فتتكيء على ذراعي طوال الطريق الى الكنيسة التي لم تكن على مسافة بعيدة . وحين أبديت لها ذات يوم ملاحظتي بصدد خلو الكنيسة الا من عدد ضئيل من المصلين أكثرهم من كبار السن قالت وهي تهز رأسها بأسف : «هذه يا بنيتي لعنة الحضارة المادية ، الدين هذه الأيام قائم فقط في الكنيسة» .

كانت ذكية ولماحة بشكل مذهل ، وذهنها الحاد لم تلسمه أصابع

الشيخوخة بعد بالرغم من تقدمها في السن . كان الاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية هواية ملازمة لها ، وكانت تعتبر الموسيقى الدينية أرقى أنواع الموسيقى ، تجلس الى جهاز الراديو الذي ما تجاوز صوته الخفيض قط باب غرفة الجلوس ، وتصغي بخشوع وانحطاف الى الأوركسترا السيمفونية وهي تعزف لباخ وهندل وسواهما . ولا أنسى يوماً رافقتها فيه الى كتدرائية كرايس تشيرش للاستماع الى جوقة مرتلين مشهورة كانت قد قرأت إعلاناً عنها في جريدة اكسفورد اليومية . في الحقيقة ، لا يمكن وصف جمال ذلك الاداء أو جمال تلك الأصوات ، لم أكن أصغي الى انشاد ينبعث من أصوات بشرية ، بل احسستني أحلق مع موسيقى الأجواء الكونية وقد اختفى كل شيء حولي .

كان العام الذي امضيته في (مدرسة سوان) باكسفورد من أحفل أيام حياتي بالسعادة والرضى ، فلقد نعمت ـ بالاضافة الى الفائدة التعليمية التي حصلت عليها هناك ، نعمت بصداقات جميلة لا يزال بعضها قائماً راسخ الجذور رغم البعد الجغرافي . ان للصداقة طعماً حلواً ودفئاً يستكين له القلب ، والصداقة الحقيقية انتصار من انتصارات الحياة ومكسب من مكاسبها ، ولعلها تفوق الحب فهي أطول عمراً وان كان الحب أشد تملكاً وتحكماً في عواطف المرء وإحساسه . ولكن من البديهي ان الناس لا يتشابهون في علاقاتهم البشرية . هناك الصديق الهيّن الليّن الذي لا يفرض عليك الأشياء فرضاً ولا يصر على شيء ، وهناك الصديق المتعب المتعنت والذي تتحول معه الصداقة الى عبء ثقيل . ما نفع الصداقة وأين حلاوتها ان لم تكن تجري بين قلبين كجريان الماء . أما المأساوي والمفجع فهو اكتشافنا ان هناك من الأصدقاء من تجردوا من أخلاقيات الصداقة ، ومن بلغت أنانيتهم مبلغها البعيد المفضي على ايذائنا والاساءة الينا ونحن في غفلة من الأمر . ولعل هناك حقيقة نفسية وراء بيت الشعر القائل : (احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة) .

على أية حال ، اذا كانت انكلترا قد أصبحت هوى لي منذ ذلك العهد البعيد فما ذلك الا بسبب الأشخاص الذين عرفتهم وأحببتهم هناك ؛ والانسان اذا أحب بلداً فإنما يحبه من خلال الناس الذين عرفهم فيه . ولعل الصداقة التي نشأت بين عائلة سوان وبيني من اجمل ذكرياتي هناك ، ولا تزال روابط تلك الصداقة قائمة حتى كتابة هذه السطور . قبل فترة ليست ببعيدة تلقيت من مسز سوان رسالة تذكرني فيها بأن لي أهلاً في اكسفورد ، ومن جانبي فلا بد لي كلما زرت انكلترا ، لا بد لي من زيارة تلك العائلة الصديقة ، ولست أنسى رسالة تلقيتها منها بعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة عام ١٩٦٧ تفيض بالمشاعر النبيلة وبالتعبير عن القلق من أجلي .

ومن أجمل الرسائل التي تلقيتها تلك التي بعثت بها اليّ عام ١٩٧٢ إحدى أعضاء هيئة التدريس واسمها الآنسة مورغان . إنسانة حنون ، دافئة القلب ذات نزعة صوفية إنسانية ، تؤمن بوجود الخير والحق في هذا الوجود وبشمول الاخوة الانسانية في النهاية والوحدة الانسانية رغم ما يبدو من تفكك الألفة بين الناس وعدم الترابط بين البشر . كانت تدعوني أحياناً الى شرب الشاي في منزلها وتحيطني بجو من الألفة التي تبعث الغبطة في النفس وتمحو الشعور بالغربة .

تقول في رسالتها آنفة الذكر : «لعلك تتساءلين عن هذه التي تفاجئك بالكتابة اليك . لكني لا أزال أذكر مشوارنا معاً في شمال اكسفورد ذات مساء ربيعي نتحدث عن الحياة ومشاكلها . والآن قرأت ترجمة لبعض قصائدك ورأيت بعض صور نابلس في التلفزيون ، وهكذا ترين الى أي حد أنت في تفكيري ، وكان عليّ أن أكتب إليك وأخبرك بهذا . من الأشياء الأساسية تذكير النفس بأنه لا يزال هناك الحب والثقة والتفهم والتقدير المتبادل مهما بدا لنا ان العكس هو حقيقة قائمة .

ماذا يستطيع المرء أن يقول لك ولبني قومك وهو قابع في بيته الدافىء المريح ، أنتم الذين تبدون وكأنما تحملون الوطأة العظمى لألم

العالم .

قد تبدو الكلمات صفيقة ، ولكننا نعرف بالتأكيد ان كل فكرة محبّة ، كل عمل من أعمال الرحمة ، كل اعتبار متسامح لانسان اخر ، إنما هو الموت والنهاية لكذبة العراك والنزاع التي تصارع لتبقى كما لو أنها حُمّى . ان الاتحاد هو في طريقه الى هذا العالم ولو كان من الصعب ملاحظته خلال معاناة آلام الوضع ، ولكن عملية الميلاد مستمرة ، وطفل توحد العالم سيولد من خلال الايمان والثقة والوحي لدى اناس كقومك» .

هذا يقودني الى الحديث عن الانطباع الذي تركته في نفس اقامتي هناك بالنسبة لطبيعة الانسان الانكليزي وما عرف عن قوة احساسه بفرديته وحبه لعزلته . انه شديد التحفظ (والخصوصية) ، لا يتكلم عن نفسه ولا يستحضر في أحاديثه موضوعات شخصية تشعرك بالحميمية وبالألفة الانسانية ، وتحفظه هذا ليس تجاه الأجنبي فقط بل تجاه الانسان الانكليزي نفسه . وعبارة (بيت الانكليزي قلعته) من أقوالهم المأثورة ، فهو لا يسمح لأحد بدخوله . ان الاسرة الانكليزية مرتبطة بالبيت ، ولا تحب تبادل الزيارات مع الجيران ، حبها يستأثر به بيتها وكلبها وحديقتها . ترى الجار يحيي جاره من وراء سياج الحديقة ، ثم يعلقان بكلمتين على حالة الطقس ، ولا أكثر من ذلك . ولكن أهل الريف يظلون أكثر وداً وتلقائية .

من جهة أخرى يبقى الانكليزي متحفظاً الى أن يثق بك ، فاذا حصل التعارف الحقيقي ونشأت الصداقة تصبح أنت جزءاً من الأسرة وتستمر العلاقة . ان القول بأن الانكليز غير عاطفيين وغير انفعاليين تدحضه فيما اعتقد حقيقة كونهم جنساً منضبطاً الى أقصى حد فلا يجاهر بأحاسيسه ، ولعل ذلك يرجع الى أسباب تاريخية واجتماعية . انهم يتعمدون إخفاء انفعالاتهم تحت قناع من البرود المصطنع .

***

لا تنحصر عندي قيمة السفر في الاستمتاع بالتحرر والاستقلال ؛ ان الشعور بالنقص الانساني هو الدافع الحقيقي الذي يدفعني الى السفر ، فهو النبع الزاخر للمعرفة . في السفر يتعلم المرء الكثير ، تتسع آفاقه ، يلاحظ ويراقب ايقاع الحياة المختلف بين كل بلد وآخر . في كل مكان وجه جديد للانسان الذي لا يتغير في جوهره . فهو كتلة مشاعر ومطامح ونوازع تتقلب بين الانتصارات والانكسارات .

كان أكثر ما أحببته ذلك الطابع الانكليزي المتجسد في الصوت الخفيض في أثناء الحديث وفي الصمت المخيم في الأماكن العامة كالحافلات وصفوف الانتظار ، لا ريب في أن البيت هو المدرسة الحضارية العظمى من ناحية تأثيره على الانسان المتمدن . كل العائلات التي عرفتها او عشت بينها تتحدث الى أطفالها بهدوء ، بصوت خفيض ، حتى في حالات التعنيف أو التأنيب . في الأحياء السكنية لا يكاد يسمع المرء غير أصوات الطيور الجميلة ، فاستعمال أبواق السيارات محظور حتى في الشوارع العامة المزدحمة بالعابرين الا اذا اقتضت الحاجة القصوى استعمالها ، وللحظة فقط .

أما الحب فعلى قارعة الطريق ، في الحدائق ، في السينما ، في كل

مكان . والقبلة بين الجنسين سهلة التناول ، بل قل رخيصة جداً ، وكأنها ظاهرة بيولوجية مألوفة كشرب الماء . قلت للسيد فيرنيش ذات يوم وقد لفت نظري فتى وفتاة في العشرينات من العمر يتعانقان على رصيف الشارع يتبادلان القبل دون الاهتمام بالعابرين ودون اهتمام العابرين بهما . قلت له ان للحب قدسيته وسريته وهو أمر خاص جداً فما بال هؤلاء اليافعين يجردونه من غموضه وسريته . قال : لندع هؤلاء يحيون حياتهم ويسعدون بها . الحرب علمتنا الكثير ، وغيرت بلاد التقاليد والبيوريتانزم . أنْ نصنع الحب أفضل من أن نصنع الحرب . ووجدتني أطرح على نفسي هذا السؤال : أي السلوكين أصح ، حرمان وكبت يكون نتاجها اهتزازاً في شخصية الفرد وانحرافات في سلوكه ، ام إطلاق الحرية بحيث لا يعود الجنس مشكلة الفرد والمجتمع معاً ؟

سؤال تصعب الإجابة عليه لشدة الفرق والاختلاف بين الفكر الغربي والفكر الشرقي ،فلكل بلد تقاليده وأفكاره ومبادئه وظروفه ، والشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ولا يلتقيان ، كما قال الشاعر كبلنج .

هذا ولعل تقلص الامبراطورية وانكماشها غيَّر الانكليز ، فالجيل الجديد يتهكم اليوم على تعبير (بريطانيا العظمى) ، وهو لا يمارس العجرفة التي اتسم بها جيل ما قبل الحربين ، ذلك الجيل الذي خرَّجه نظام المدارس الخاصة ، وكان نظاماً يهمل تنمية العواطف وينحو نحو الغلظة والقسوة لكي يقدم الى الامبراطورية الاستعمارية مترامية الأطراف ساسة تكلست عواطفهم وتحجرت قلوبهم . لقد أذهلني ان واحداً من الأساتذة الشباب كان يلقي علينا محاضرة عن شعراء الحرب العالمية الاولى والذين عرفوا باسم «الشعراء الجنود» ، وحين مر بقصيدة يهتف فيها الشاعر : انكلترا ، انكلترا ، انكلترا ـ مضى الاستاذ الشاب يتهكم على هذه العاطفية الوطنية المبالغ فيها .

***

قضيت رأس السنة ١٩٦٣ مع عجوزي المحبوبة مسز فيتهام لدى ابنة أخيها في ضاحية رامسدين من ضواحي اكسفورد ، واستمتعت بالضيافة وبالاشتراك في الاحتفال التقليدي البهيج في ظل شجرة عيد الميلاد المتوهجة بالمصابيح الملونة . بعد تناول وجبة الديك الرومي وحلوى البودينج أقبلت عليّ الابنة الطفلة (١٢ عاماً) وشقيقها (٩ سنوات) وبدءا يدردشان معي ، وكانت الدردشة أسئلة غريبة : هل لديكم كراسي في بلاد العرب ؟ هل تنامون على أسرة ؟ هل تشربون الماء بكؤوس بلورية ؟ قلت : ماذا تظنان ؟ وتذكرت أطفال عائلة فيرنيش وأسئلتهم المشابهة ... ان كلمة عرب لا تعكس في خيال الغربيين الا صورة الخيمة والصحراء والجمل . فتحتُ حقيبة يدي وأخرجت منها بعض الصور الفوتوغرافية المأخوذة في دارنا القديمة وكان معي بعض صور لمدينة نابلس أخذت من زوايا مختلفة وظهرت فيها بعض المباني الشاهقة وحديقة البلدية بأشجارها السامقة وأزهارها المتنوعة . فكانت الدهشة وكان الاستغراب . سألتني الطفلة ان أرسم لها شيئاً في دفترها ، أي شيء . رسمت بيتاً بدرج مع حديقة حول البيت . رأت الأم الرسم وسألتني ان كنا نعرف الدرج في بلادنا ... من الغريب أن تلتصق صورة الخيمة والصحراء بأذهان البريطانيين بهذا الشكل كأنهم لم يستعمروا بلادنا لعدة عقود . ان الشيء الوحيد الذي يعرفونه عنا هو تعدد الزوجات ، وهي الحقيقة التي لم أستطع تبريرها بحال من الأحوال .

يظل الانكليز بصورة عامة غير معنيين بما يجري خارج عالمهم البريطاني ، وباستثناء المتخصصين فالقراء العاديون هناك لا يقرأون في صحفهم سوى الموضوعات المتعلقة بما يجري في بريطانيا . وهذه حقيقة سلم بها أحد الأساتذة في مدرسة سوان حين واجهه بها بعض الطلاب الاوروبيين في الصف .

***

كنت حريصة طوال اقامتي هناك على مطالعة الصحف الانكليزية ، فالصحافة الى جانب الاذاعتين المسموعة والمرئية هي أفضل وسيلة نضع من خلالها أصبعنا على نبض الحياة الجارية على مختلف الأصعدة ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

كان في تصوري ان المرأة الانكليزية التي حاربت من أجل حق الانتخاب وانتصرت قد حازت على المساواة التامة بالرجل . واذا بالصحافة تفيض بأخبار حرب الجنس الساخنة جداً ، فالمرأة لا تزال تطالب بمساواتها مع الرجل في الأجر ، انها تقوم بنفس العمل والكفاءة كالرجل ولكنها تنال أجرا أقل لأنها بكل بساطة امرأة .. وكذلك فان الوصايا التي تقول : «مكان المرأة بيتها» و «المرأة يجب ان تُرى ولا تُسمع أو تفعل أي شيء يمكن أن يجرح غرور زوجها وخيلاءه» مثل هذه الوصايا كان هناك من لا يزال ينادي بها ؛ كما كان هناك من يحمل الفكرة التي تقول ان المرأة تابع يدور في فلك الرجل ، أو الفكرة التي تقول ان الوقت والنقود المبذولة على تعليم الفتاة هما وقت ونقود ضائعة ، فبالرغم من التعليم الحكومي المجاني كان لا بد لعديد من الآباء ، اذا أرادوا تعليماً جيداً لأبنائهم ، كان لا بد من التضحية المالية ، من هنا فان النقود المتوفرة تصرف على الولد بينما تترك البنت طليقة مع تعليمات لتبحث لها عن زوج ، هذا هو المفترض عموماً أن يحل مشاكلها في عالم لا يزال يؤثر الجنس الأخر بالفرص الممنوحة كما لو بحق سماوي .

حقائق كهذه فوجئت بها هناك . والى جانب صراع الأجيال المتمثل في الهوة السحيقة التي تفصل مفاهيم جيل الأبناء عن مفاهيم جيل الآباء ، كان هناك المرأة الغاضبة . ان جيل الشباب الغاضب لم يقتصر على الرجال فالمرأة تقيم الدنيا وتقعدها معلنة أنها تحب هذا أو أنها ضد ذاك . قد يكون ما يغضبها هو عقوبة الاعدام أو التجارب النووية أو التعصب العنصري أو الرأسمالية أو الشيوعية . مثل هذه المرأة الواعية ترى من حقها أن تقول كلمتها ، فان لها حصة في البلد الذي

يقول فيه جواز سفرها انها مواطنة . وكان في الحملة القائمة آنذاك من أجل نزع السلاح عدد من الأعضاء النساء اللواتي سعين من أجل حركة جماهيرية تؤدي الى العصيان المدني ، فقد كان الخوف شديداً من خطر حرب نووية .

في تلك الفترة كانت ادارة المدرسة قد هيأت لمن يرغب من الطلاب والطالبات فرصة مشاهد مسرحية (كما تهواه) التي كانت تعرض آنذاك على خشبة مسرح شكسبير في مدينة ستراتفورد . وصادف ان جرت في يوم موعدنا مع المسرحية مظاهرة عصيان مدني جماهيري في ساحة طرف الغار بلندن ضد الأسلحة النووية ، اشترك فيها رغم منع الحكومة لتلك المظاهرة آلاف من الرجال والنساء ، شيباً وشباناً . كان بينهم رجال دين ، طابعات على الآلة الكاتبة ، بناؤون ، تلاميذ ، أطباء ، أساتذة جامعات محاضرون . كانت ساحة طرف الغار مرصوصة رصاً بالناس رغم موجة البرد القارص ، والمتظاهرون محاطون بالشرطة والشرطة محاطة بالمشاهدين .

أما نحن فقد توجهنا في المساء الى ستراتفورد واستمتعنا بمشاهدة الممثلة المشهورة (فانيسا ريدغريف) ، التي أصبحت بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ صديقة حقيقية للقضية الفلسطينية ، استمتعنا بمشاهدتها تمرح وتمزح وهي في السترة الضيقة والبنطلون الضيق في غابة أردن .

في صباح اليوم التالي طالعتنا الصحف بصور وأخبار المظاهرة في لندن وكان من المثير لنا ، نحن الذين شاهدنا «فانيسا» في مساء اليوم السابق ، ان نقرأ عن مشاركتها في مظاهرة العصيان المدني ومغامرتها بالتعرض للتوقيف والسجن والاصابة بنوبة برد في حين كانت على موعد مع رواد مسرح شكسبير في مساء نفس اليوم . قالت فانيسا للصحافة حين سئلت عن مشاركتها ومغامرتها تلك : «كنت أدرك انني أحمل مسؤولية تجاه المشاهدين ، ولكني في نفس الوقت كنت على يقين من ان هناك مسؤولية أكبر تجاه ما نجرب عمله في هذه

الحملة» .

ولقد كان من حسن حظنا وحظ رواد المسرح الآخرين ان السلطات اكتفت يومئذ بتوقيف المتظاهرين ومن ضمنهم «فانيسا» ، ثم أطلقت سراحهم بعد الحكم عليهم بدفع غرامة مالية .

***

تملك الصحافة في بريطانيا تراثاً ديمقراطياً يتمثل بأروع صورة في الحرية المتاحة هناك للفكر والرأي . لا ينجو من النقد حتى أفراد العائلة المالكة اذا اقتضى الأمر ذلك . أكثر من هذا وابعث على الدهشة هو تلك الحرية في التعبير عن آراء جريئة تمس حتى جوهر الدين . يحضرني بهذا الصدد ذلك الجدل الذي شغل الناس في انكلترا على نطاق واسع أيام إقامتي هناك ، ذلك الجدل الذي أثاره مقال جريء لأسقف «وولوتيش» د. روبنسون نشر في جريدة «الاوبزرفر» قال فيه : ان الله الذي خلق هذا العالم والذي يمده بأسباب الحياة ويحييه ، قد أصبح وثناً معرقلاً أكثر منه مساعداً . وقد اشترك في الجدل العالم البريطاني سير جوليان هكسلي ، فعقب في أحد أعداد الاوبزرفر قائلاً ان مقال الاسقف «شاهد قوي على الثورة الفكرية التي نناضل من أجلها» وقد دعا هكسلي في مقاله الى دين جديد ، دين بلا اله ، معتقداً ان إعادة تنظيم جديد للفكر الديني أصبحت ضرورية ، والنموذج المتمركز على الله ينبغي تحويله الى نموذج انساني متمركز على التطور ، وأضاف يقول : «الى جانب ما دعاه نيتشه بإعادة تقييم القيم ، فلسوف نحتاج الى مصطلح ديني جديد وصياغة جديدة للمفاهيم الدينية الأساسية» .

نشرت هذه الآراء الجريئة وما هو أكثر منها جرأة ـ مما اتحرج من ذكره هنا ـ نشرت في الصحف الرصينة ، فماذا حدث ؟ لم يحاكم أسقف وولوتيش ولم يسجن ، لم يُكَفَّر هكسلي من قبل الكنيسة ولا

من قبل الدولة ولا من قبل الشعب ، لم تغلق جريدة الاوبزرفر لنشرها هذه الآراء المتطرفة ، بل استمر الجدل والنقاش حول الموضوع بهدوء واتزان وأعصاب مسترخية .

أما قضية الطاعنين في السن فكثيراً ما أثيرت في الصحف ؛ أولئك المتوحدون ، المعزولون ، الذين لم يعودوا قادرين على العمل . رجال ونساء شب ابناؤهم وتركوهم . ولعل قوة الشعور بالبيت تظهر أكثر ما تكون مثيرة للحزن والشفقة على وجوه اولئك المسنين الذي يملؤون غرف القراءة في المكتبات العامة ، حيث يتردد العديد منهم يومياً سعياً وراء الدفء والمقاعد ، بعضهم يقلب الأوراق بلا هدف ، بعضهم يحدق بنظرة فارغة في صفحة كتاب بين يديه لعدة دقائق دون أن يقرأ سطراً واحداً . آخرون يجلسون وينظرون في الفراغ في اللاشيء ، يعيشون ويتنفسون على السطح الخارجي للحياة ، على قشرتها ، يرى بعضهم بعضاً كل يوم دون أي تواصل ، انهم منفصلون انفصالاً تاماً عن الحياة التي كانوا جزءاً منها .

أما بيوت المسنين فقد اتضح لي انها لا تحل مشكلة الشيخوخة حلا جذرياً كما كنت أتصور ، ذلك ان تفكك الروابط العائلية في البلاد المتحضرة يترك نزلاء بيت المسنين في عزلة تامة عن العالم . ومتى شاخ الانسان هناك مل من وجوده الآخرون ولا يبقى من يهتم به . بعكس الحال في الدول النامية حيث لا تزال الألفة ولا يزال الترابط الانساني يمنحان الدفء لمن دخلوا في صقيع الشيخوخة ويخففان من شعورهم بالوحدة والاغتراب .

ليست قضية المسنين قضية مأوى وطعام وشراب فحسب ؛ ان دولة الضمان الاجتماعي والرفاه الاجتماعي تتكفل بتقديم هذه الضروريات لأولئك المسنين . لكن الوجه المأساوي للمسألة هو انفصالهم وعزلتهم عن العالم ، هو شعورهم القاتل بالاغتراب والوحدة . لا تزال ذاكرتي تحمل تلك الصورة المثيرة للشفقة والألم منذ رافقت السيدة فيتهام لزيارة صديقة لها مقيمة في بيت المسنين .

كانت البرودة والوحدة تسودان المكان ورائحة الشيخوخة والموت تغمر جوه الكئيب . وقفت مسز فيتهام عند باب غرفة نصف مغلق ، رأيت من خلال النصف المفتوح جسماً نسانيا ضئيل الحجم منكباً على وجهه فوق غطاء السرير . مع دخولنا الغرفة رفعت المرأة رأسها والتفت مستطلعة ، فلم تكد ترى صديقتها حتى هبت اليها واحتضنتها ، ثم دفنت وجهها في صدر مسز فيتهام مجهشة بالبكاء ، وراحت تغمغم وهي تنشج : وحيدة ، وحيدة . تقتلني هذه الوحدة . بعدها صادف ان قرأت ريبورتاجاً صحفياً عن بيوت المسنين انتهى بالتأكيد على الحقيقة التي تقول ان عيش المسنين في الاسرة أفضل من عيشهم في الملجأ .

أيامي في انكلترا لا تنسى .

في انكلترا عرفت الفرح الصافي ، وفيها ضربني الموت بالصاعقة .

كان منبع الفرح تجربة رائعة ، حلوة ، تقطر عسلاً ، تجربة غنية كأنما انفلتت من حدود الزمان وحواجزه لتصبح دقات القلب فيها هي المقياس الحقيقي للزمن . الحب يحرّك الحياة ، وان ساعة واحدة يعبّ فيها القلب من ينابيع السعادة يمكن ان تشمل دهراً من الغبطة والتفتح والفوحان . من الصعب توضيح هذا لمن يقيسون الوقت بالساعة في كل الحالات والمواقف ، ولا يستطيعون قياسه بالشعور والاحساس ودقات القلب . ان الحياة لا تحتسب الا بالاحساس والشعور ؛ كم هي جميلة انفعالات الحياة ، وهل نرجو أكثر من ان تكون لدينا القدرة دائماً على أن نحياها بشكل غير حياديّ .

كنت واثقة من الفراق ، من حتميته المؤلمة . كم قلت لنفسي : سأحمل حقيبتي غداً وأقول وداعاً أيتها البلاد الدائمة الخضرة ، ويا صيف انكلترا ما كان أغنى أماسيك المضيئة بالحب ، أماسيك ذات الأصيل الطويل ، وليلك المتشبث بستارة الغروب فلا يتركها تفلت قبل العاشرة . سأترك فيك جزءاً من حياتي ، سوف يؤلمني الحنين ، ولكني سعدت وأسعدت ، لقد حييت وجودي ولو لفترة محدودة ،

وهل حياتنا الا هذه اللحظات المعاشة بعمق ؟

كانت تجربة باهرة ستظل ذكراها تبعث بالدفء الى القلب طول الحياة والى ان ينطفىء هذا القلب في رماد الموت .

كان شقيق الروح A.G جنة لقيت في ظلها الهدوء والسلام ، والراحة والسكينة . انسان مؤنس ، وديع ، بجانبه كان يغيب شعوري الدائم بأني قد ألقي بي في عالم أقوى مني .

على ان شجناً ناعماً ظل يمازج سعادتي وأنا في ذلك الفردوس الارضي ، هكذا انا دائماً ، لا تكتمل السعادة في نفسي وشعوري ، ففي أوج غبطتي يتسلل خيط رفيع من اللوعة ليسحب نفسه على مدى وجداني كله : أين أنا غداً من هذه الجنة ؟ لو يقف الزمن ، لو انني أملك الامساك باللحظات الهاربة ، اللحظات التي تتساقط قطرة قطرة في محيط الزمن لتتلاشى فيه وتندثر ثم لا تعود ، لا تعود أبداً .

لن أنسى ذلك اليوم من صيف ١٩٦٢ .

ها نحن معاً ، نمارس رياضة المشي على طرف الغابة . السكينة تغمر العالم الأخضر حولنا ... الهواء شفاف كالبلور ... الطيور تنقض من شجرة الى شجرة وغناء طائر غير مرئي يحشد المدى بمذاق الشجن ... يرهف تغريد الطائر حسي ... يتسلل النغم الى حبة قلبي مشبعاً بالهدوء والعزلة ... تحتويني فتنة غامضة .

فجأة يأتيني صوت A هامساً خفيضاً : هذا الطائر نادراً ما يبدو للعيان ، انه يؤثر الاختفاء بين كثافة الأغصان ، نسمعه ولا نراه . قلت : تدهشني كثرة الطيور في انكلترا ، كثيرة هي بمقدار كثرة الغابات فيها . قال : هل سمعت برسام الطيور الانكليزي جون اودوبون ؟ كان هذا الرسام شديد الولع بالطيور وهو القائل ان الطائر والغابة مثل الرجل وزوجته .

الان ، وأنا أكتب هذه السطور ، تعود بي الذاكرة الى خريف عام ١٩٦٥ عام انتقالي من بيت العائلة القديم في السوق القديم بنابلس لاستقر بما تبقى لي من سنوات العمر في بيت صغير مستقل قام لي

بتصميمه جعفر ابن شقيقي ابراهيم . كانت المنطقة المحيطة بالبيت في ذلك الحين أرضاً بوراً ، خالية إلا من الصخور والتراب والأحجار ، معزولة عن حركة الحياة في المدينة لوقوعها في مكان ناء غير مأهول على الطرف الغربي من حضن جبل جرزيم .

في ساعة تأمل لفت انتباهي خلو المكان ، بل خلو المنطقة كلها من الطيور ، فلا رفة جناح ، ولا زقزقة طائر ، وكانت طفولتي قد تفتحت وشبابي قد اكتمل بين ثرثرة العصافير الصاخبة في الغدو والاصال ، حيث كانت أشجار الدار مأوى لها وملاذاً على مدار العام .

في تلك الساعة استحضرت ذاكرتي ذلك اليوم مع A على طرف الغابة ، وتذكرت قول رسام الطيور جون اودوبون عن الطائر والغابة .

هنا أدركت سبب هجران الطيور للمنطقة القاحلة ، فحيث هناك شجر هناك طيور . ومع اطلالة يوم عيد الشجرة مضيت اغرس حول الدار شتلات السرو والصنوبر ، العامل يحفر وأنا أزرع ، ورحت أراقب نموها يوماً فيوماً . أرعاها وأسقيها وأقيس مدى أطوالها كل بضعة أسابيع ، وكنت سعيدة فرحة بسرعة نموها ، وفي خلال عامين بدأت فرق صغيرة من الطيور تعرف طريقها الى شجيرات البستان الذي أصبح الان يضحك ضحكاته النضرة الخضراء ، ناهيك عن ضحكات الزهور المختلفة الأنواع والألوان .

هذه الملاحظة ، ملاحظة اقتران الطائر بالشجرة اتخذت فيما بعد بُعداً وطنياً في قصيدتي «الطوفان والشجرة» التي كتبتها بعد حزيران ١٩٦٧ ، فقد حمَّلتُ كلمتيْ الطير والشجرة فيها دلالات تشير من بعيد الى الأمل والتطلع الى الحرية والانطلاق من الحصار الصهيوني لوطني :

ستقوم الشجرة والأغصان ستنمو في الشمس وتخضر
وستورق ضحكات الشجرة
في وجه الشمس

وسيأتي الطير . لا بد سيأتي الطيرُ ، سيأتي الطير

خلال عطلة اسبوعية رافقت الصديق A في رحلة قصيرة الى لندن وكانت قد أصبحت هوى لي منذ الزيارة التي رتبتها «مدرسة سوان» في اوكسفورد لطلابها وطالباتها . وقد قيل لنا ان لندن العظمى ابتلعت الضواحي المحيطة بها ، فالعمران قد ابتلع الارياف ، ومع ذلك لم تبد لندن لعيني مجرد عمائر ضخمة وشوارع مكتظة بالمخازن التجارية ، فقد رأيت الحدائق التي تبلغ مساحتها مئات الدونمات تنتشر في قلبها ، والأشجار السامقة تظلل الأحياء والدروب ناهيك عن حدائق المنازل والحدائق الصغيرة هنا وهناك .

مضينا الى حديقة «هايد بارك» ؛ أخذ بيدي متجهاً نحو ملاذ للطيور أقيم هناك تخليداً لذكرى وليم هدسون (١٨٤١ ـ ١٩٢٢) ذلك الكاتب الذي ألف العديد من الكتب عن الطبيعة وعن حياة الطيور ، إضافة الى عدة نشرات كتبها لجمعية حماية الطيور . هنا تذكرت انني وشقيقتي أديبة كنا قبل سنوات قليلة قد قرأنا بشغف كبير قصة «البيوت الخضراء» لوليم هدسون .

لفت نظري في ملاذ الطيور نصب تذكاري من الرخام يتوسطه جسم عارٍ لامرأة شابة يحيط بها بضعة طيور قال A انها ريما Rima ، المرأة الطائر ، إحدى شخصيات «البيوت الخضراء» ، وهي تعكس في ذلك النصب التذكاري تصوُّر النحات سيرج ابستن لتلك الشخصية .

في معرض «تيت» TATE وقف بي A طويلاً عند الركن المختص بعرض أعمال الرسام المعاصر غراهام سذرلاند ، رسامه المفضل . A نفسه يمارس هواية الرسم ، وكان أول لقاء لنا على غير معرفة ولا ميعاد في معرض للرسوم في اكسفورد ساهم فيه بعرض لوحتين من اعماله . انه هو A.G. الذي أهديت اليه ذلك العام قصيدتي (اردنية فاسطينية في انكلترا) .

لديَّ ميل فطري نحو فن الرسم ، وقد ظل اللعب برسم الوجوه والدور والأشجار على ورق مسودّات القصيدة من العادات الملازمة لي في أثناء عملية نظم الشعر . لم أحاول تنمية قدرتي على الرسم ، باستثناء بعض المحاولات التي قمت بها أيام دراستي في مدرسة راهبات مار يوسف بنابلس حيث انجزت لوحات زيتية بإشراف الراهبة «الاخت زفرين» . وظل الشعر هو البداية والنهاية، والهدف الأول والأخير في حياتي . غير انني ظللت أملك القدرة على الاستمتاع والانتشاء بالفنون التشكيلية على مختلف أنواعها ومدارسها ، تماماً كاستمتاعي بالموسيقى ، فالموسيقى ، هذه اللغة التجريدية التي تخلو من المدلولات المحددة ، نستطيع ان ننفعل بها شعورياً ، ونحلّق في عالم معانيها ، دون ان ندرك هذه المعاني إدراكاً عقليا .

كانت صور سذرلاند غريبة ، تم فيها تشكيل المناظر الطبيعية بطريقة تثير الوحشة في نفس المشاهد . كان أغرب تلك الصور لوحة كبيرة اطلق عليها الرسام اسم «أصول الأرض» . لا أزال كلما زرت لندن أعرج بمعرض «تيت» وأقف أمام تلك الصورة الغريبة التي تقبع الان هناك معلقة على أحد جدران قاعة النحت ، وأحس بروائح الجنة تنتشر في الأعماق من جديد ...

وقدصادف تلك الفترة افتتاح الكتدرائية الجديدة في مدينة كوفنتري ، تلك المدينة التي دمرتها قنابل الحرب العالمية الثانية أواخر عام ١٩٤٠ . ذهبت مع A لمشاهدة البناية الجديدة ، وهي كما عرفت منه ، من أهم الانجازات الفنية في انكلترا منذ الحرب العالمية الثانية .

دخلنا الكتدرائية الجديدة مع الزائرين ، وهي قائمة بجانب برج الكنيسة الذي سلم وحده من الدمار . كان هناك تمثال للقديس «مايكل» وهو يحارب الشيطان ، وقد علمت من A أن ذلك التمثال كان آخر أعمال سير جاكوب ابستين الدينية . أما شباك

المعمودية فقد راح يغرق صحن الكتدرائية بفيض متوهج من الألوان ، وللألوان سحرها في نفسي منذ الطفولة ، انها تبعث في أعماقي بهجة كبيرة وانجذاباً غريباً ، وقد حدثت A يومها كيف كنت في طفولتي احمد الله دائماً على انه خلق لنا الألوان ، فكم كانت الدنيا تبدو قبيحة لو تجردت الا من اللونين الأبيض والأسود ، فلا سماء زرقاء ولا أشجار خضراء ، ولا فراشات ملوّنة ، ولا غلالات وردية يتدثر بها الافق عند الشروق وعند الغروب ، ولا ، ولا ، الخ .. وضحك A معجباً (بالتفكير الغريب لتلك الطفلة) كما قال ..

كانت أفواج الزائرين تقف مبهورة أمام طنفسة هائلة الحجم قال لي A انها من رسم سذرلاند ، صور فيها السيد المسيح على خلفية خضراء وقد طفح وجهه بالوداعة والسكينة ، وذلك بعكس صور سذرلاند الموحشة التي شهدناها في معرض «تيت» .

هذه المشاهدات وسواها كنت أسجلها في رسائلي الى شقيقتي «أديبة» ، ومن خلال تلك الرسائل استحضر الان تلك المشاهد وأحياها من جديد وانا أعيد تسجيلها في هذه المذكرات .

يا لتلك الأيام مع ذلك الصديق الرائع ما كان أغناها بالغبطة واكتساب المعرفة ، لقد كان لكل شيء مذاق خاص في احساسي ووجداني .

وكان هناك ، الى جانب هذا كله ، ذلك الشعور الملازم بتسرب الزمن والأشياء من بين أصابعي ، حيث تفلت منا المعطيات الجميلة فلا يبقى لنا الا الذكرى والحنين .

وابك على طائر رماه فتى — لاه فأوهى بسهمه الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت — فظل فيها كأنما كتفا
بكّر يبغي المعاش مجتهداً — فقُص عند الشروق أو نُتفا
كأنه في الحياة ما فرع الغصن وغنى عليه او هتفا

«ابو العلاء المعري»

في الوطن كان سوء الحظ القدري غيباً رهيباً مريعاً ، كان الموت متربصاً ، منتظراً لحظة وصولي أوج تجليات السعادة ليضربني بالصاعقة .

قبل وقوع الفجيعة بأيام قليلة رأيت شقيقي نمر في حلم غريب . رأيته يخرج من بيته في بيروت متجهاً نحو سيارة يجلس خلف مقودها شقيقي ابراهيم . وكانت أطراف سترة نمر تخفق الى الوراء بفعل الرياح الشديدة .

جلس نمر بجانب شقيقه وانطلقت بهما السيارة دون ان ينبس احدهما بحرف . صرخت في حلمي بلوعة حارقة : مات نمر : هذا ما أحسسته في الحلم ، موت نمر . ولعل عقلي الباطن كان يختزن تلك المعلومة المألوفة في تفسير الأحلام وهي التنبؤ بموت الانسان الحي اذا

رايناه في الحلم يذهب مع أحد الأموات . واستيقظت فوراً على أنّة عميقة مشبعة بحزن عميق .

من الغريب ان ذلك الحلم لم يتسم بأية مظاهر متناقضة كما هي الأحلام في العادة ، ولولا ظهور ابراهيم فيه وكان قد مر على وفاته أكثر من عشرين عاماً لما خرج الحلم عن المنطق في شيء ، اذ كانت صوره كلها منظمة ، فكأنه لم يكن خاضعاً لقانون تلك القوة الداخلية ، قانون اللاوعي الذي تخضع له كل أحلامنا .

بقيت اتململ في الفراش بين انين لا ارادي وبين غفوات متقطعة قصيرة ، والقلب مثقل بغم مثل كتلة من الرصاص . حاولت اقناع نفسي بأن الأمر لا يعدو كونه اضعاث أحلام ، وان من السخف الوقوع تحت تأثيره بهذا الشكل غير المعقول ، ولكن عبثاً ، وبقيت على خوف وتوجس طيلة الأيام القليلة التي سبقت وقوع الفجيعة .في الساعة الخامسة من مساء نهار الجمعة ١٩٦٣/٣/١٥ عدت الى البيت لأجد برقية في انتظاري استلمتها من يد مسز فيتهام بقلب واجف . ارتقيت السلم الخشبي ، دخلت غرفتي مبهوتة مرعوبة ، جلست أنظر الى البرقية لبضعة دقائق دونَ أن أجرأ على فتحها ، كان الرعب يشل أصابعي .

فجأة عنَّ لي خاطر مشجّع : لم لا يكون المضمون بشارة بقدوم احد الأهل الى انكلترا ؟ وفتحت البرقية .

العالم الخارجي يتلاشى ، ذهول ، خدر ، كل احساس لديَّ يصاب بالتوقف . لأول مرة في حياتي يستعصي عليَّ البكاء ، فراغ في الرأس ، فراغ في النفس ، كل شيء يترك مكانه لفراغ اخرس ؛ غياب ، انا وما حولي نغرق في الغياب ، لا حضور لشيء إطلاقاً ، فقط غياب ، والخبر لا معنى له ، كأنه لا يدل على شيء .

هبطت السلّم على غير وعي مني كالسائر في نومه ، لم أكد أفعل حتى عدت ادراجي ، فتحت شباك الغرفة ، موجة هواء ثلجية لطمت وجهي ، كان الليل قد هبط مثل ستارة من صقيع اسود .

قبل منتصف الليل راح جسدي يرتجف بقشعريرة عنيفة .. ها هو الفراغ يمتلىء بحزن عظيم . تهاوى جانبي الأيمن وسحبني ، فالتويت معه لا إرادياً ، التويت جهة اليمين ، وبدأت الوب دون ان أستطيع بحال من الأحوال الاستقامة في جلستي ، نفس الحالة التي عرتني ساعة تلقيت نعي ابراهيم ، وهكذا عرفت لم قرن الشعراء آلامهم وأحزانهم بالكبد : واكبدا قد تقطعت كبدي .

زحفت متحاملة وانطرحت على سريري ، هنا بدأ الينبوع الساخن المتفجر يتدفق ، حمداً لك إيها الينبوع ، لو استمر انحباسك لبخعت نفسي . دمع منهمر لا يتوقف للحظة واحدة ، شيء لا يصدق ، من اين كانت تأتي كل الدموع ؟ ثلاثة أيام متواصلة ، في بكاء متواصل ، شيء لا يصدق .

في الصباح طرقت مسز فيتهام بابي ودخلت مستغربة عدم اطلالتي عليها بفنجان الشاي : هل انت بخير ؟

كانت تحمل في يدها جريدة الديلي تلغراف . لمحت صورة اميل البستاني على صدر الصفحة الأولى مع كلمات بالخط العريض تعلن نبأ مصرعه في حادث سقوط طائرته الخاصة في البحر ببيروت مع د. طوقان .

حدقتْ في وجهي وقد رأت ما رأت من سوء حالي : بنيتي العزيزة ، ماذا هنالك ؟ وربطتْ بسرعة بين برقية أمس وبين ما انا فيه ، وانحنت تضمني بحنان ، ثم ألقت نظرة على النبأ المنشور في الجريدة . قالت : هل د. طوقان ... وألقيت برأسي على صدرها قبل أن تكمل السؤال ، فأدركت هي كل شيء .

***

كان نمر شقيقي وصديقي وحبيبي ، يحس بما أعانيه في حياتي ، يتعاطف معي ويهتم باهتماماتي . كان مولعاً بالشعر والموسيقى

بالرغم من تخصصه في علم الأمراض «باثولوجي» وتكريس حياته العملية لكتابة البحوث في موضوع تخصصه والمحاضرات التي كان يلقيها على طلابه في الجامعة الأمريكية ببيروت .

كان يحثني دائماً على الاهتمام بالأدب العالمي ، وكان أول معلم تلقيت على يديه بداياتي الاولى في دراسة اللغة الانكليزية .

هنا . وخلال الحديث عن نمر ، لا بد من ذكر صلة ادبية قامت لبضعة شهور بين الشاعر علي محمود طه وبيني .

أثناء إقامتي في بيت أخي ابراهيم في القدس عام ١٩٤٠ قرأت في جريدة «الأهرام» قصيدة لذلك الشاعر الذي ملأت قصيدته «الجندول» آنذاك آفاق الغناء العربي . رثى فيها ربان السفينة «كوريجس» التي غرقت في البحر أثناء الحرب العالمية الثانية والتي غرق معها ربانها بصورة درامية مؤثرة .

احببت القصيدة ، وحفظتها عن ظهر قلب ، ووجدتني أسيرة رغبة لا تقاوم في الكتابة الى الشاعر للتعبير عن شدة إعجابي بتلك القصيدة الانسانية المؤثرة

لمْ اطلع ابراهيم على الرسالة ، وذلك لسبب واحد ، هو تجنب الشعور بالحرج والاحباط أمامه في حالة إهمال الشاعر الرد على رسالتي .

ثم فوجئت بما لم أتوقعه ، كانت حفاوة الشاعر برسالتي كبيرة ، وقد اتبع رده بنسخة من ديوانه «ليالي الملاح التائه» ، وغمرَ فرحي بكلمات الاهداء لياليَّ وأيامي .

سر ابراهيم بكل هذا ، وطلب مني كتابة مراجعة لديوان «ليالي الملاح التائه» لأذيعها من الاذاعة الفلسطينية بالقدس . كتبت المراجعة بحماس لا حدود له ، وأرسلت نسخة منها الى الشاعر مع الاشارة الى تاريخ إذاعتها .

بعد إذاعة الحديث تلقيت رسالة منه يقول فيها ان نخبة من أدباء مصر ، وعلى رأسهم الأستاذ احمد حسن الزيات ، قد استمعوا اليَّ

و ... الخ .. من كلمات الثناء ، وكانت رسالته مشفوعة بقصاصات من بعض الجرائد المصرية «كالأهرام» و «المصري» تشتمل كلها على تعليقات مشجعة . وأسعدني جداً أن أفاجأ فيها بعد برؤية المراجعة منشورة في أحد أعداد مجلة «الرسالة» الصادرة في مايو أو يونيو ١٩٤٠ .

بعد عودتي الى نابلس اثر هجرة ابراهيم الى بغداد ، تلقيت أمراً من بعض أرباب العائلة بقطع أواصر تلك المراسلات الأدبية مع الشاعر المصري رغماً عن خلوصها من كل شائبة .

بعد سنوات حدثني الصديق الشاعر كمال ناصر عن لقائه بعلي طه في مصر ، قال ان الشاعر المصري سأله وأبدى استغرابه لانقطاعي عنه دون معرفة السبب . التزمت الصمت ، ولم أحدث كمال بالسبب . كان الحديث في تلك الأيام عن حقيقة أوضاعي التعيسة في البيت يملؤني ذلّاً وهواناً ، لذلك كنت اوثر كتمان تلك الأمور ، وهكذا مضى المرحوم علي طه الى العالم الآخر دون ان يعرف شيئاً عن الحقيقة المؤلمة .

بالنسبة لنمر كانت تلك الصلة الادبية مصدر سرور واعتزاز . كان يحب شعر علي محمود طه . وحين عاد الينا لقضاء العطلة الصيفية اتخذ من «ليالي الملاح» رفيقاً . وقد تركه ذات يوم في غرفة المكتب في مصبنة العائلة ومضى لبعض شأنه ، ثم عاد ليجد الصفحة التي كتبت عليها كلمات الاهداء قد اقتطعت من الديوان ، حيث اختفى اثرها الى الأبد ..

جاءني نمر معتذراً وفي عينيه ألم مكتوم . قال : ليس لك الا الصبر والاحتمال ، فالوالد لا يحب إثارة المشاكل معهم ، وما في اليد حيلة .

على اثر مصرع نمر أصابني توقّف نفسيّ وتملكتني وحشة غريبة لا تقبل الامتزاج بشيء أو بأحد ، لقد توقّفتْ بوصلة حياتي عن العمل .

أرسلت بضعة سطور الى الصديق A ادعيت فيها مجيء أحد أقاربي وعدم إمكانية اللقاء لفترة . لم أشأ أن أحدثه بما جرى . كان

حزني أكبر وأقدس من أن أبوح به حتى للصديق الوحيد هناك . من يستطيع ان يتعمق حزني ومدى فجيعتي ؟ لا أحد . كل إنسان يظل في حقيقة الأمر وحيداً : كل إنسان إنما هو إنسان وحيد في شقائه وفي حزنه وفي موته .

وكما تلتف جذور الشجرة وتغور في التراب ، هكذا غار الحزن العظيم في الأعماق . والتف بالصمت .

مضيت ألجلج في الشوارع الثلجية ، مسكونة بالحزن والموت . فيما الحياة تسير كعادتها ، والناس يتدفقون من اعلى ساحة سانت جايلز وأسفلها ورواد المقهى سعداء منشرحو الصدور ، كما لو كانوا في صالة رقص . كم كنت استغرب من قدرتهم على تبادل الحديث وعلى الضحك ، وكأني ما ملكت هذه القدرة قط .

كانت هناك صورة واحدة متخيلة هي التي تلازمني ، صورة الطائرة الصغيرة وهي تحاول الخروج من دائرة الموت ، خمس عشرة دقيقة في محاولة ميئوس منها ، بينما عناصر الطبيعة التي جن جنونها في ذلك الصباح تلعب بالطائر الحديد كما لو كان طائراً من ورق .. لا أحد يستطيع الوصول الى الأيدي الممدودة المستغيثة ، لا راحم لمتضرع مذعور ، لا منقذ من المصير المحتوم .. هل وعي لحظة هويّه في البحر ؟ هل كانت وحدته قاسية لحظة المواجهة مع الموت ؟ كيف بُترت ساقه ؟ هل احس بألم البتر ؟ لماذا يموت هذه الميتة العشوائية ؟ هل يخضع الموت للصدفة ؟ ما معنى ان يموت الانسان وهو في عز عطائه وخصوبته الفكرية ؟

هو ، نمر ، الذي كان تجسيداً حياً لتيار الحياة المتدفق ، مدفوعا في مسالكها بما سماه برغسون بالقوة الحيوية ، هو الذي كان يبارك الحياة ، ويقذف بنفسه فيها ، لا يكتفي بمحاذاة الأشياء بل يدخل في قلبها ، يحياها بكل الذكاء والعمق اللذين تميزت بهما شخصيته المتفردة ، لماذا ؟ لماذا يموت قبل الأوان ، ولماذا يموت بهذا الشكل

الفاجع .

وبدت لي الحياة اعتباطية ، وبدا لي العالم خالياً من العزاء ، خالياً من الهدف .

***

ظل الخوف عليه من الموت مسيطراً على وجداني منذ وفاة ابراهيم ، فقد كان هو البديل الوحيد . كان هناك إحساس خفي يفعل في لاوعيي ولا يرحمني . لماذا ؟ ألأني بطبيعتي دائمة الشعور بالخوف على أحبتي من أحداث الحياة ؟ ألأني بطبيعتي دائمة التفكير بمأساة الوجود الانساني ، مفرطة في إحساسي بمشكلة الوجود والموت ؟

قبل وقوع الحادث بخوالي شهرين ، كنت قد قرأت في ملحق جريدة «التايمز» الأدبي مقالاً تناول فيه كاتبه رواية اسمها «تحت البركان» للروائي الانكليزي مالكوم لاوري .اثار النقد فضولي فاشتريت الرواية ومضيت في قراءتها . كان المدخل اليها نشيد الجوقة في تراجيديا «انتجوني» لسوفوكليس ، يقول النشيد :

(كثيرة هي العجائب ، وليس هناك أعجب من الانسان . انه القوة التي تعبر البحر في الريح العاصفة ، يشق طريقه تحت أمواج تهدد بابتلاعه . انه ينهك الارض ، تلك الخالدة التي لا تعرف التعب ، ينهكها مستعيناً بالخيول على تقليب ترابها ، حيث تمضي المحاريث جيئة وذهاباً من عام لعام . يوقع في شبكة حبكها بيديه أنواع الطيور الجذلي ومجموعات الحيوانات المتوحشة ومخلوقات الأعماق البحرية . انسان ممتاز الذكاء . يسود بحيلته وحش البراري المتجول في التلال ، يروّض الحصان الجامح ، يضع النير في رقبته ، يروّض ثور الجبل الذي لا يدركه التعب .

علّم نفسه الكلام والتفكير السريع والسيطرة على الظروف ، علمها كيف تتجنب سهام الجليد والمطر العنيف حيث تصعب الإقامة في العراء . استنبط طرقاً للافلات من الأمراض . نعم ، انه لعلى

دهاء عظيم ، به يواجه كل هذا ، وبدون هذا الدهاء لا يواجه شيئاً مجيوءه محتم ، الا الموت : سيظل يطلب العون ضد الموت دون جدوى) .

عشت الشهور التي بقيت لي في انكلترا بأوتوماتيكية خالصة بالرغم من مشاركتي في النشاطات المدرسية المختلفة . كان في نيتي الاقامة في لندن بضعة أسابيع قبل العودة الى الوطن ، وكنت قد ادخرت من اجل ذلك بضع مئات من الدولارات جاءتني هدية من ابن شقيقتي وصديقي وائل طوقان وكان حينئذ عضواً في الوفد الاردني لدى الامم المتحدة في نيويورك . غير ان ما أصابني من هبوط نفسي وفتور تجاه الحياة تركني استقبل الأشياء بقلب بردت دماؤه وانطفأت شعلته . وهكذا عدت الى الوطن لأتركه بعد أيام قليلة الى مدينة الدوحة في قطر مع شقيقتي حنان وطفليها اذ كان زوجها عبد الرحمن عبد الهادي يشغل هناك وظيفة مساعد مدير في البنك العثماني .

مكثت هناك تسعة شهور وجدت خلالها العزاء في رعايتي للطفلين كرمة وعمر ، فقد كنت شديدة التعلق بهما . ليس هناك ما ينقذنا من ملاحقة أحزاننا ويخرجنا من ذواتنا كالأطفال وعالمهم الخاص المسحور . انه عالم البراءة والصدق والحرية ، العالم الذي لم يصبغ بصباغ التمويه والزيف ولم تنقسم فيه الحياة بعد . كم احب النظر في عيون الأطفال ؛ كلما نظرت في عيني طفل أحسست بمزيج من البهجة والاشفاق ، الاشفاق من اجل البراءة التي سيسرقها عالم الكبار بكل ما فيه من تشوّش وبشاعات .

صفحات من مفكرة
١٩٦٦ ـ ١٩٦٧

- ١ -

أحس بعبث الحياة وانعدام غايتها وأنا أقف هكذا . حائرة ، ضائعة . ضعيفة أمام تيار الموت القاهر .

كم يغيّر منا الزمن . هذا القلب الذي عاش الجنون سنين ، والذي كانت ديناميته العاطفية ترفض مبدأ الهدنة وتجرى في سباق مع الأيام لتجميع أكبر عدد من التجارب . هذا القلب أين ذهبت دماؤه ؟ وأين دفئه وفرحه ؟ أين ما كان يملكه من قدرة عظيمة على الحب ؟

آه القدرة على الحب ؛ أي حشد من أمجاد الانسانية تلخصه هذه العبارة .

كم يغيّر منا الزمن .

لم أعد تلك المخلوقة القديمة ، لم اعد تلك الانسانة التي كنتها قبل سنوات قريبة . ويخيل اليّ انه لم يعد فيّ شيء من ماضي حياتي إلا لمحات من الشبه تومض في نفسي على فترات متباعدة . هل شاخت روحي ؟ هكذا أحسها . الضحكة التي تنطلق مني أحياناً أعرف انها مزيفة بغيضة ، ليست لي . الجرح المفتوح في قلبي لا تزال تعاودني لسعته . أحاول أن أتغلب على حزني ، ولكنه حزن شرس فاتك لا يغلب ، انه حزن الفجيعة والموت .

التوقف يرهقني ، وأيامي تسرب بلا حس ، انني أضيع في زحمة السنين ، فمن يرد لي إحساسي بالأيام : يا الهي ، أعطني القوة لأعلن على هذه الحال بعض العصيان .

فقدتُ قدرتي على التعامل مع الانفعالات ، والقلب الذي غنى الحياة ، وكان قصيدة حب طويلة تستمر باستمرار الدواعي والاثارات يلقي سلاحه ويموت ، لا كما يموت الشاعر وعلى فمه أغنية ، بل يموت بصمت ، بحزن الفجيعة والموت .

- ٢ -

فتحت عيني على يوم العيد . مددت يدي الى مفتاح الراديو أديره فحمل اليّ صلاة العيد . غلبني التأثر فبكيت ، وكان البكاء صلاتي .

لست أدري مصدر هذا الشعور ، فلست متدينة ، ولا أهتم بالطقوس . صلتي بأمور الدين وكتبه ليست متينة الروابط . لي في الدين نظرة ، لكني في مناسبات أتساءل : لماذا لا يكون ايماننا خالصاً فنستريح ، أو تكون شكوكنا خالصة فنستريح أيضاً . أفكار تلاحقني لا سيما في المناسبات ذات الطابع الروحي .

حين يصاب بعض الناس بكوارث خاصة أو عامة تتزعزع في نفوسهم أحياناً أسس الايمان ، وتنهار اركان اليقين الذي رضعوه مع حليب أمهاتهم ، لكن يا لهول الوجود حين ينحسر مد الايمان عن النفس ، ويا لرعب الحياة حين نفقد اليقين .

الشك والارتياب في حكمة ما يحدث لنا ؛ حقائق الحياة وحوادثها التي تدحض القول بوجود العدالة ؛ ثم ، ثم هذا الحنين الأبدي في النفس الى الاستسلام المطلق ؛ كل هذا يبعث فينا إحساساً دراميا داخلياً ، ويثير فينا صراعاً لا ينتهي بين الشك القلِق الحائر ، وبين النزوع الى اليقين والتشبث بالايمان الضائع .

حين وضعتني صلاة العيد في تلك الحالة الروحيةتذكرت ما قاله العالِم النفساني «يونج» عن الاحساس الديني حين أكد ان هذا الاحساس لن يزول في الانسان على مر العصور واختلاف الاجيال . يقول «يونج» : ان هناك إحساساً دينياً يظل موجوداً في داخل الناس مهما تغيرت أفكارهم وآراؤهم الدينية .

بعد الظهر زارني أحد الأصدقاء . حدثته عن تأثري بصلاة العيد في صباح ذلك اليوم . صديقي مؤمن ومتدين ، يمارس الطقوس الدينية على أتم وجه ، وهو يعرف إحساسي الديني المعطوب . قال لي معقباً على حديثي : يخيّل لي ان الدمعة التي انحدرت من عينيك لم تكن الا بكاء على تلك الكلمة التي خفت ضوءها في قلبك ، وبخفوت هذا الضوء اختل عندك ذلك التناسق النفسي والانسجام الداخلي الذي يتمتع به المتدينون . على ضوء الدين يستطيع الانسان أن يفسر كل مشكلة ، وان يجد معنى لكل لغز ، وجواباً لكل سؤال .

قلت : وان يتحمل أخطاء الكون والفوضى التي تلفّ العالم . ما أسعد الذين أورثوا المعتقدات الى جانب اثاث بيوتهم ولم يحاولوا الخروج قط على تقاليدهم الفكرية .

قال : يا صديقتي ، لا تسمحي لعقلك بأن يصطرع مع قلبك . ما أبدع تلك الفكرة التي جاء بها الهنود ، الفكرة التي تقول ان الانسان يظل كائناً ناقصاً بدون المعرفة الروحية .

— ٣ —

التقيت بصديقتي (س) بعد غياب طويل ، وكان وفاض كل منا مليئاً بما استجد لها ولي بعد آخر لقاء .

عبر أحاديثنا المختلفة ذكرت لي كم يعذبها عمق الفجوة الشعورية والفكرية التي تفصل بينها وبين زوجها ، رجل الاعمال . قلت : منذ البداية ما كان لك ان تقبلي بمثل هذا الزواج غير المتكافيء ، فقد كنت على معرفة بعدم وجود أية وحدة فكرية أو شعورية توحد بينكما ، أو تربط أحدكما بالآخر برابط انساني حقيقي . قالت : كان زواجي هروبا من عقدة العزوبة التي يخلقها مجتمعنا الشرقي في نفس الفتاة العازبة في بلادنا .

أثار قولها دهشتي ؛ قلت لها ان مثل تلك العقدة لا تتكوّن عادة في نفس فتاة حققت ذاتها وأكدت وجودها في المجتمع ككاتبة ناجحة ومثقفة ممتازة عميقة مثلك ، وأبديت استهجاني لمثل هذا التفكير الذي تحمله . قالت : ولكن بهذه العين ينظر الآخرون في بلادنا الى الفتاة العازبة ، انهم ينظرون اليها كمخلوق محبط ، فاشل ، معقد ...

قلت : لست أقرك على ما تذهبين اليه بهذا الشأن ؛ ان عقدة العزوبة لا تتكوّن الا لدى العاديات من الفتيات ، أما ما يتحدث به الناس

العاديون عن عقدة العزوبة فانه لا ينطبق على ذات الشخصية المتماسكة التي استقلت اجتماعيا واقتصادياً ، وتحررت من الاحساس بالتبعية والضعف والخضوع . فهناك ، بالاضافة الى ذلك ، الكثير من النساء المتزوجات اللواتي يعانين من عقد نفسية لم يحلها الزواج ولن يحلها ، فالعقدة اذا وجدت أصلًا تظل تتحكم بالمرأة سواء أكانت عزباء أم متزوجة ، وهذا ما يؤكده لنا الأطباء النفسانيون . وهناك حقيقة اخرى ، وهي ان العقد النفسية ليست وقفاً على المرأة ، فهي تصيب الرجل اذا ما نشأ في ظروف غير طبيعية أو رافقت طفولته أحوال قاسية ، وتظل تتحكم بسلوكه وتصرفاته طوال حياته ، مثله في ذلك مثل المرأة سواء بسواء .

– ٤ –

عدت أمس الى مدينتي بعد رحلة الى القاهرة استغرقت شهراً .

حين أعود من سفر طويل وافتح باب منزلي تستقبلني رائحة غريبة موحشة ، انها رائحة الغياب ، رائحة الأماكن المهجورة غير المأهولة .

قبل ساعات انصرفت المرأة التي استدعيها بين اسبوع وآخر لتنظيف البيت ؛ لا أحب وجود عاملة في منزلي ، فوجودها يعكّر صفو أوقاتي . منذ عشت بمفردي وجدت عمل البيت بسيطاً وإنْ كان غير ممتع اطلاقا . أحياناً أعيش في الفوضى ، وذلك حين يضطرب في ذهني وقلبي مشروع أدبيّ جديد .

كم أحب السفر ؛ كانت السويد أول بلد أوروبي عرفته في اول فرصة تتاح لي لتلبية دعوة لحضور مؤتمر السلام العالمي المنعقد في استوكهولم في ربيع ١٩٥٦ . ان أجمل ما يحدث في مؤتمرات السلام العالمي هو هذا التفتح في النفس لكل ما هو انسانيّ على الصعيد العام . في نفس الرحلة تنقلنا بعد انتهاء المؤتمر بين موسكو وبكين لحضور احتفالات العمال في بكين . في كل مكان وجه جديد للانسان الذي لا يتغير في جوهره ، فهو كتلة مشاعر ونوازع ومطامح تتقلب

بين الانتصارات والانكسارات ، بين اليأس والأمل ، ويبقى الانسان هو الانسان ذاته المكون من نفس المادة والطبيعة ، المنتمي الى تلك الشجرة الواحدة ، شجرة الانسانية .

عودة الى القاهرة . ما أغرب قلب الانسان ! على غير ميعاد أو توقع وجدتني ألتقي فجأة بإنسان كنت قد أحببته قبل أكثر من عشرين عاما لم نلتق خلالها أبدا . كنت قد أحببته الى حد الرغبة في الموت ، كان أول حب واقعيّ وحقيقي ، وقف في نهر حياتي كحاجز هائل اعترض مسيره ، وأوقف جريانه ، حتى راحت مياه النهر تعلو وتعلو مع كل يوم جديد لتستحيل الى دوامة مخيفة ، تدور بي وتلفني وتفصلني عن العالم الخارجي من حولي : كنت أخرج في الليل الى السماء ، ارفع وجهي مستنجدة بها لتخلصني من تلك الدوامة الرهيبة .

التقينا ، ولدهشتي وجدتني اسلم عليه بنفس الحيادية الشعورية التي أصافح بها أي شخص لم تربطني به يوماً أية عاطفة .

نظر اليّ مصدوماً ، ورجعتُ ببصري ألقي نظرة على أعماقي .. قالت لي الأعماق : هذه هي الحياة ، في كل لحظة من لحظات عمره يولد الانسان جديداً ويترك وراءه شخصية غير شخصيته في لحظته الحاضرة ..

أوليس هذا ما تقول به الفلسفة الحديثة .

لا أريد أن أتفلسف . ببساطة أقول : ان نهر حياتي يسير ، ولن أسمح لأي حاجز باعتراض مسيره وايقافه عن الجريان بعد تلك التجربة المهلكة .

وما أغرب قلب الانسان ! وقفت في القاهرة بواحدة من تلك المكتبات التي تعرض كتبها على أرصفة الشوارع . رحت ادور ببصري في عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها باحثة عن جديد . عثر نظري ببعض كتبي .

أستغرب دائماً من الحيادية الشعورية التي أحسها تجاه كتبي كلما رأيتها معروضة في المكتبات . فبعد أن يخرج الى الأسواق اخر انتاج لي ، يصبح ذلك الانتاج شيئا ، لا بل جزءا من حياتي لم يعد يعنيني أمره ، وكأنني لم أكتبه بطموح عظيم ، ويستمر تطلّعي واهتمامي بما لم أكتبه بعد .

- ٥ -

وقفنا معا ، هي وأنا ، في حضن الجبل ، وثالثنا الصمت . كانت الطبيعة ترتجل قصائدها وتبثها في كل مكان حولنا . تبارك مبدع الجمال .

قالت وفي صوتها رائحة حزن خفيفة : مشاعري اليوم يحركها الجمال . هل استطعت يوماً ان تحدّدي بالضبط شعورك تجاه الجمال ؟ أما انا فلا أستطيع ، لا أملك أمامه الا ان اغمض عيني لأمنع الشجن من أن يظفر منها .

قلت : انك تذكرينني بذلك الفنان الذي عاش عمره متعبدا في محراب الجمال الى حد تدمير الذات ، تذكرينني بأوسكار وايلد حين قال : «الجمال يبكيني» .

وعدنا للصمت ، وللصمت عبقريته الجمالية التي تنطق بألف فكرة وعاطفة ، ولكن من أين لامرأتين تلتقيان بعد طول زمن ان تصبرا على الصمت الجميل أكثر من خمس دقائق ؟ لقد عادت هي وحركت سكون الصمت بقولها : أشعر بالشجن العميق أمام الجمال ، شجن تمازجه اختلاطات من ذكريات قريبة وبعيدة ، أدفع بها الى اغوار نفسي ، واخالها انسربت ، راحت ، ماتت ، وفجأة أجدها تتجمع إزاء

منظر جميل لتندفع الى سطح إحساسي من جديد ، لتؤلمني وتفرحني في آن واحد ، وتمتزج في أعماقي درامية الدمعة بنعمة المعاناة كأنني اغبط نفسي على انها كانت ممن سخت عليهم الحياة بالتجارب ، وكان هذا كله اغناء مباشرا للألم في نفسي ، وكأنني بعد هذا احب آلامي وأقدر شاعريتها ، فهي لا تنتصب أمامي الا اذا كانت هناك صورة ناطقة للجمال .

قلت لها انني أشاركها هذا الاحساس ، فالفرح ابن ساعته ، يستهلك لحظاته ويمضي معها ، أما الألم الذي تعتّقه الأيام فانه يكف عن ان يكون لذع جمر ، وإنما يصبح شجنا عريضا ، عميقا ، تنام فيه تجاربنا حتى تستدعيها ذكرى او يثير حسها النائم منظر جميل .

كانت الشمس ربيعية دافئة ، وكانت معاناة الشجن تطفو ظلالها على عينيها ، وهناك على سطح بيت قريب ، كانت تقف امرأة ضخمة ، هائلة الحجم ، تحتضن تحت أبطها خسة تمضغ أوراقها ورقة ورقة فيما هي تتصيد ضوء الشمس ببلادة مضحكة .

قلت وأنا أواري ابتسامة ماكرة : أنظري هناك ، بين معاناتك وبين خسة تلك المرأة تكمن المفارقة العجيبة بين الناس .

كم ارتاح الى هذه الصديقة المريحة والتي أتنفس معها بطلاقة ؛ أكثر ما يشدني اليها هو الاطمئنان الى وفائها الحقيقي . انها ليست صديقة مراوغة في حال من الأحوال ، والذي عرف الفجيعة في الصداقات والذي عانى مراوغة الأصدقاء يقدر نعمة الصداقة التي تنبت على أرض من الثقة والصدق والاطمئنان . اذ لا صداقة حقيقية مع التحفظ والتوجس والحذر .

ـ ٦ ـ

يعتقد بعض مفكرينا انه ينبغي لنا نحن العرب أن نعقد هدنة مع الشعر والتاريخ والقصص ، وان ننصرف بكل طاقاتنا الى العلم والصناعة ، يعني الى الحضارة المادية .

كم تثير استغرابي هذه الفكرة . لست أنكر قيمة العلم والصناعة وكونها من أهم المقومات في حياة الأمم في العصر الحديث ، ولكني لا أفهم لماذا ينبغي لنا أن نجعل من الفرد العربي (آلة) لا روح فيها ، او «شيئاً» نسكت منه جزءاً لنحرك الجزء الآخر . ان العلم والفن حركتان تمثل كل منهما جانباً من أعظم جوانب النشاط الانساني الذي عرفته الحضارات المختلفة . والفن عموماً ، بجميع فروعه ، مظهر حيّ من مظاهر الحياة وتعبير صادق عنها ، ومن العبث ان ندعوا الى وأد الفن ، لأنه شيء لا يموت الا اذا ماتت الحياة على الأرض .

من الخطأ ان ندعو ـ نحن العرب ـ الى عقد هدنة مع الادب ، متجاهلين أو جاهلين ان مشاريع المستقبل في أمة من الأمم لا يخططها ويرسمها الا أدبها . ان الانتفاضات الواعية . والصراع من أجل الحياة الكريمة الحرة لا يمهد لها الا الادب . فبالأدب والفن عموما تتيقظ الكبرياء وتعلو الهمم ويشمخ البناء النفسيّ في أبناء الأمة .

لقد كان لقصة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم أعظم الاثر في نفس جمال عبد الناصر كما قال فقد كانت من الكتب التي ساعدت على ايقاظ روحه وتفجير قواه النفسية في مطلع صباه الأول .

لا يمكن لأمة يصاب أدبها بالعقم والجفاف ، ان تفرز شيئا من الخير الانساني لنفسها أو للبشرية مهما بلغت من الرقي العلمي .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، من منا يجحد ما تضفيه الفنون على الحياة من جمال وزينة ، الا اذا كان يعوزنا الكثير من تفتح القلب والروح .

- ٧ -

التقينا أمس على غير ميعاد . انسان غريب الديار ألتقي به لأول مرة . قلما ألبي الدعوات الى حفلات الكوكتيل ، فالناس في مثل هذه اللقاءات لا يبهجونني ولا يسلونني . ما الذي جعلني ألبي هذه المرة .

بقي معي معظم الوقت . تحدثنا كثيراً في السياسة . في هذه الأيام يستيقظ حسي السياسي من غفوته بشكل عجيب .. اختلفت مع «الرجل الغريب» في الرأي إختلافاً جذرياً . فتح أشواقي في آخر السهرة وبعث فيها حرارة جديدة .. أحلى ما في الحياة تلك اللحظات التي تتجاوز المواعيد لتفرض نفسها بكل دفعة الحياة التي فيها ...

اجتاحتني يقظة عاطفية عرفت انها آنية .. ماذا يهم . حسبي هذا الانفعال الجميل ، أليس يعطيني المزاج لأعيش قصيدة جديدة .

لا أستطيع أن أفسد حلاوة اللحظة بأي مسلك تمثيلي ، فحين أكون كتلة انفعال أستجيب لحلاوة اللحظة بكل كياني الروحي والجسدي .

لم أؤمن يوماً بأن حياة المرء العاطفية تنتهي بانتهاء عاطفة معينة . بل أنا أشعر أنني أقوم برسالة حواء .. وهذا كفيل بأن يدخل على روحي تجدداً وتغييراً أقله التوازن الداخلي .

اتصل بي اليوم وتواعدنا على اللقاء في القدس .

- ٨ -

عدت الى القصيدة التي كتبتها قبل أيام . من عادتي أن أترك القصيدة بعد نظمها ، ثم أعود اليها بعد أن تكون قد اكتسبت منظوراً زمنياً ، فأعدل فيها قليلاً أو كثيراً .

- ٩ -

أحس في نفسي تفتحاً للكتابة هذه الأيام ، وأشعر بحنين الى تحطيم رتابة حياتي ، الى انعاشها ، الى شحنها بضوء الشمس .. أحس برغبة طاغية في معانقة الحياة .

هذا الربيع الذي ينفث شباباً يوقظ سطوة الحياة في كياني كله .

الآن عدت من مشوار . كان القمر مكتملاً والهواء محملاً بخليط غريب من عطور الياسمين والورد الجوري وزهرة «النسيم» مما تتنفسه حدائق المنازل المحيطة .

خلال مشواري كنت أقف لأتملّى من الأرض ، التهمها بحسي ، اعب من هوائها حتى الارتواء ، اتطلع الى الجبال وأتمنى ان ينتهي عمري عند إحدى قمم عيبال أو جرزيم .

ان الموت شهي في مكان تبعث الأجساد في تربته زهورا وزعترا برياً .. ويا ما أجمل بلادي . كيف يمكن أن أموت على غير أرضها .

آه أيها اللاجئون الأحباب ، ما أقسى أن يموت المرء غريبا في غير

أرضه ، ففي أرض الأجداد فقط يحس الانسان بنمو في انسانيته وتوافق بينه وبين الحياة من حوله .

خلال مشواري حمل اليّ الهواء صوت فيروز ينساب ناعماً حنوناً ، محمولا على هودج اثيري : «سنرجع يوما الى حيّنا ...»

يشعرني صوت فيروز في أغانيها التي عبّت من الينابيع الفلسطينية أن لحياتنا ثباتها ، وأنه ، مهما توزعتنا الظروف ، فسنظل مشدودين الى ذلك الوطن الغالي المسروق . حين أصغي الى غنائها عن بلادي يتوهج الجانب العاطفيّ من ذاتي ، فأرى بلادي أحلى مما هي ، وأحبها أكثر مما كنت أحبها ، وأحس بفجيعة فقدها كما لم أحس من قبل ، وأحب كل الوجوه التي تعرض لي في شوارعها وأسواقها القديمة وحوانيتها ومدارسها ومصانعها وحقولها وأتذوق طعم الانتماء الى شيء ولو كان مفقوداً .

حين أصغي الى صوت فيروز في فلسطينياتها أجد الشمس في قلبي وأعرف ان الليل موجود فقط في الخارج .

ـ ١٠ ـ

تلقيت رسالة من الصديق نزار قباني ، تنقل اليّ عزمه نهائياً على ترك الحياة الدبلوماسية والانصراف الى العمل الأدبي الذي سيظل قدرنا الأوحد والأجمل . ولهذا قرر تأسيس دار نشر في بيروت تتولى نشر آثار هؤلاء الذين كانوا سفراء جمال وخصب وخير في الدنيا العربية . وطلب اليّ تزويده بآخر مجموعة شعرية لي لم يسبق نشرها .

كتبت اليه أشكره على وجوده الفني الجميل في هذا العالم ، واعتذرت لتعاقدي السابق مع الدكتور سهيل ادريس .

ـ ١١ ـ

عدت من القدس في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . استيقظت اليوم حوالي الرابعة صباحاً ، نشيطة ومرتوية نوماً . تناولت القهوة في البستان . رحت أنظر الى الأشياء حولي بعيني مريض يمر بدور النقاهة .. كل منظر أمامي جديد ومدهش . كيف كنت أعيش مع هذا الجمال كل يوم دون أن أراه ؟

ـ ١٢ ـ

زارني اليوم الصديق «ل ..» . قرأنا معاً قصيدة منشورة في «الآداب» للشاعر محمود درويش . استعصى علينا فهم بعض الرموز الفنية . قلت للصديق اننا لا نستطيع ان نأخذ رموز محمود درويش معزولة عن مشكلاته الشخصية في واقع حياته وتجارب هذه الحياة وصراعها مع البيئة التي تحيط بالشاعر . ونحن لا نعرف الا القليل عن حياة محمود وظروفه وتكوينه النفسي .

قال الصديق : ولكن العمل الفني يبعد عن شخصية صاحبه وبيئته .

قلت : كيف نستطيع ان نفهم هذا البعد اذا لم نبدأ بفهم شخصية الشاعر وظروفه وبيئته ، وبعد ذلك نستطيع ان ندرك الى أي حد استطاع الشاعر في فنه ان يبعد عنها . ولعلك متأثر بآراء ت. س. اليوت في قوله ان الفنان لا يستعمل فنه للتعبير عن ذاته ، بل لمحو هذه الذات . ولكن اليوت عاد بعد سنوات وعدل هذا الرأي وصححه واعترف بخطأه .

ان معرفة التجارب «الخام» ضرورية لكي نرى الى أي مدى نجح الشاعر في إحالة هذه التجارب واستغلالها في عمله الفني ، وبالنسبة لمحمود درويش فان حياته وظروفه وثيقة الصلة بشعره ، والمعاني الانسانية عنده تنبع صورها من صميم تجاربه الحياتية .

ـ ١٣ ـ

هجوم عنيف تشنه قوات الجيش الاسرائيلي على قرية «السموع» : المستشفى فيها والبيوت تدمر بالديناميت : القتلى بالعشرات ، والجرحى والخسائر كثيرة . سكان «السموع» كلهم لاجئون منذ ١٩٤٨ .

المظاهرات العاصفة تعم مدن الضفة الغربية . المتظاهرون يطالبون بالتسلح والتدريب على القتال . تعلن حالة الطوارىء ويتدخل الجيش دون جدوى . وقوع قتلى بسبب اشتباك الجيش مع المتظاهرين .

الدول العربية ـ ما عدا السعودية ـ يملؤها الغضب من الملك حسين لأنه رفض انطلاق رجال منظمة التحرير الفلسطينية من الأراضي الاردنية . كما أغلق رئيس وزرائه وصفي التل جميع مكاتب المنظمة .

ـ ١٤ ـ

الرجعية العربية تزداد قوة يوماً بعد يوم ، بفضل انبثاق الثروة في بقع من الرمال ... والتقدمية العربية لم تزل طفلة تفتقر للأسلوب والنظام .

عالم من الضجيج ... أبحث فيه عن بريق فلا أسمع إلا أصوات المذياع من كل الجهات ، أشبه بكابوس ...

ـ ١٥ ـ

آه من هذه الاذاعات العربية . متى ينتهي كل هذا الصراخ ؟ في العصر الحديث تقاس درجة تحضر الانسان بضبط النفس ، وانسان العصر يخفي مشاعر الألم والغبطة التي يحس بها . يكبت ألمه اذا تألم ويضحك ضحكة خافتة اذا ما ضحك .

نحن لا نزال نصرخ اذا ما تحدثنا ، أو بكينا ، أو ضحكنا ..

ـ ١٦ ـ

دعاني «الصديق الغريب» للعشاء في منزله مع بعض الأصدقاء . في آخر السهرة اتخذنا لنا مقعداً في زاوية منفردة من الصالون . تطرّق بنا الحديث الى موضوع «السموع» والسياسة بصورة عامة . قال لي : كنت أظنك غارقة في لامبالاة رواقية فيما يتعلق بالأوضاع الراهنة في البلاد العربية .

قلت له ان نفوري وعدم مشاركتي في خوض المعمعة السياسية لا يعني انني لا أحسها أو أحيا لعنتها التي تحوم فوق رؤوسنا . انني كغيري ، وهم كثيرون ، نقف مشدوهين بالواقع من حولنا ، وبحرقة قلب عرف الألم والمأساة ما نزال نبحث عن معنى كل هذا الذي يدور حولنا ولكن عبثاً . ان حصيلة الواقع المعاش حصيلة مؤلمة وتعيسة ، ونحن نعيش هذا الواقع البائس في كل لحظة من لحظاتنا .

- ١٧ -

وقع اليوم في يدي كتاب يضم بعض أعمال الفنان الاسباني «جويا» استوقفتني من بينها صورة مرعبة . قبر خططه الرسام باللون الأسود ، تمتد يد من تحت غطائه لم يبق منها إلا العظم ، حتى تصل الى لوحة سوداء وعلى هذه اللوحة راحت الابهام تخط الكلمة الاسبانية (نادا) «لا شيء» .

حقاً ان الفناء جزء من كياننا ، ولكن الفن خالد . وفي إحساس الفنان بطغيان الفناء وبالمصير الزائل ما يحدوه دائماً الى ابتداع شيء أكثر دواماً منه .

كان «جويا» دائماً يقسم البشرية الى فئتين ، احداهما جديرة بالرحمة والشفقة ، والثانية جديرة بالمقت والغضب ، اذ كان يعتقد ان مأساة انسان ما هي من صنع انسان ما آخر .

يبدو ان الحرب والضغط والافلاس الخلقي وكل هذه الأشياء القبيحة التي أوحت الى جويا بأكثر أعماله ، هي التي وجهته نحو الأخلاقية في الفن ، فقد كان الفن عنده وسيلة لنقل أفكاره وخيالاته أكثر مما هو غاية في ذاته .

- ١٨ -

أمضيت النهار كله مع (الصديق الغريب) في القدس . قاد السيارة في دروب لم أعرفها من قبل . تحدثنا كثيراً ، وصمتنا كثيراً .. سألني عن حياتي وأيام صباي الأول ، حدثته عن تعاسة ذلك الصبى الأول ، ثم عن خروجي الى الحياة وعن أيامي التي لا تنسى في انكلترا ، تلك الأيام المغموسة بالفرح والدموع .

شدني اليه بحنان وحب ، واستكنت اليه كطائر أعزل من كل حماية .

- ١٩ -

الجو العام في البلاد العربية ينذر بالشر . لا أشعر بأي استقرار أو بأي طمأنينة الى المستقبل . هناك شيء منخذل ومنحدر سلفاً . هذا هو إحساسي الباطني .

الأنباء تتحدث عن حشود اسرائيلية على الحدود السورية ، وعبد الناصر يعقد معاهدة دفاع مشترك مع سوريا . التوتر يزداد يوماً بعد يوم . عبد الناصر طلب من يوثانت سحب القوات الدولية من خط الهدنة . عبد الناصر يعلن عن إغلاق مضائق تيران .

لن تقف اسرائيل مكتوفة الأيدي . في الجو رائحة غريبة .

- ٢٠ -

عبد الناصر يعقد مؤتمراً صحفياً يقول فيه : «اذا أرادت اسرائيل الحرب فنحن نقول لها أهلاً وسهلاً ونحن مستعدون» .

مفاجأة غير متوقعة ، الملك حسين يطير الى القاهرة على حين بغتة . كلُّ واحدٍ منا معلّق قلبه بشعره .

- ٢١ -

الملك حسين يضم توقيعه الى توقيع مصر وسوريا على معاهدة الدفاع المشترك . امتلىء بيأس خفي وخوف من انكسار جديد يسحب عصب القوة من الشعب العربي . كان عصب الشعب مسحوباً حين وقعت مأساة ١٩٤٨ .

ـ ٢٢ ـ

تلقيت رسالة تلفونية تدعوني الى لقاء عاجل وضروري مع «الصديق الغريب» . ذهبت الى القدس فوراً . نصحني بترك نابلس الى عمان أو بيروت فالحرب واقعة لا محالة وبأسرع مما أتصور . قلت : أموت على عتبة بيتي ولا ألجأ الى بلد آخر ، محال .. قال : أخاف عليك ، انني أحترم موقفك هذا ولكن تذكري انك لسـ ... لنفسك .. أنت للآخرين ، وهذا قدرك ، يجب ان تظلي للآخرين . قلت له : هذا بالنسبة لي يعني الهروب ، ولن أهرب .

كان في تقديره ان المجزرة ستكون مخيفة بين رجال المقاومة في نابلس وبين الجيش الاسرائيلي .

فكرت في نفسي : هل سيكون هناك مقاومة في بلد جرد أهله من السلاح منذ تسعة عشر عاماً .اعدت الى نابلس بقلب مثقل بالغم . حاولت إقناع شقيقتي بالذهاب الى عمان مع أطفالها ولكنها رفضت وقالت «أموت معكم أو أحيا معكم» .

ـ ٢٣ ـ

هبطت الفضيحة على الأرض العربية .. انهزمنا .. خسرنا الحوب .. أحزاننا لا تطاق .. الاعلام البيضاء تلعب بها الرياح على سطوح المنازل .. أصبحنا محتلين من قبل الجيش الاسرائيلي .. اخرجتني الصدمة عن حدود الواقع ..

حزينة أنا حتى الموت !

ـ ٢٤ ـ

فوجئت بصديقي الغريب يزورني على غير توقع بعد مرور سبعة أيام على احتلال المدينة ، كنت كنت مريضة محمومة .

جاء يطمئن عليّ ويسألني ان كنت بحاجة لأي شيء .. شكرته والدمع في عينيّ . كان حزنه هو الآخر عميقاً وصادقاً .

ـ ٢٥ ـ

شهر مضى على الاحتلال . لا أستطيع ان أكتب بيت شعر واحداً .

ـ ٢٦ ـ

شهر آخر مضى ولا أكتب شيئاً .. صمت .. وصمت مستمر ، لكنه صمت واعٍ ، منتبه ، وليس غياباً أو فراغاً .

ـ ٢٧ ـ

انكسر طوق الصمت : كتبت خمس قصائد ، أشعر ببعض الراحة ..

سأكتب ، سأكتب كثيراً . أحس أنني أعيش كل دقيقة من زمان لمسرحية ، ويهزني كل فصل من فصولها ، فاذا بي أنا نفسي قصيدة ملتاعة ، كئيبة ، آملة ، تتطلع الى ما وراء الأفق !!

الهوامش

١) تاريخ جبل نابلس ، الجزء الثالث ـ تأليف احسان النمر .

٢) في تقرير عن تاريخ الابنية المدرسية في نابلس يقول المربي العربي الفاضل الاستاذ ابراهيم صنوبر «انشئت في العهد العثماني المدرسة الابتدائية للبنين ـ مدرسة خان التجار ـ والطابق الأرضي من المدرسة الغزالية (المكتب الرشدي) ليدرس فيه الطلاب خمس سنوات بعد الدراسة الابتدائية . اما البنات فكن في بناء مستأجر . كما أقيم بناء المدرسة الرشادية الغربية ـ بالنسبة للسلطان محمد رشاد ـ وهي المدرسة الفاطمية حالياً ، وبناء المدرسة الرشادية الشرقية (الصلاحية القديمة) وكان مما جلب انتباهي عندما عينت مفتشاً لمعارف لواء السامرة سنة ١٩٤٥ ان عدد الأبنية الحكومية للمدارس بقي من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٤٥ على ما كان زمن الحكومة العثمانية . وكان كل توسع يجري فيها يتم في أبنية مستأجرة أقيمت كمنازل لا كمدارس ، وعيوب هذه الأبنية انها ضيقة الغرف والملاعب ، قليلة الهواء والنور .

وفي سنة ١٩٤٥ أراد حاكم اللواء ان يكتب تقريراً مفصلاً عن كل دائرة من دوائر لواء السامرة . فتوقف عند دائرة المعارف ليستوضح حقيقة الوضع . وقد فاجأته بعد سؤاله بما يلي : يقولون ان الاتراك قد دخلوا البلاد سنة ١٥١٧ على عربات تجرها الثيران كما خرجوا منها سنة ١٩١٨ على عربات تجرها الثيران أيضاً .. ولكنهم قد خلفوا وراءهم في مدينة نابلس اربعة أبنية حكومية للمدارس وحديقة البلدية ، وساعة المدينة ، والمستشفى الوطني . أما انتم فلم تقوموا ببناء غرفة واحدة طوال ٢٧ عاماً أي من ١٩١٨ الى هذه السنة ١٩٤٥ . والذي أخشاه هو ان ترحلوا عن هذه البلاد دون ان تتركوا فيها أي أثر ثقافي يذكر الناس بكم .. وكان الكلام شديد التأثير عليه ، حتى انه لم يكد يصدق الخبر . وقال انه سيكتب تقريراً سرياً للمندوب السامي يشرح فيه هذه القضية . وطلب مني في الوقت ذاته ان أحث أغنياء المدينة على القيام بإنشاء أبنية للمدارس كما يفعلون في بلاد الانكليز ، وكان جوابي هو ان الاغنياء في المدينة ليسوا في غناهم من النوع المعروف عندكم في الغرب وإنما هم أغنياء مالياً بالنسبة للفقراء . هذا وقد بر بوعده وخصصت الحكومة على الأثر ولأول مرة في تاريخها ، مبالغ تصرف على إقامة أبنية للمدارس في المدن على أن تقدم لجان المعارف المحلية مبالغ مساوية للغاية نفسها» .

٣) حول الحركة العربية الحديثة ـ عزت دروزة ص ٢٠١ جزء الثالث .

٤) جذور القضية الفلسطينية د. اميل توما ، راجع ص ٢٤٢ .

٥) لم يكن هذا التفسير الا ترجيعاً لصدى التفسير الذي تضمنه الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٢٢ وفيه توضيح للمعنى المقصود من عبارة الوطن القومي اليهودي. والتوضيح ينفي ان هذه العبارة تعني فرض الجنسية اليهودية على العرب، او حرمان سكان البلاد عملهم. كما اعلنت بريطانيا فيه ان وعد بلفور ليس الغاية منه جعل فلسطين يهودية. فحكومة (جلالة الملك) تنظر الى هذه الامال على انها غير قابلة للتطبيق، وانها لا تفكر في وقت من الاوقات باخضاع او محو السكان العرب او قتل لغتهم وادابهم في فلسطين. انظر «جذور القضية الفلسطينية» ص ١١٩ د. اميل توما

٦) (اخي ابراهيم) سلسلة الثقافة العامة.

٧) «جذور القضية الفلسطينية» ص ٢٥٣ ـ د. اميل توما.

٨) في واحدة من رسائلي الى اختي (أديبة) بتاريخ ٨/ نيسان ١٩٥٧ كتبت اقول: (....في عصر كل نهار خميس تلقى في النادي محاضرة يدور بعدها نقاش بين المحاضر وبين المستمعين وكثيراً ما يستدعي النادي محاضرين من خارج نابلس: مساء نهار الجمعة الماضي كان خطيبنا رئيس الوزراء السيد سليمان النابلسي وكانت الدعوة عامة طبعاً. ولقد تدفقت حشود من الجنسين على قاعة (المدرسة الغزالية) التي اختيرت لاتساعها من اجل المناسبة وكان الواقفون اكثر عدداً من الجالسين ناهيك عن الاعداد الهائلة الذين رقفوا في الشارع يستمعون الى «ابو فارس» من خلال مكبر الصوت. كان مهرجانا وطنياً قال فيه رئيس الوزراء كلمته الصريحة القاطعة عن موقف الحكومة من امريكا والاتحاد السوفييت، وتستطيعين تكوين صورة ذهنية للحماس والهتافات والتصفيق حين انقل اليك اهم ما قاله في تلك الامسية وهو: [ان امريكا تريد ان تضعنا في جيبها الخلفي، ونحن نقسم ـ اي الحكومة ـ انه لو قالت امريكا لنا اتركوا صداقة روسيا وخذوا مليون مليون دولار لقلنا لها: لا....] ان نابلس لا تزال تتحدث مبهورة بروعة خطاب الرئيس سليمان وبتوهج تلك الامسية.

٩) Kamhawi, Dr. Labib. Palestinian – Arab Relation: A study of the Political Attitudes and Activities of the Palestinians in the Arab Host – States, 1949 – 1967 (London: Ph. D. Dissertation; University of London)

١٠) مديرة دائرة التربية والتعليم في وكالة الغوث في الضفة الغربية.

١١) لعل القارىء يغتفر ايراد رسائل ابن عمي وهو في انكلترا حول الموضوع، فحين عدت الى رسائله اثناء كتابة المذكرات وجدتني استعيد نشوة تطلعي آنذاك الى زيارة تلك البلاد، وأطمع في ان يشاركني القارىء هذه النشوة.